

عبد البريغ هقر

التربية الإسلامية
للفرد المسلم

الجزء الأول

دار الأمانة
الإمارات العربية المتحدة - دبي



الامارات العربية المتحدة - دبي ص.ب. : ٢٩٤٤
برقياً : مكتبة هاتف : ٦٦٥١٢٠

التَّزْيِينُ الْإِسْلَامِيُّ
لِلْفَرْدِ الْمُسْلِمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

مقدمة :

لماذا مجموعة التربية الأساسية

كان هدفنا من تسجيل هذه المحاضرات ... أن نجيب على جملة من التساؤلات المشاركة في هذا العصر الحديث . ولنوقف الناشئين من الشباب الإسلامي على حقائق إسلامية؛ ربما كانت غير واضحة في المناهج الدراسية — أو كانت غير متوفرة في سوق المعرفة المتداولة . وإن كانت موجودة في كتب المراجع والأهميات؛ فهي إذن عملية تقريب المعرفة الضرورية وتسهيل تناولها ... وما أردنا إلا الخير والله حسبنا ونعم الوكيل .

مناهج العلم: ومن خلال مطالعاتي لمدة ستين عاماً لاحظت أن فروع العلم كثيرة متشعبة فمنها العلم المدني الرسمي؛ (وهو الذي تفرضه الحكومة وتتعرف به دون غيره في الشهادات الرسمية)، ومنها العلم المستورد البحث؛ ومنها العلم المستورد الهادف ومنها العلم الشرعي الديني؛ ومنها الشطحات المضللة ومنها الدراسات التافهة (التي تضيع العمر ولا جدوى منها) ...

وقد أمرنا الله تعالى بطلب العلم؛ وامتدح العلماء ... وذم الجاهل والجاهلين . كما أشار النبي صلى الله عليه وسلم لذلك وأكد به بأحاديث كثيرة ... ولكن المقصود هو العلم النافع ... أي الذي ينفع صاحبه أو ينفع الناس كافة ... وهو الذي يحفظ من الرذيلة، ومن الانحدار إلى الشهوات والمعاصي ... ذلك هو العلم الذي أراد الله ورسوله ... فليس كل علم يمدح ... بل إن الله تعالى جعل العلم في بعض الحالات، سبباً للخلاف والنكبات العامة، قال تعالى «فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم — بغيا بينهم» .

وأنت كمسلم عندما تجلس إلى جهاز التلفزيون — تطالعك الأفلام الأجنبية مثلاً، تحمل صور مجتمعاتهم مطبوعة بطابعها الغريب علينا ... (وقد بلغنا أن بعض هذه الأفلام الشريرة، مصنوعة للتصدير لمثل بلادنا ولا يسمحون بعرضها في

بلاذهم) وفيها من الخيانة والقتل والإجرام — وفيها الانحدار الخلقي بكل أشكاله...

و يبقى أبنائنا وتبقى بناتنا البراء؛ مشدودين إليها ساعات كل يوم... ولا يستبعد أن يتأثروا بها أو يرونها شيئاً عادياً... وربما أقدم بعض شبابنا على الإعجاب بهم وتقليدهم — فنشأت الجرائم في بلادنا وهي ديار السلام والإسلام... وهذا هو حصاد المهشيم، وهذا هو ما كنا نخافه ونحذره... ثم ينهض الأدباء والنقاد للشكوى من الفساد والانحدار... لكن هذا الفساد لم ينشأ في يوم وليلة، ولكنه حصل بتدريب طويل وتقليد طويل.

وقل عن مثل ذلك عن باقي مظاهر الحياة — التي تبتعد تدريجياً عن مصادر الهداية الإلهية، وتقترب تدريجياً من مصادر الأخطاء البشرية...

ولا شك أن جهود العلماء مستمرة، وجهود المصلحين دائبة — ولكنها أصبحت ضئيلة باهتة أمام إمكانيات الآخرين وأصواتهم العالية، ومنابرهم المؤثرة... وكأننا أمام حرب شديدة مسلطة عنيدة... أو قل هي الفتنة التي تدع الحليم حيران...

ويرى العالم الدارس نفسه مسئولاً أمام الله تعالى عن كتمان العلم، أو عن القعود عن الجهاد في هذه المعركة العلمية الأدبية — فضلاً عن الجهاد الواجب بالنفس والمال في ميادين الحرب.

والعلم النافع لا يحيا إلا إذا توفرت له الحرية، وتوفر له الإخلاص... وهذا زمان اشتدت فيه سرعة الأشياء... وصار الوقت قليلاً عزيزاً... فلم يعد هناك من يجلس للتأليف في الموسوعات الضخمة، كما حدث من قبل — بسبب كثرة المعارض والمسموع والمشاهد... لذلك وجب علينا أن نقدم المعارف النافعة في أقل حيز ممكن... وإلا فارقنا المجتمع المتسرع... أو كلفنا الناس شططا. فعندما نقدم هذه المجموعة من المحاضرات ولا نزعج أن ما نقوله هو النهج الأسلم، ولا نزعج أننا علماء فالله أعلم... إنما نقصد البيان الموجز الذي يدفع للاستزادة من العلم ونرجو من كل قادر غيور أن يكمل ويصحح، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(آداب العبادات)

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

نبدأ بتعريف العبادة وأهميتها: قال الله عز وجل (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) (١) . فالعبادة هي معرفة الله تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته ، والقيام بحقه وطاعته في ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر . وكل شيء يفعله المسلم هو مسئول عنه بين يدي الله تبارك وتعالى .

وإذا نظرنا إلى العبادة عند أصحاب الملل والديانات المختلفة ، نجد أنها عبارة عن مجموعات من الطقوس الفارغة التي لا تغني شيئاً ، ولا ترقى نفساً . إنما هي تقاليد وضعها مجموعة من الكهان أو من الباحثين والعلماء ، ثم اتخذوها ديناً — وما أنزل الله بها من سلطان ، أما العبادة في الإسلام ، فهي تشمل على تهذيب النفس ، وعلى إعلاء الفرائض ، وعلى ترقية الطباع ، وتجديد الحياة وخدمة الآخرين ، ويمكن تقسيم العبادة في الإسلام من الناحية النظرية إلى جوانب إيجابية وجوانب سلبية .

فالجوانب الإيجابية: هي أداء الفرائض ، ومن الفرائض الصلاة والصوم ، والزكاة والحج والجهاد والقيام بالدعوة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . ومن النوافل الإيجابية أيضاً أداء السنن والقربات ، كالصلوات الملحقة بالفرائض ، والذكر والعبادة والتلاوة ، والتوبة والاستغفار ، والإقامة والتفكير في آيات الله .

أما النواحي التي يمكن أن تسمى سلبية ، فهي إيجابية أيضاً على اعتبار أنها تتمثل في اجتناب النواهي ، سواء في المعاملات ، كاجتناب السرقة والغش

والخداع، أو في الأخلاق كاجتناب الزنا وشرب الخمر ولعب الميسر، أو في المعاملات كالربا والبيع الفاسدة ونحوها، فاجتناب النواهي عبادة، واتباع النوافل عبادة، وأداء الفرائض عبادة. كما أن الأخلاق الحسنة عبادة، وهي التي تتمثل في صلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وتفريج كربات الناس، قال عليه الصلاة والسلام (إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً) وقد نصت آيات القرآن الكريم كما نصت أحاديث النبي الكريم على أنواع من الأخلاق، وسيأتي بيانها في محاضرة مستقلة إن شاء الله تعالى.

أدب العبادة:

يجب أن يوجه المسلم العبادة لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله فقد أشرك بالله، وحبط عمله، لأن الله لا يقبل أن يشرك به، ومن العبادات التي يجب أن تصرف لله عز وجل، الصلاة، بما فيها من دعاء، وركوع وسجود، ومنها الانابة والتوكل، والطلب والاستعانة، والاستغاثة والذبح، والنذر والحلف، فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله فهو على خطر عظيم، ويمكن للإنسان أن يطلب من أخيه شيئاً، مع اعتقاد أن الذي ينفذ الطلب، ويقرر الأمر في النهاية، هو الله عز وجل ولا شريك له.

ثانياً ومن آداب العبادة: أن لا يعبد الله تعالى إلا بما شرع، والشرع يكون من الله أو من رسوله، صلى الله عليه وسلم فقط، فمن اخترع عبادة يظن أنه يتقرب بها إلى الله، فهي مردودة عليه، وإنما يعبد الله بما تقرر على لسان نبيه، أو في كتابه الكريم، فالمشروع هو الله، وصاحب السيادة هو الله، وصاحب الحلال والحرام هو الله، وقد عاب الله على كل من يضع الشرائع بقوله: (أم هم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) (١) فليس لأي مخلوق، أن يشرع للناس، فيحل حلالاً أو يحرم حراماً. ثم أن الرسول صلى الله عليه وسلم، مبلغ صادق أمين، لا ينطق من عند نفسه، ولا يقول إلا بما أوحى إليه... قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) (٢) والمخالفات تضعيع العبادة

أو تقلبها إلى معاصي، فالأصرار على الصغائر يجعلها كبائر، والاستغفار قد يقلل من خطر الكبائر ويمحوها أو يحولها إلى صغائر، لذلك كان المسلم في حياته على صراط مستقيم، فهو مطالب أبداً بالالتزام، ومطالب دائماً بالطاعة، والله لا يريد من عباده إلا ذلك.

وفي الحديث القدسي عن الله عز وجل (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً) وقال تعالى: (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) (١). وهو الغني عن عباده، وإنما يريد منهم أن يعرفوه، وأن يعبدوه، وأن يذكروه، ويلجأوا إليه، وأن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً.

فضل الدعاء والاستغفار وآدابهما:

وردت الآيات والأحاديث بفضل الاستغفار والدعاء، نذكر من ذلك قول الله عز وجل: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) (٢) وقال تعالى في سورة آل عمران (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (٣) وقال تعالى في سورة النساء (واسألوا الله، من فضله ان الله كان بكل شيء عليماً) (٤) وقال تعالى في سورة الأعراف (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية، انه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً، ان رحمة الله قريب من المحسنين) (٥) أما الأحاديث الشريفة فمنها قول النبي صلى الله عليه وسلم (ما من عبد يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا وقال الملك ولك بمثل ذلك). وقال عليه الصلاة والسلام (ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله أياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم).

(٣) آل عمران ١٣٥

(٢) البقرة ١٨٦

(١) الحج ٣٧

(٥) الانحراف ٥٥ - ٥٦

(٤) النساء ٣٢

آداب الدعاء: فمن آداب الدعاء ما جاءت به الآيات الكريمة، من التضرع والخشية والسكون وحسن الأدب بالنسبة لله تبارك وتعالى، وقد أشارت إلى ذلك الأحاديث الصحيحة ولم يؤثر الدعاء بالشعر، ولا بما يسمى التواشيح قال تعالى **(وما علمناه الشعر وما ينبغي له)** (٦) أي لا يليق به ذلك. نعم لقد استمع رسول الله إلى الشعر الذي قيل بين يديه في الدفاع عن الإسلام، وعن مقام النبوة، ولكنه ليس وسيلة لعبادة الله تعالى — كما لا يجوز التغني والتثني مثل أشكال التسلية واللهو، فذلك يعارض الخشوع والخشية التي أمرنا الله بها، ويندب حضور القلب، وتيقن الإجابة، فعن أبي هريرة قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة... واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه) ومن الأدب استفتاح الدعاء بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. **ومن ذلك الخشوع:** فإن القلب المتصل بالله ساكن وقور.

وقد وردت الآيات والأحاديث الشريفة صريحة وكثيرة في هذا المعنى، من ذلك قول الله عز وجل **(قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون)** ومعلوم أن الصراخ والغناء وتكبير صدى الصوت ينافي الخشوع ولا يتفق معه.

و يؤخذ من مفهوم المخالفة أن الدعاء الذي يتم بالاعلان وعدم الانكسار والتضرع، هو عدوان على مقام الألوهية. لقول الله تعالى في وصية لقمان لابنه: **(واغض من صوتك. إن انكر الأصوات لصوت الحمير)** وقول الله تعالى **(يدعون ربهم خوفاً وطمعاً)** فالخائف من الله الطامع في رحمته لا يرفع الصوت، أما الأحاديث الشريفة فمنها انه صلى الله عليه وسلم كان مع جماعة في غزاة فضجوا بالدعاء فقال لهم (أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً انكم تدعون السميع البصير) ومنها ما ورد أنه دخل المسجد فوجد قوماً يقرءون القرآن بأصوات مرتفعة: فقال (كلكم يناجي ربه فلا يجهر بعضكم على بعض) ومعلوم أن الشوشرة على المصلين حرام. وأما في السيرة المطهرة — فلم

يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بالذكر، ولا بالدعاء ولا بالصلاة، ولا بتلاوة القرآن... لقد كان مجتمعاً يسيطر عليه الهدوء. ولقد وصف الله تعالى الذين نادوا رسول الله من وراء الحجرات بأنهم قوم لا يعقلون. أما مكبرات الصوت التي ظهرت في هذا العصر، فلها نفعها ولها ضررها. فأما نفعها ففي كونها توصل الصوت واضحاً جلياً للمصلين في المساجد الكبيرة، كالحرمين الشريفين وتوصل الصوت إلى مصليات النساء. وتجمعاتهم، إذا كن في أماكن منعزلة لا يصلها الصوت العادي... ومنها الدعوة إلى الصلاة بالأذان — وإعلان وقت الدخول فيها بالاقامة — كل هذا حسن لأنه لم يصدر منع الجهر به عن الله ولا عن رسوله، لكن إساءة استعمالها بتلاوة القرآن في الليل والنهار، على غير المتهيئين للاستماع والانصات، وإساءة استعمالها في شؤون العبادة، التي ورد الأمر بجعلها خاشعة خفية. (ومن ذلك كلمات الذكر والاستغفار والصلاة) فكل ذلك لا يجوز... لمخالفته للنصوص الصريحة.

وربما يقول قائل: إنها تذكر المارة في الطريق بوجود محل الصلاة، وترقق قلوب المتساهلين... فنقول إن الله لم يأذن لنا أن نعبده إلا بما شرع... وما وقع الناس في البدع والضلالات إلا بما استحسَنوه من عند أنفسهم، على غير ما أمر الله ورسوله. ثم أن الله تعالى شرع الأذان والاقامة بكلمات محددة وهو يعلم أن فيها الكفاية.

ومن آداب الدعاء — اختيار جوامع الكلم — أي الكلمات البليغة ذات المعاني الكثيرة الجامعة، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك.

ومنها أن يختم دعاءه بقوله آمين (وآمين اسم فعل أمر بمعنى استجب يا رب)، ومنها التكرير ثلاث مرات في بعض الأدعية، ومنها أن لا يتعجل الإجابة، فإن الله لا يعجل بعجلة أحد ومنها أن لا يدعوا على نفسه ولا على والده ولا ماله، ومنها أن يبدأ بنفسه إذا دعا لغيره، كأن يقول اللهم اغفر لي ولوالدي،

وبعض الناس يعتقدون بالدعاء بأن يقولوا على الله ما لا يليق به ، كقولهم « اللهم اني لا أسألك أن تحميني من أعدائي فأنا كفيل بهم ، ولكن احمني من أصدقائي ، وكقولهم اللهم اني لا أسألك أن تضعف عدوي ولكني أسألك أن تقوي ظهري ، وكل هذا من سوء الأدب ، فإن الله يفعل ما يشاء كيف يشاء ...

أما الأوقات التي ترحى فيها اجابة الدعاء فمنها ما يكون بين الأذان والاقامة ، لقوله عليه الصلاة والسلام لا يرد الدعاء بين الأذان والاقامة ، وكذلك في السجود ، لقوله عليه الصلاة والسلام أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فاكثروا الدعاء ، وكذلك في السفر وحدث المظالم ، فعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ثلاث دعوات مستجابات ولا أشك في اجابتهن ، دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده ، ومنها الدعاء عند اللقاء في الجهاد ، وعند نزول المطر ، وعقب سماع الأذان فعن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يرد الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم الناس بعضهم بعضاً ... » .

فاجتهد يا أخي أن تلح في الدعاء ، وأن تكثر من الاستغفار في كل وقت ، وبخاصة في هذه الأوقات المذكورة وفي جوف الليل ووقت السحر .

أفضل الأدعية :

ان أفضل الأدعية ما ورد في القرآن الكريم ، ففيه آيات أدعية كثيرة ، كقوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (١) وكقوله تعالى (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (٢) وكقوله تعالى (ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (٣) ثم الأدعية التي دعا بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وتسمى « المأثورات » يعني ما أثر على النبي ونقل عنه بسند صحيح وكانت للنبي أدعية يدعوها لعوارض الحياة المختلفة ، من مرض وأكل ونوم وسفر وزواج وغير ذلك ، فعليها بها .

(٣) آل عمران ١٤٧

(٢) الأعراف ٢٣

(١) البقرة ٢٠١

لغة الدعاء:

يجوز الدعاء بكل لسان، فالله هو العليم الخبير أما ألفاظ القرآن فتكون بالعربية، وذكر الله تبارك وتعالى من أسمى العبادات قال الله تعالى (فاذكروني أذكركم واشكروني ولا تكفرون) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) (٤) ويجوز الذكر منفرداً كما يجوز أن يكون في جماعة.

آداب الذكر والذاكرين:

والذكر في جماعة له آداب خاصة منها: أن لا يكون الصوت مرتفعاً، ولا مسبباً لشوشرة على جار أو مريض أو طالب علم، لأن ذلك ينافي الخشوع، وحفظاً لحقوق الجيران المشروعة، وعملاً بقوله تعالى (واغضض من صوتك) ومن آداب الذكر في جماعة ألا يبنى أحد على كلام غيره، كأن يقول ناس (لا إله) ويرد الآخرون بقولهم (إلا الله) وإنما يقول كل إنسان جملة كاملة مفيدة، ومن ذلك أن لا يكون الذكر بكلمة واحدة كقولهم (الله — الله — حي. حي حق — حق) فهذا كلام لا معنى له، وإنما ينبغي أن يكون الدعاء بجملة صحيحة كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن آداب الذكر ألا يصاحبه صوت ولا نغم ولا تصفيق/ فقد عاب الله عبادة اليهود بقوله (وما كان في صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) كما أن الأناشيد أثناء ذكر الله تصرف القلوب عن المعاني المقصودة من الذكر.

ومن ذلك أنه لا يجوز اختلاط الرجال بالنساء في أماكن العبادة، لأن هذا لا يجوز بأي حال من الأحوال، ومن ذلك أن لا يتم فيه رقص ولا تمايل ولا حركات، كما يفعله المجانين والمجاذيب وإنما يكون بكمال الخشية والطمأنينة. وبالجملة لا يجوز أن يقع في الذكر والدعاء شيء من البدع والمخالفات، وقد عرف العلماء البدعة بأنها كل ما استحسنته الناس بأهوائهم في أمر الدين، سواء

(٤) الأحزاب ٤١ — ٤٢

بالزيادة فيه أو بالنقص منه، لما كان درء الفاسد يقدم على جلب المنافع، فلا يتهاون أحد في مقاومة البدع. ومن أخطاء العابدين ما يفعله بعضهم تمثيلاً كأنه مجذوب، أو فاقد للوعي أو أنه غاب عن الوجود مع ادعاء الشهود، فالله تبارك وتعالى لا يشهده أحد ومن زعم أنه يرى الله في الدنيا فقد افترى الكذب على الله عز وجل، وليس أحد منا بأفضل من موسى عليه الصلاة والسلام الذي قال الله تعالى له (لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) وقد ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «من زعم أن محمداً رأى ربه ليلة الإسراء فقد أعظم على الله الفرية» يعني الكذب، والله تبارك وتعالى لا يندمج في أحد، ولا يفنى فيه أحد، ولا يقترب منه أحد، أنه تبارك وتعالى بائن عن خلقه متعال عليهم، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١).

الاستكبار عن العبادة:

المتوردون على العبادة أشقياء ولا خير فيهم، وقال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) بينما ترى العابدين سعداء مطمئنين بذكر الله، قال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقال: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) فالعابد حبيب الله مطمئن لأقدار الله، فالمؤمن لا يسب ولا يغلو ولا ينتحر ولا يتشائم وإنما يقول: (قدر الله وما شاء فعل) وليست العبادة هي الكلام وحده، فالعمل عبادة والفكر عبادة، والرحمة لعباد الله عبادة، والجهاد عبادة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، فالمؤمن كما قلنا عابد الله على كل حال.

وسوف نورد طائفة من آداب وأحكام عامة، فيما يخص الصلاة والزكاة والصوم والحج — مما قل أن تتعرض له كتب الفقه والمختصرات.

فمن أحكام الصلاة وآدابها ينبغي الحرص على أن تؤدي في جماعة...

ومن أحكام صلاة الجماعة ما يلي :

- ١ — أن تكون الجماعة في المسجد لما فيه من إظهار الشعائر وقوة المسلمين .
- ٢ — وتسن الجماعة في الصلاة المقضية وأقلها إمام ومأموم .
- ٣ — وتسن للنساء المفردات عن الرجال ، وتكون احداهن اماماً (عند الشافعي وأحمد) وتكره امامة المرأة للنساء عند الأحناف ، وهي غير جائزة عند مالك .
- ٤ — ويشترط لصحة امامة الرجل : الإسلام والبلوغ والعقل والقراءة والسلامة من الأعذار كسلس البول واستطلاق الريح مثلاً .
- ٥ — وأولى الناس بالإمامة إذا لم يكن صاحب منزل ولا ذا سلطان : الأعلم ، ثم الأقرأ ، ثم الأورع ، ثم الأسن ثم الأحسن خلقاً .
- ٦ — يقف الواحد عن يمين الامام والاكثر خلفه ويصف الرجال ، ثم الصبيان ثم النساء .
- ٧ — ينبغي للامام أن يخفف ، فلا يزيد عن القدر المسنون في القراءة .
- ٨ — والأفضل للنساء الصلاة في البيت ، ولا ينعن من حضور الجماعة .
- ٩ — وتستحب الصلاة في المسجد الذي يجتمع فيه العدد الأكبر .
- ١٠ — ويجب على المؤتم متابعة الامام ، وتحرم مسابقته ، أما مساواته فمكروهة .
- ١١ — ويجوز للمؤتم مفارقة الامام ، فيخرج من الصلاة ويتمها وحده ، إذا كان له عذر . كما فعل أحد الصحابة عندما قرأ معاذ سورة البقرة وكان اماماً .
- ١٢ — ويسن لمن صلى منفرداً أن يعيد صلاته مع الجماعة وهي له نافلة .
- ١٢ — ويستحب للامام بعد الصلاة والسلام منها ، أن ينصرف على يمينه أو على شماله ثم ينتقل من مصلاه .
- ١٤ — ويجوز اقتداء المأموم بالامام ، ولو كان بينهما حائل ، إذا علم انتقالاته برؤية أو سماع .

١٥ - وإذا عرض للإمام عذره وهو في الصلاة استخلف غيره ليكمل الصلاة بالمؤمنين .

١٦ - ويكره أن يؤم الرجل قوماً وهم له كارهون .

١٧ - ويسقط حضور الجماعة بسبب المطر أو البرد الشديدين ، أو الخوف أو الحبس ، أو المرض أو الشيخوخة ، أو ما إلى ذلك من الأعذار الكثيرة التي ذكرها الفقهاء ويجمعها منع الحرج عن المسلمين .

١٨ - وإذا أدرك المسبوق الإمام في بعض صلاته ، فإنه يكمل بعد تسليم الإمام ، ويقضي أول صلاته بالنسبة للقراءة . وآخرها بالنسبة للشهادة قلوا أدرك ركعة من المغرب وقضى ركعتين قرأ في كل واحدة منها الفاتحة وسورة . لأنه يقضي الركعتين الأولى والثانية والنسبة للقراءة . ويقعد على رأس الأولى منها ، ويتشهد لأنها الثانية بالنسبة له فيكون قد صلى المغرب بثلاث جلسات .

٢٠ - ولا تحسب للمسبوق الركعة مع الإمام ، إلا إذا أدركه قبل أن يرفع رأسه من الركوع .

٢١ - صلاة الليل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليها طوال حياته ، لقول الله تعالى (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا) وكان يصلي كل ليلة ثمانين ركعات ثم الوتر ، وكذلك كان يفعل في رمضان ، وكان المسلمون يصلون التراويح وهي قيام رمضان فرادى في المسجد أو في البيوت . كما ثبت أن النبي صلاها بهم اماما ، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في المسجد ، أي صلاة التراويح ، فصلّى بصلاته ناس ، ثم صلى الثانية ، فكثر الناس ، ثم اجتمعوا في الليلة الثالثة والرابعة ، فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح قال « لم يمنعني من الخروج إليكم إلا اني خشيت أن تفرض عليكم » رواه الشيخان .

ومن آداب الصلاة أن لا تؤدى لأجل ما يقول الناس ، ولا تترك لأجل ما يقول الناس ، قلت لإنسان لماذا لا تصلي في المسجد مع المصلين ؟ قال (أخشى أن أكون مرائيا أظهار للناس) قلت : ان كنت تخشى الناس فالله أحق أن

تخشاه... فمع أمر الله نحن لا نلتفت لرأي الناس .

ومن آداب الصلاة حضور القلب والطمأنينة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم للمسيء صلاته (صل فإنك لم تصل) وحضور القلب يتم بمتابعة معنى ما يقرأ المصلي... والطمأنينة تتم بترك كل مشاغل الدنيا والعباد — والانقطاع لهذه العبادة وعدم التسرع فيها .

وفيما يلي بعض أحكام الصيام وآدابه :

الصيام الواجب :

١ — صيام شهر رمضان .

٢ — صيام الكفارات .

٣ — صيام النذر .

والصيام المنهي عنه :

١ — صوم يومي العيدين .

٢ — صوم أيام التشريق وهي الثلاثة أيام التي تلي عيد النحر .

٣ — صوم يوم الجمعة منفرداً .

٤ — صيام النصف الثاني من شعبان متصلاً بـرمضان .

٥ — صيام يوم السبت منفرداً — إلا في الفرض أو القضاء .

٦ — صيام يوم عرفة (لن يكون في عرفة) .

٧ — صوم المرأة تطوعاً بدون اذن زوجها إن كان حاضراً .

٨ — الوصال في الصوم — بأن لا يفطر على شيء و يواصل صوم اليوم التالي .

٩ — صوم الدهر كله .

١٠ — ومن الصيام المنهي عنه : (صيام الحائض وصيام النفساء وهو محرم)

أما صيام المريض — المسافر — الحامل — المرضع — الشيخ الكبير إذا خافوا من الصوم مشقة شديدة فهو مكروه .

وصيام التطوع أنواع: فيه ١ — صيام ستة أيام من شوال .

٢ — وصيام الأيام التسعة الأولى من ذي الحجة .

٣ — وصيام شهر المحرم .

٤ — وصيام يومي الاثنين والخميس .

٥ — وصيام ثلاثة أيام من كل شهر .

٦ — وصيام يوم وفطريوم — فذلك صيام داود عليه السلام .

٧ — والصيام في الأشهر الحرم .

ويباح للصائم ما يلي : ١ — النزول في الماء والانغماس فيه للاغتسال ، لما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصب على رأسه الماء وهو صائم من العطش أو من الحر ، رواه أحمد ومالك وأبو داود بإسناد صحيح . وإذا دخل الماء إلى جوف الصائم من غير قصد ، فصومه صحيح .

٢ — الاكتحال والقطرة في العين ولو وجد طعمها في حلقه ، لأن العين ليست منفذاً إلى الجوف أما ما يدخل عن طريق الفم والأذن فهو مفطر .

٣ — المضمضة والاستنشاق دون مبالغة ، فإن بلع شيئاً من الماء بغير قصد فلا يفطر .

٤ — الحقنة الشرجية : التي تستخرج بها فضلات الجسم ، لأن ما يدخل بها إلى الجسم دواء لا غداء ، وهو يدخل من غير المنفذ المعتاد .

٥ — ويباح للصائم ما لا يمكن التحرز منه ، كبلع الريق وغبار الطريق ، كما يباح شم الروائح الطيبة ، ويباح للمرأة عند الضرورة أن تذوق الطعام ثم تلفظه ، حتى لا يدخل إلى جوفها فتفطر .

٦ — ويباح للصائم أن يستيقظ على جنابة سواء أكان احتلام أو جماع ، والأفضل الاغتسال من الجنابة قبل النوم .

٧ - و يباح للصائم الاستمرار في الأكل حتى طلوع الفجر، فإذا طلع الفجر وفي فمه طعام وجب عليه أن يلفظه، فإن فعل صح صومه، وإن ابتلع ما في فمه من طعام مختاراً أفطر والأفضل أن يمسك عن الطعام قبل الفجر بقليل.

ومن آداب الزكاة وأحكامها ما يلي: أن يؤديها المزكي وهو سعيد النفس، يرجو من الله قبولها ليزكوبها ماله ويطهر، ولتزكوبها نفسه وتسمو فلا يشعر معها بشعور دافع الضريبة - بل هي طهرة وقربة.

ومن ذلك أن يخرجها من خير ماله، أو من أوسطه، لقوله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون). وأن يفرق بينها وبين الربا - فالزكاة تنقص المال ظاهرياً - لكنها تزيد فيه حقيقة، وعند الله في الآخرة - لقول الله تعالى (ويربي الصدقات) أما الربا فهو يزيد المال ظاهراً ولكنه ينقصه في الحقيقة، لقوله تعالى (يمحق الله الربا). وإن الزكاة لا تتبع الفكرة التصاعدية... فهي في النقود ربع العشر لمن يملك النصاب، ولن يملك مائة نصاب.

وأنها تصرف فقط في الأبواب الثمانية، التي حددها القرآن الكريم (أو لبعض هذه الأبواب) ولكن لا يجوز صرفها للأصناف الآتية:

أولاً: الأغنياء: لقوله صلى الله عليه وسلم «لا تحل الصدقة لغني».

ثانياً: الأقوياء المكتسبون: لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تحل الصدقة لغني؛ ولا ذي مِرَّةٍ سوِّيَ). رواه الخمسة. (ذو المِرَّة هو القوي سليم الأعضاء).

ثالثاً: غير المسلمين: ١ - أجمع العلماء على أن الزكاة لا تعطى لكافر محارب، ومرتد وملحد.

٢ - واتفق جمهور العلماء والأئمة الأربعة أنها تعطى لأهل الذمة بصفة الفقر، ويمكن أن تعطى لبعضهم بصفة تأليف القلوب.

رابعاً: الأقارب: لا يجوز أن يعطي الزوج زكاته إلى زوجته، لأنه مكلف بالانفاق عليها، وإذا دفع لها فكأنما دفع لنفسه. أما الزوجة، فيجوز لها أن تخرج زكاتها لزوجها (عند الجمهور).

٢ — ولا يجوز دفع الزكاة للوالدين ، إذا كان مكلفاً بالانفاق عليهما .

خامساً: آل محمد: ١ — يرى جمهور الفقهاء أن آل محمد صلى الله عليه وسلم لا يجوز لهم أخذ الزكاة ، لأنها (أوساخ الناس) كما في حديث مسلم .

٢ — وهذا المنع يشمل الزكاة وصدقة التطوع وهي أولى بالمنع .

٣ — وعند الأحناف أن هذا المنع خاص في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، لمنع التهمة أما بعد وفاته فيجوز أن يأخذوا من الزكاة .

٤ — ويجوز زكاة الهاشمي لمثله .

٥ — وإذا حرم آل النبي صلى الله عليه وسلم حقهم في خمس الخمس من الغناء ثم والفنيء ، جاز لهم أن يأخذوا من الزكاة باتفاق العلماء .

وفيما يلي بعض آداب الحج وأحكامه: أولاً — المواقيت: منها الزمانية
وهي التي لا يقبل شيء من أعمال الحج إلا فيها — وهي شهر شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذي الحجة ومنها المواقيت المكانية — وهي التي لا يجوز لحاج أو معتمر أن يتجاوزها إلا محرماً وقد حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا:
١ — ذو الحليفة (أوبيار علي) بالسنة لأهل المدينة . ٢ — الجحفة (أورابغ) بالنسبة لأهل الشام . ٣ — قرن المنازل — بالنسبة لأهل العراق والخليج . ٤ — يلملم — بالنسبة لأهل اليمن وجنوبي الجزيرة .

ثانياً: الوقوف بعرفة: وهو ركن الحج الأعظم بالاجماع ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة» رواه أحمد وأصحاب السنن ، وعرفه كلها موقف إلا بطن وادي عُرنة ، والوقوف هو الحضور ولو لخطات ، ويبدأ وقته من زوال اليوم التاسع من ذي الحجة ، أي الظهر حتى فجر اليوم العاشر ، ويجب أن يكون بعض الوقوف بعد الغروب ، بحيث يجمع بين الليل والنهار ، والوقوف من سنته الاغتسال ، ويستحب الوقوف عند الصخرات ، حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن آدابه المحافظة على الطهارة ، واستقبال القبلة ، والاكثار من الدعاء والاستغفار والذكر ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وترك اللغو

والشحناء، والانصراف عن هموم الدنيا، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصيام بعرفة، لأنه يوم عيد، وليتقوى الحجاج على الذكر والدعاء.

ثالثاً: طواف الافاضة: وهو ركن الحج الثاني، الذي لا خلاف فيه، ويسمى (طواف الركن) وطواف الزيارة، ومن أعمال يوم النحر هذه الأربعة: (الرمي ثم الذبح ثم الحلق أو التقصير ثم الطواف) وبه يتم التحلل الأخير، ويباح للحاج كل محظورات الاحرام حتى النساء.

وبالجملة؛ فإن العبادة الإسلامية تعليمات توقيفية محددة ليست مجالاً للتطوير ولا التحليل ولا الفلسفة — فمن أراد أن يطيع الله فليعرف ما أمر به الله ورسوله.

والحمد لله رب العالمين

كيف نعرف الحق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه وبعد:

فإن معرفة الحق من المشاكل التي بدأت تواجه الناس منذ فجر التاريخ، وحاول الفلاسفة علاجها بالمنطق والعقل؛ وحاول المتصوفون علاجها بما زعموا من الإلهام والكشف؛ وحاول الحكام علاجها بوضع القوانين؛ وعالجها الظالمون بالقوة والقهر — ولكن الله تعالى كان دائماً أرحم بعباده من أن يتركهم يتخبطون في بيداء الجهالة، ولا يهتدون سبيلاً؛ فأرسل لهم رسلاً على مر العصور، وفي مختلف البلدان... قال تعالى «**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**»^(١) وقال تعالى: «**ولقد بعثنا في كل قرية نذيراً**».

وسوف نتناول في هذا البحث الكلام عن الحق المنزل إلينا من عند الله تعالى — على أنه شيء مستقل متميز عن اجتهادات العباد وحركات أفكارهم... والمسلمون يسلمون به من غير مناقشة ولا جدال، بل يقولون «**آمنّا به... كل من عند ربنا**».

ثم نتكلم عن الحق الذي نتوصل إليه نحن البشر في قضايا المعيشية — عن طريق العقل الذي أنعم الله به علينا — وميّزنا به عن سائر المخلوقات... وذلك بالتطرق إلى علوم ثلاثة: اختصت بهذا الموضوع هي الفلسفة وعلم النفس والمنطق...

وهذه العلوم الثلاثة تدرس في مجالات التعليم الرسمي بكل مدارس العالم تقريباً... ويعتبرونها المدخل إلى منهج البحث العلمي الصحيح... ولا يسع أحداً أن يتجاهلها ثم إنها تختلف كثيراً عن مسمياتها في العصور القديمة... لأنها الآن أصبحت تركز على قواعد تجريبية، وتستعمل فيها الأجهزة والإحصائيات — كما سيأتي بيانه، ولا بد من الإشارة إلى أن هناك ضوابط يحتاج المسلم إلى

ملاحظتها عند السير في هذا الطريق ... وهي رفض ما كان منها مصادماً للعقيدة الإلهية لأن الله قد منّ علينا بتعليمنا أصول المعارف التي لا خلاف عليها — بينما الفلسفات متاهات وحركات فكرية — تتعدد بعدد رؤوس المفكرين فيها ...

ونحن ننظر ونختار، لكننا لا نؤمن بشيء منها ولا نتقيد به إلا ما كان مفيداً، وغير خارج عن الأصول التي آمنا بها من قبل، إذ لا بد من التفريق بين حرية الفكر، وحرية الكفر.

ما هو الحق؟

وكلمة الحق تتكون من حرفين لكنها من أوسع الكلمات معنى:

فهي اسم من أسماء الله تعالى، وهو الحق المبين — وهي تعني العدالة. وتعني السعادة وتعني الصراط السوي ... وتعني الهداية ... والصدق — لأن الباطل ضد الحق — والباطل يعني الشرور والظلم والشقاء والكذب والبهتان ...

وما من نبي ولا رسول إلا دعا قومه إلى اتباع الحق ... لكن تلك الشعوب ما لبثت — أمام الطمع والعناد — أن غيرت وبدلت. ومالت عن طريق الحق ... ولا زال هذا شأن الناس، ويرتبط الحق بالعلم والتعلم — كما يرتبط بالوحي الإلهي ... لأن العلم قسمان:

علم الغيب. وعلم الشهادة ...

فعلوم الغيب نؤمن بها ولا نناقشها، وذلك لسببين: السبب الأول: أنها خارجة عن دائرة العقل واختصاصه — وخارجة عن دائرة المحاسبة بالنسبة لنا نحن البشر فالبحث في جوهر الكهرباء، وسبب المغناطيسية، وسر الخليفة، وشؤون الروح، وعلل القضاء والقدر، وعدد الكواكب ومكوناتها ... كل ذلك خارج عن حدود مسؤوليتنا، فلا ينفع العلم به، ولا يضر الجهل به ... بل يجب أن ننتفع بما سخر الله لنا منه ونفوض العلم فيه إلى الله تعالى ... وقد أدبنا القرآن

الكريم هذا الأدب في مثل قوله تعالى : «يسئلونك عن الروح . قل الروح من أمر ربي ؛ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ...» وقوله تعالى «يسئلونك عن الأهلة - قل هي مواقيت للناس والحج ...» فأحال إلى الانتفاع بها دون البحث في جوهرها .

وأما علم الشهادة - أو علم المشاهدات والتكاليف فهو بالتالي ينقسم إلى قسمين :

الأول : ما جاءنا فيه علم عن الله ورسوله . والثاني : ما يحتاج للكشف والاكتساب ...

وعلم الشهادة والتكليف - ومناهج المعرفة فيه هو موضوع هذا البحث .

فبالنسبة للشطر الأول - وهو ما جاء فيه علم عن الله ورسوله - فنحن الذين آمننا بالله وكتابه وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم - وقد شهدنا بصحة المنقول إلينا ، وصدقناه ، فلم يعد يسع أحداً منا أن يكذب بشيء منه ، أو يرتاب فيه - وإلا كان متراجعا عما شهد به من قبل ، وهذا كلام له تفصيل ...

وفي علوم المشاهدة والتكاليف تحدث القرآن الكريم عن موضوع الاعتقاد - وعن موضوع الشريعة ، وعن الأخلاق الإنسانية ، وعن بعض الشئون المعاشية . وعن قصص الأولين وتواريخهم ... ومضى الصدر الأول وهو القرن الأول والذي يليه والمسلمون سائرون على تلك الهداية ، غير مبدلين ولا منحرفين ... ثم دخلت عليهم علوم الأمم السابقة من المشركين وأهل الكتاب - بسبب فتح باب الترجمة في العصر العباسي واندس هؤلاء المترجمون من اليهود والنصارى في قصور الحكام باسم البحث العلمي ، وصار لهم تلاميذ من المسلمين والشكاك ، أخذوا عنهم وتأثروا بهم ، فاختلطت الأمور وصار للفلسفة شأن عظيم ، فنشأت الفرق ، كما حدثت الانقسامات الفكرية بين المسلمين . الأمر الذي دفع بكثير من العلماء المخلصين إلى التصدي لهذا التيار الخطير ، دفاعاً عن دين الله ... بمثل ما نحاوله الآن .

مقاييس الحق في الإسلام:

إن مصدر الحق في الإسلام هو الشرع: فالحلال ما أحله الله... والحرام ما حرمه الله وكذلك الخطأ والصواب والمباح والممنوع... يقاس كله على مقاييس الشريعة.

وإن تفسير الشريعة وفهم أسرارها يرجع فيها إلى العلماء المجتهدين، الذين تلقت الأمة اجتهادهم بالرضى والقبول، لقول الله تعالى «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» ولقوله تعالى «ولوروده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم» وهذا توثيق إلهي للذين يملكون القدرة على الوزن والاستنباط، في حدود ما أنزل الله. (راجع المحاضرة ٨ - ب عن الفقه والاجتهاد والتقليد) ومنذ زوال سلطان الخلافة الإسلامية العامة، ضاع المرجع الشرعي الذي يستطيع وحده أن يحكم لصاحب الحق ويحكم به على صاحب الزندقة - فأصبح في وسع كل حامل شهادة أو كل صاحب منصب في الدولة أن يقول على الله بغير علم - وأن يحمل الناس على ما يريد من الباطل. ولذلك يمكن القول بأن من المقاييس المهمة في اكتشاف الحق في الأمور الشرعية والتكاليف الإلهية ما يلي:

أولاً: إن تفسير معاني القرآن الكريم تكون طبقاً لما جاءت به الأخبار بسند صحيح إلى ما فسره الرسول صلى الله عليه وسلم أو أحد أصحابه - وإلا فيفسر طبقاً لقواعد اللغة العربية، من غير تأويل ولا تعطيل؛ وعلى ضوء الآيات التي تحمل نفس المعاني، بعد الإمام بأسباب النزول ومعرفة الناسخ والمنسوخ والحديث الصحيح، الوارد في الموضوع.

ثانياً: يرجع في رواية الحديث وتصحيحه إلى الثقات، وكتب الصحاح المعروفة... ولا يكتفى بما يتداول على ألسنة الناس ويجب التحقق قبل بناء شيء على الحديث.

ثالثاً: إن الحق أغلا من الرجال... فالرجال تابعون للحق... وكل أحد

يؤخذ من كلامه ويرفض؛ إلا النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم — ولا عصمة إلا لنبي.

رابعاً: إن الرؤى والالهامات التي يتحدث بها ناس عن أنفسهم؛ لا يثبت بها حكم شرعي، ولا يبنّي عليها عمل يلزم الآخرين؛ إنما هي أمور شخصية تخص أصحابها وحدهم وكذلك الكرامات وخوارق العادات. والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى «الذين آمنوا وكانوا يتقون» والإيمان سر بين العبد وربّه، والتقوى سر يعلمه الله، وبالتالي لا نستطيع تسمية أحد ولياً لله تعالى... وقد وصف الله الذين يزكون أنفسهم أو غيرهم بأنهم كذابين. قال تعالى «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم، بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون شيئاً. انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً».

خامساً: إن الوحي قد ارتفع بموت النبي صلى الله عليه وسلم، فلا ينزل على أحد بعده... ومن زعم أنه يتلقى العلم عن الوحي فهو متنبئ كذاب، ومن زعم أنه يتلقى عن الله مباشرة فهو كافر فاجر، لأنه جعل نفسه فوق درجة الأنبياء. أو أنه كذب بأن محمداً خاتم النبيين.

سادساً: وعلى كل من جاء بمقولة أو قاعدة تخص الدين أن يقدم عليها الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله — ومن حق كل إنسان أن يرفضها إذا لم يقتنع بقوة الدليل أو بحسن الاستشهاد وانطباقه على الموضوع.

سابعاً: إن الحرية شرط لظهور الحق... فلا يعول على آراء المقهورين والمستعبدين، والإسلام ينادي بالحرية، ويعمل على تحقيقها في كل مجال... ولولا ذلك ما شرع الجهاد، ويلحق بذلك القول بأنه لا عبرة بأقوال الطامعين المأجورين الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً... وما أكثر ما نرى آثارهم في الصحف والمجلات والكتب... حتى إذا غضب معين العطاء أو خاسموا سادتهم الأولين — قالوا «آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين». وقد يما قيل «أذل الحرص أعناق الرجال».

ثامناً: ويجب أن تقال كلمة الحق في وقتها... فكم من جرائم ارتكبت

وسكت الناس عن بيانها، ثم جعلوا ينشرون الفضائح، ويدعون النزاهة والبطولة، بعد فوات الآوان وبعد سقوط «معبود الجماهير» كما يقولون... وهذا لا يفيد — ولكن انظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» — وهذا يعد في الشهداء — لأنه قال كلمة الحق في وجه الظالم فلعل الله أن يهديه بها أو يهدي بها قوماً آخرين. ولذلك اعتبر الجهاد بكلمة الحق من الجهاد في سبيل الله.

تاسعاً: وإن الكافرين لا يوثق بهم في قضية الحق الديني... لأنهم يكذبون به أساساً، ولا حق لهم في أن يناقشوا تفاصيله، ولا يجوز سماع رأيهم فيه... وليس هو من العلم الديني المفتوح مجاله أمام الجميع — إنما هو علم يخص الذين آمنوا به وحدهم.

مبادئ قرآنية لاظهار الحق :

هذا — وأما الحق الذي تناولته آيات القرآن الكريم مما هو من علوم الدنيا فهو كثير — وغالب ما ورد فيه يتصل بالمبادئ العامة دون التفاصيل، فمن ذلك :

١ — الأمر بالوفاء بالعهود والعقود

٢ — والأمر بالشهادة العادلة، واعتبار أدائها من العبادات لقوله تعالى «واقيموا الشهادة لله» والتحذير من الامتناع عن قولها، لقوله تعالى «ومن يكتمها فإنه آثم قلبه. والله بما تعملون عليم».

٣ — وكتابة الديون — دون الاعتماد على الكلام الشفوي، أو على الثقة الشخصية، (إلا في حالات معينة).

٤ — والنهي عن السرقة والغلول من الغنائم قبل قسمتها في حالات الحرب.

٥ — والأمر بالصدق: والإيثار والاحسان، والصدقة وأداء الأمانة.

٦ — كما حدد النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً من التفاصيل في

المعاملات كالبيع والشراء، والوكالة والاجارة، والشركة والهبة، والوصية والميراث والأحوال الشخصية، كل ذلك من الحق المرتبط بعالم الشهادة والتكاليف الشرعية — الذي لا يقبل المسلم له تعديلاً ولا مناقشة. لأنه من مقتضى الإيمان الذي سبق اعلانه والالتزام به من قبل.

وجوب التحقيق قبل التصديق :

هذا ومن المسائل التي عمت بها البلوى في هذا الزمان — سرعة التصديق وسطحية العلم ... يأتي الرجل فيقول عن أمور الشريعة: أنا أرى كذا... وأنا أميل إلى كذا... ثم ينقل عنه آخرون ويتخذون هذا الهوى ديناً — ويعتبرون هذا التخريف شريعة... إن على من سمع هذا أن يسأل: «من أين جئت بهذا الحكم؟» — فيقول مثلاً: «قرأت الحديث في كتاب كذا... فيذهب ليطلع ويتحقق — فإن وجده صادقاً — وإلا أعلن كذبه على ملأ من الناس... ولو فعل كل إنسان ذلك عبادة لله وغيره على دين الله — إذن لتقاصرت ألسنة المغترين. يقول بعض المشايخ: «إن الاعتراض على الناس ممنوع» ونحن نفهم أن الاعتراض على أقدار الله لا يجوز — إن كان يتصل بالغنى والفقر، أو كان يتصل بالصحة والمرض... أما إن كان يتصل بالتصرفات المخالفة للدين، فالاعتراض عليه فريضة واجبة، لأنه لازم للأمر بالمعروف أو للنهي عن المنكر.

وأما القسم الثاني من علوم الشهادة وهو ما يتم بالاكْتساب والبحث وغالبه من الأمور المعاشية فأبوابه كثيرة أيضاً، ومن ذلك:

أ — أمور القضاء والتحقيقات والشهادات.

ب — مسائل العلوم والاكتشافات التي لا غنى عنها في ترقية الحياة الإنسانية.

ج — معرفة العلاقات بين الأفراد والجماعات واستبيان الباطل من الحق في سياسة العباد جميعاً حكماً ومحكومين.

لذلك لجأ العلماء والباحثون في سبيل معرفة الحق إلى وضع قواعد وعلوم

تعينهم على الوصول إلى هذه الغاية النبيلة، واتجهت الهمم إلى موضوعين أساسيين: الموضوع الأول: يتصل بالـنفس الإنسانية، ودراسة أحوالها وحركاتها إذ إنها التي يصدر عنها الأمر للجوارح بالتصرف، وهو ما يسمى «بـعلم النفس»

الموضوع الثاني: يتصل بالأقوال والأفعال ومحاولة استخراج الحق من خلاهما... وهو ما يسمى «بـعلم المنطق».

الموضوع الثالث: المبادئ والأفكار التي قامت عليها بعض الأنظمة والحكومات وهي ما يسمى «بالنظريات الفلسفية».

وسنحاول في هذا الموجز أن نعرّف بكل منها — استمداداً مما ألف وصح فيهما من البحوث الحديثة.

يظن بعض الناس أن هذه العلوم جاءت نتيجة للنهضة الحديثة التي لا يتجاوز عمرها مائتي عام... والواقع أن تلك العلوم قديمة — فمنذ خلق الله الإنسان وهو مشغول بقضية الحق والسعادة وبحوث الحكمة (التي سماها اليونان بالفلسفة)... وقد تكلم العلماء في هذه البحوث قبل ظهور اليهودية والمسيحية... كما أن القرآن الكريم رفع من شأن العقل وامتدح العقلاء وأهل النظر.

ومن الثابت أن علماء المسلمين قد انشغلوا بتقعيد العلوم الإنسانية على قواعد منضبطة، وهم الذين وضعوا علم المنطق — واكتشفوا خلجات النفس الإنسانية، وسجلوا عدداً من الظواهر النفسية، وارتباطها بالطب وشئون الحياة... وفيما يلي بيان ذلك:

فعلم النفس هو العلم الذي يدرس السلوك بوجه عام، بقصد الوصول إلى القوانين التي نستطيع بها فهم هذا السلوك وتوقعاته والتحكم فيه. وقد أصبحت له ميادين نظرية كثيرة، منها علم النفس الفارقي والاجتماعي وعلم نفس الشواذ وعلم نفس النمو.

أما ميادينه التطبيقية فمنها علم النفس التربوي ، وعلم النفس الصناعي ،
والحربي ، وعلم النفس الطبي ، وعلم النفس الجنائي .

أما مناهج البحث العلمي فمهمتها البحث بهدف اكتشاف حقائق وقواعد
عامة ، يمكن التحقق منها مستقبلاً .

و يفرق العلماء بين علم النفس الفردي والعام ، فالعام ميادينه تلك التي
أشرنا إليها ، أم الفردي فيتعلق بحالات الأفراد ، من حيث القلق والخوف ،
والإرهاق العصبي ، والغرائز والسلوك ، ودوافعه ، والمشاكل الجنسية ، والأحلام
والعقد ، والتوافق مع المجتمع وغيرها — وأهمية هذه الميادين أنها تضع أيدينا على
الدوافع الحقيقية للتصرفات .

فقد يتهم الولد بأنه سارق والحقيقة أنه لا تنطبق عليه شروط السارقين إما
بسبب الجوع الشديد ، أو بسبب جهله معنى السرقة ، أو بسبب ضياع رشده . وقد
سبق الإسلام إلى ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، جف القلم عن ثلاث ،
الصبي حتى يبلغ ، والمجنون حتى يفيق ، والنائم حتى يستيقظ .

ومن كمال الوصول إلى الحق والخير ، علاج الأمراض النفسية ، حتى تنقطع
أسباب الباطل وعلل الضيق والضرر .

المنهج التجريبي :

ولقد أدخل العلماء على علم النفس مناهج الملاحظة ، المدعمة بالآلات
العلمية ، والإختبارات المتصلة بالإنسان ، وأحياناً يجرون التجربة على حيوانات ،
فيحبس الحيوان في متاهة مثلاً ويتعلم بالتدريج كيف يسير في طرقها المتلوية ،
للوصول إلى غذائه وبالنسبة إلى الإنسان ، يدرسون حياته منفرداً ثم في جو
الجماعة ، وعلاقة الرؤساء بالمرؤوسين ، وتدرس ظواهر النشاط والتعب ، ويقاس
الذكاء بتقدير عدد وسرعة القيام بحركات معينة ، وقد أفادت هذه التجارب
كثيراً فقد انخفضت حوادث السيارات مثلاً إلى النصف ، منذ أن استخدمت
اختبارات خاصة على السائقين ، وأصبح من الممكن التمييز بدقة بين الفرد
السوي ، والمريض بأحد الأمراض النفسية .

إن التثقيف بدراسة علم النفس قد أصبح من الضرورات التي تنفع الناس، فحركات النفس شبيهة بحركات الحياة الجسمية... ففي كل عقل فكرة الغرض أو المثل النموذجي المطلوب... ومعناه الرغبة في تخطي الحالة الراهنة والتغلب عن النقائص والصعاب بتحديد غرض أو هدف للمستقبل... وبدون هذه العملية النفسية لا يصبح للحياة معنى. والشعور بالنقص مفيد للوصول إلى الدرجة الأكمل... ولكن ظهر أن هذا الشعور إذا لم يمكن تحقيقه في عالم الواقع، ينقلب إلى عقدة النقص أو ما يسمونه «مركب النقص» وتنتج عنه آثار سيئة ضارة في علاقة الفرد بالآخرين... وقد تنشأ عنه مشكلة أخرى وهي يسمونها «عقدة التفوق» تعزى إليها كثير من الجرائم والأعمال الشاذة.

ولقد أصبح موضوع علم النفس من العلوم التي يعول عليها في مجالات معينة، مما يتصل بأعمال القضاة بالمحاكم، وضباط الشرطة، ومحققوا النيابات، ورجال الاستخبارات، ورجال السياسة والأطباء، والمحامين، ورجال التربية والتعليم، وكثير غيرهم، لأننا في سبيل اكتشاف الحق لا ينبغي أن نكتفي بظواهر الأشياء، بل علينا أن نغوص إلى جذورها، وهي أعماق النفس الإنسانية وهذا كله من ميادين معرفة الحق.

المنطق:

هو العلم الذي يدرس صورة الفكر أيا كان الموضوع الذي يدور حوله التفكير، وموضوعاته الألفاظ «أو الحدود»، والقضايا «العبارات» والإستدلال» أي الانتقال من قضية إلى نتيجة تلزم عنها.

الهجوم على المنطق:

ولقد كانت للمناطق صولة وجولة في إبان عهد الترجمة في القرنين الثاني والثالث الهجري، حتى تجرؤوا على مسائل الدين وأوصلتهم مناهج البحث الفلسفي إلى الشك والتشكيك في أصول العقائد، وقد سبق أن أشرنا إلى أن مجال الإيمان غير مجال الفلسفة» فاتهم هؤلاء المناطق، وأصبح المتهم بعلم الكلام متهما بالزندقة والزيف، حتى قال بعض الفقهاء المسلمين «من تمنطق فقد

تزنديق»، وألفوا مؤلفات في نقد المنطق من أساسه، وهذا صحيح عند التعرض للمسائل الإيمانية الغيبية.

لكن علم المنطق بمعناه الآخر وبتعريفه الذي أشرنا إليه، لا غنى عنه للمفكرين وحتى فقهاء الإسلام، فقد استعملوه بغير اسمه في مسائل القياس والاستدلال — والحكمة ضالة المؤمن أتى وجدها فهو أحق الناس بها، فنحن نعتقد أن مباحث المنطق ضرورية لكل من ينشدون الحق في الحدود التي ذكرناها.

مباحث علم المنطق: هي المعرفة والعلم، والفروض والبديهيات والمسلمات.

فالبديهيات والمسلمات: هي القضايا البينة بذاتها، والتي لا يمكن البرهنة عليها، وتعد صادقة بغير برهان. كقولنا «إن من يملك الأكرث يملك الأقل». وقولنا في الاقتصاد «إن التاجر يفعل دائماً ما يراه أنفع»، وكقولنا في الأخلاق، «إن كل إنسان يطلب السعادة».

القياس: هو الاستدلال غير المباشر، باستخراج نتيجة من مقدمتين أو عدة مقدمات تلزم عنها، فإذا قلنا مثلاً إن النحاس معدن، وكل معدن يتمدد بالحرارة، تكون النتيجة أن النحاس يتمدد بالحرارة، وقريب منه في المعنى الاستنباط والاستقراء، فإذا قلنا أن الحديد يتمدد بالحرارة والنحاس يتمدد بالحرارة، والذهب والرصاص يتمدد بالحرارة، إذن كل معدن يتمدد بالحرارة.

تقسيم العلوم: قالوا إن العلوم الطبيعية مثل الكيمياء والفيزياء والعلوم المعاشية، تعتمد على المنهج التجريبي الاستقرائي، والعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب، والجبر والميكانيكا، ودراسة الكميات والرموز والأعداد تعتمد على المنهج الاستنباطي.

أما العلوم الإنسانية: مثل علم النفس والاجتماع، والتاريخ والأخلاق، والاقتصاد والسياسة، فتعتمد على المنهج الاستقرائي أيضاً على أن جميع العلوم

تحتاج إلى الإستعانة بنتائج وتحليلات العلوم الأخرى . إذ أن إحداها متممة ومكملة للبحث .

الأسلوب العلمي: إننا في بحث المشكلة نبدأ بالشك والتساؤل وعدم التحديد، ثم يضع الباحث فرضيته على شكل حقيقة أو على شكل تساؤلات، وبعد ذلك يلجأ للاستنتاج . ثم يعمد إلى الاختبار والتجريب وعلى أي أساس منهما يقبل الفرضية أو يرفضها . فإذا ما اتفقت النتيجة مع الفرض، صارت حقيقة أو نظرية أو قانوناً .

عوائق التفكير العلمي:

أ — تكوين نتائج غير ناضجة بسبب تحمس الشخص لرأيه بغير دليل كاف .

ب — تجاهل الأدلة المضادة، وقد تكون مهمة، ويجب أن يعطي الدليل المضاد نفس وزن الدليل المؤيد .

ج — أن يكون البحث غير موضوعي، كأن يكون متأثراً بعواطف وانحيازات سابقة .

د — أن لا تكون النتيجة ممكنة الإعادة بحيث لو نظرها باحثون آخرون يختلف الحكم .

فعلم المنطق بهذه الطرق وأمثالها — يضع القواعد التي تضبط الأحكام... وهو محصور في دوائر المادة وحركات النفس، لكنه حين يمد نفوذه إلى شئون الغيب وما وراء المادة يضلل الباحثين .

الفلسفة:

هي مجموعة النظريات التي تبحث في الأخلاق والماديات وأحوال الحياة — ومن ميادينها:

الكلام في أسرار الصراع بين الناس، والبحث عما يحقق السعادة؛ وكذلك

الغايات والوسائل ، ونظريات التطور والثبات ، والجواهر ونموها وهي تتصل بعلم النفس .

وتعتمد الفلسفة أساساً على المنطق ، وربط المسببات بالأسباب ، وتحليل الظواهر الغالبة الحدوث في حياة الناس . ثم إنها غير مستقرة ففي كل يوم يظهر فيلسوف بنظرية جديدة تنقض تلك التي كانت قديمة معترفاً بها .

لكن عدداً من النظريات الفلسفية ، قد نال قدراً من الثبات والتصديق ، لدرجة أن ثورات وحركات قامت على أساسها — كالنظرية الاشتراكية والماركسية ، ولا بد للباحث عن الحق أن يتعرف على أصولها ... حتى يتمكن من الحكم عليها .

ولا يستغني من يبحث عن قضية الحق من معرفة تصورات الآخرين لهذا الحق ، سواء أكانوا من الفلاسفة المتقدمين ، أو من المحدثين .

وفي الختام نقول : لعل هذا المدخل يفيد في دلالة طلاب المعرفة على مناهج الحق المنزل من عند الله — والحق الذي يثار حوله الجدل في دنيا الناس ...
والحمد لله رب العالمين .

(القرآن الكريم)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وبعد:

فهذا الدرس عنوانه القرآن الكريم

وقد نويت أن أدون معلومات مركزة حول كتاب الله العزيز، في محاولة لزيادة توقيره، ومعرفة علومه، ونفي الباطل عنه.

القرآن كلام الله وهو غير مخلوق نزل به الروح الأمين جبريل، على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، خلال ثلاث وعشرين سنة مقسماً منجماً على حسب الحوادث ليثبت الله به فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان ينزل عليه يقظاً لا مناماً، فليس الوحي حلمًا من الأحلام، ولا رؤيا من الرؤى؛ وإنما هو وحي يوحى. وقد كان الوحي يأتي في حالات مختلفة فقد يكون إلهاماً من عند الله يقذفه في قلب النبي صلى الله عليه وسلم مصداق قوله تعالى «وكذلك أوحينا إليك رؤحاً من أمرنا. ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» سورة الشورى. وقوله تعالى «قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا» سورة الجن. وقوله عليه الصلاة والسلام: (إن روح القدس نفث في روعي أن لا تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها).

والقرآن الكريم كان بالوحي الجلي، أي بواسطة الملك جبريل عن طريق الوحي شديد الوضوح والتحديد. ووحى القرآن جميعه من هذا النوع، بدليل أن جبريل عليه السلام كان يعرض القرآن للنبي كل عام أي يستمع تلاوة النبي يستمعها ويرد عليه ويحفظه مصداق قوله تعالى «لا تحرك به لسانك لتعجل به، ان علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم أن علينا بيانه».

وفي هذا رد على بعض المستشرقين والمغرضين والملاحدين، الذين صوروا

الوحي الإلهي على أنه رؤى وأحلام ، وتخيلات من جانب شخص ذكي هو «محمد» والله تعالى يقول قطعاً لكل شك «نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين» .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعرض لتغيرات بدنية معينة كان يدركها القريبون من مجلسه عند نزول الوحي .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .

وعنها أن جبريل أتاه وركبته على ركبتي ، فثقلت عليّ جداً .

وعندما يذهب عنه جبريل ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدعي واحداً أو أكثر من الصحابة الكاتبين ، فيملي عليه ما نزل من القرآن وقد عرف من كتاب الوحي عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبدالله بن أبي السرح وغيرهم .

أسباب النزول : لقد نزل القرآن الكريم لأغراض شتى ؛ ومن هذه الأغراض :

تصحيح وقائع التاريخ ؛ والإجابة على التساؤلات ؛ وبيان أحكام الشريعة ؛ وحكم الله تعالى في أمور معينة عرضت للناس . والدارس للقرآن الكريم وعلومه يحتاج بالضرورة إلى معرفة أسباب النزول ؛ لينقل نفسه إلى جو التنزيل وسيجد متعة كبيرة في ذلك ... كما أن أسباب النزول تعين على صحة التفسير والتأويل .

وقد جمع الامام السيوطي أكثر هذه الأسباب في كتاب واحد سماه « باب النقول في أسباب النزول » كما فعل ذلك غيره . وكلها مأخوذة من كتب السيرة المطهرة وكتب الحديث الشريف . وأسباب النزول موجودة على هامش بعض طبعات التفاسير كتفسير الجلالين وغيره كما أن كتب السيرة مشتملة على أسباب النزول أيضاً .

و يستطيع الناظر في كتاب الله أن يستشعر الإجابة في الآيات المسبوقة بقوله تعالى يسألونك... كقوله تعالى: «يسألونك عن الخمر والميسر» «يسألونك عن الأنفال» و«يسألونك عن ذي القرنين» ونحوها من الآيات الكريمة.

جمع القرآن وتدوينه:

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب. فكان هناك كُتَّابٌ للوحي وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يكتب عنه شيء غير القرآن، حتى لا يختلط الحديث الشريف بالكتاب العزيز. وكان جبريل يستعرض معه القرآن مرة كل عام حتى ثبت واستقر في الصدور والسطور وأصبح أصح كتاب في الدنيا. وصدق الله إذ يقول «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد».

وكان الصحابة يكتبونه على عظام أكتاف الجمال وأضلعاها وقطع الجلود وجريد النخل ورقائق الأحجار وكان الذي عنده سورة من القرآن يحتاج لأن يحفظها في حجرة كبيرة منفردة وإنما كان الاعتماد على حفظ الصحابة للقرآن في صدورهم غيباً... فلما جاءت حروب الردة قُتل عدد كبير من حفاظ القرآن وهم يجاهدون في سبيل الله أشار عمر بن الخطاب على الخليفة أبي بكر رضي الله عنهما أن يكلف رجالاً بجمع القرآن فكلفوا زيد بن ثابت ومعه جماعة للقيام بذلك؛ فقام هؤلاء الصحابة بهذا العمل العظيم... فجمعوه في الصحف من حفظ الرجال ومن تلك القطع المتناثرة وحققه الصحابة وأجمعوا على مطابقتها لما في السطور والصدور، بدقة وأمانة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً.

فلما كانت خلافة عثمان رضي الله عنه اختلف الناس في لهجات القرآن وقراءته لأن قبائل العرب كانت تقرأ بلهجاتها الخاصة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمح لهم بقراءات محددة تسهلاً عليهم في بدء نزول القرآن، كما علمه جبريل فكان أهل البصرة يأخذون بقراءة أبو موسى الأشعري، وأهل الكوفة يأخذون بقراءة عبدالله بن مسعود، وأهل دمشق يعتدون بقراءة أبي بن كعب، وأهل حمص يوافقون قراءة المقداد بن الأسود. فلما كانت خلافة عثمان رضي الله

عنه ، أشار عليه حذيفة بن اليمان بتوحيد هذه القراءات حتى لا يختلف المسلمون بسببها ، كما اختلف اليهود والنصارى ... فطلبوا المصاحف التي أمر بجمعها أبو بكر وعمر وأعادوا تدوينها مع المقارنة بالمصاحف التي في عواصم الدول الإسلامية (التي يسمونها الأمصار) ووجدوا قراءتها على لغة قريش وهي التي نزل بها القرآن ثم أمر عثمان بإحراق ما عداها من المصاحف الخاصة ، ووزع من النسخ الجديدة على البلاد ، فهذا هو الذي يسمى الآن « مصحف عثمان أو المصحف الإمام » .

ويجب التفريق بين أبي حفص وهو عمر بن الخطاب وبين « حفص » وهو أحد علماء القراءات المتوفي في القرن السادس الهجري .

إذن كانت مهمة أبي بكر هي جمع المصحف في كتاب واحد ومهمة عثمان هي تحقيق القراءات واللهجات بين القبائل ، وإلغاء أكثرها والإكتفاء بلهجة ولغة قريش .

وفي عهد عبد الملك بن مروان ، أمر الحجاج بن يوسف (وكان من فصحاء العرب) فقام بوضع النقط والشكل على حروف المصحف ، كما قام أبو الأسود الدؤلي بوضع قواعد اللغة العربية والنحو لأن المصحف لم يكن منقطاً ولا مشكلاً بالفتحة والضمة والكسرة ونحوها ، وتوالت جهود المسلمين بعد ذلك ، فقسموه إلى الأجزاء والأرباع وحددوا موضع السجدة حتى أصبح المصحف في الشكل الذي نراه الآن ... وقد أجمع المحققون في العالم من مسلمين وغير مسلمين على أن القرآن الكريم لم يحصل فيه تبديل ولا تحريف وصدق الله إذ يقول « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

المكي والمدني :

لقد نزل القرآن على رسول الله مقسطاً ، كما قلنا فنزل بعضه في مكة وبعضه في المدينة ، والمكي الذي نزل في مكة يتميز بأنه قوي الألفاظ ، قصير الفقرات ، يدور معظمه حول التوحيد والتهديد ، ووصف الجنة والنار ، مثل سور جزء « عم » لأن ظروف الدعوة كانت تستدعي هذا كقوله « تبت يدا أبي لهب

وتب» وقوله «إنا أعطيناك الكوثر» أما الذي نزل في المدينة، فيتميز بأنه طويل الفقرات، يدور حول القصص وأحكام الشريعة وتنظيم الدولة والدعوة إلى الرحمة والتسامح. ولا فرق بين المكي والمدني من القرآن الكريم، إنما هو تقسيم نظري يفيد في معرفة تاريخ نزول الآيات، وتبنى عليه بعض الأحكام، بالنسبة للمتقدم منها والمتأخر.

المتشابهات:

اقتضت ارادة الله تعالى أن يكون كلامه الكريم معجزاً للبشر، ففيه آيات تتشابه في معانيها وألفاظها، مثل قوله تعالى: «وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطه» وقوله في سورة الأعراف «وقولوا حطه وادخلوا الباب سجداً» وقوله تعالى في سورة البقرة «قل إن هدى الله هو الهدى» وقوله في آل عمران «قل إن الهدى هدى الله». وهكذا.

وهذه تضيف صعوبة على القارئ الذي يتلوه من حفظه فتضطره إلى دوام الانتباه بحيث لا تستولي عليه الغفلة... وفي ذلك يقول بعض الحفاظ: «لولا المتشابهات في القرآن لتغنى به الصبيان».

وتعني المتشابهات أيضاً ما تشابه معناه واحتمل تأويلات مختلفة، ويحذر الله تعالى من سوء التأويل بقوله «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله».

إملاء المصاحف:

كان تدوين المصحف الكريم أول الأمر بدون ترقيم للآيات وبدون شكل ولا نَقط للحروف ومع ذلك كانوا يقرءون قراءة صحيحة بسبب سلامة الفطرة وكثرة الحفاظ، فلما اتسعت الفتوح ودخل في الإسلام غير العرب دعت الحاجة إلى التدقيق في الكتابة والقراءة فنشأ علم الإملاء والوراقة، وهوفن الكتابة، ونشأ علم التجويد، وهومن الأداء الصحيح وفي الفترة التي تم فيها جمع القرآن وتدوينه، تحت إشراف الدولة الإسلامية وأئمة الهدى، كانت قواعد الإملاء

على الشكل الذي نراه حالياً في المصحف .

ولم يجرؤ أحد على تغييره خوفاً من تحريف كتاب الله ... مع أن الإملاء المعتاد قد طرأ عليه تعديل مع تطور الأ زمان ، وهذا هو السبب فيما يلاحظه المبتدئ في اختلاف يسير في إملاء المصاحف عن الإملاء العادي ولما كان الأصل في حفظ القرآن وتلاوته أن يكون بالتلقي — خلفاً عن سلف — فلذلك يستطيع المبتدئ ادراك الفرق بين القديم والحديث و يعتاد القراءة بإملاء المصحف دون مشقة ولكن الذي يجب أن يلتفت إليه الناس من هذا أن حفظ القرآن لأول مرة لا ينبغي أن يؤخذ مباشرة من المصحف وإنما يكون بوجود حافظ قديم يصحح التلاوة وينبه للأشياء الدقيقة .

أنواع المصاحف :

لا يجوز أن يسمى الكتاب مصحفاً إلا أن يكون قرآناً كاملاً مكتوباً باللغة العربية فإن لم يكن بالعربية سمي تفسيراً أو ترجمة للمعاني وفي صدد التدوين بالعربية توجد الآن مصاحف كثيرة بالخط العربي والكوفي والایراني والباكستاني والعراقي ولكن من السهل على المتعلم أن يقرأها ويتعبد بقراءتها كما أن من اليسير على تلك الشعوب أن تقرأ المصاحف المتدواله في تركيا والمشرق وهي التي تمثل الغالبية العظمى من المصاحف في العالم . وقد اهتم حكام المسلمين واغنياؤهم منذ قرون بالمصاحف الشريفة واستنساخها ولا تزال توجد في المكتبات والمتاحف مصاحف مكتوبة بماء الذهب وأخرى معطرة الورق وغيرها ملونة بغاية الدقة كما تفننوا بالتجليد وعمل الصناديق الفاخرة لها .

وكانت بعض الشعوب تطالب بحكامها بالإمامة في الصلاة وهذا هو الأصل لأن الامام امام الدنيا والآخرة وبعضهم كان لا يحفظ القرآن فكانوا يكتبون المصاحف الكبيرة التي تقرأ من بعيد وتقلب صفحاتها بعضا طويلة ولا تزال هذه الأنواع مودعة بدار الكتب المصرية والتركية حتى الآن وقد رأينا مصاحف مكتوبة سطرا من القرآن وسطراً من ترجمة معناه إلى لغة أخرى كالایرانية والأندونيسية وغيرها ... كما توجد بعض مصاحف أهل القرون الأولى مكتوبة

بالخط الكوفي القديم وبدون نقط ولا شكل ويمكن قراءتها كما تحفظ الآن دون تغيير ومع ظهور الطباعة ازدادت نسخ المصاحف وصارت تطبع كل عام بالملايين .

مس المصحف :

قال تعالى «إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين» .

وقال عليه الصلاة والسلام (لا يمس القرآن إلا طاهر) .

وقد اتفق علماء المسلمين على أن الطهارة من الحدثين الأصغر والأكبر شرط لتناول المصحف .

ولكن بعض العلماء أجاز مس المصحف والقراءة بغير وضوء لضرورات محددة كأن يكون للمعلم والمتعلم استناداً إلى أن المقصود بالكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ ... وإلى أن تحقق الخير واليسر هو من أهداف الإسلام وأن رفع المشقة عن الناس هي أيضاً من روح الدين .

الناسخ والمنسوخ :

قال الله تعالى «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير» .

ومن العلماء من قال بأن المراد هو نسخ الشرائع القديمة باعتبار أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم تمحو ما قبلها ومعلوم أن كل شريعة تنسخ ما قبلها وإن كان جوهر تلك الشرائع واحداً من حيث الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، وإجماع المسلمين على أن النسخ وارد بمعنى آخر هو رفع حكم شرعي سابق بحكم لاحق ، تيسيراً على الناس ... وذلك لحكمة اقتضتها إرادة الله في تدرج التشريع مع التسليم بأن الله تعالى ، أنزل القديم والجديد معاً من عنده ، ولكنه أراد هذا التدرج رحمة بعباده ، وهذا واضح في تحريم الخمر وتدرجه وفي إلغاء صدقة المناجاة ، وفي أمور كثيرة .

القراءات:

دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تلاوة القرآن وحفظه وتحفيظه والتغني به، وسماه «ربيع قلوبنا» لكي يحل في النفس محل الفنون التي كانت متداولة من قبل ولكي يقضي به على اللهو المحرم؛ وسجع الكهان الذي كان في الجاهلية. ولكن العامة دائماً يميلون للمبالغة والتحريف وتسوقهم الشهوات إلى مداخل الغلط فلقد استغل فريق من الناس رخصة القراءات التي رخص بها الرسول لبعض القبائل فجعلوا القرآن عضيّن أي جعلوه عبثاً وسخرية.

ولهذا قال الله تعالى: «فوربك لنسئلهم أجمعين عما كانوا يعملون» لقد أصبح بعض القراء نوعاً من الفنانين والممثلين ولهم جمهور معجب باللحن والحنجرة «يمدونهم في الغي ثم لا يُقَصِّرون». ولا يبالي أحدهم بالمعنى ولا بآداب التلاوة؛ إنما هو الهتاف والطرب ومن ورائه الغفلة والعصيان لأوامر الله ورسوله.

وللعلماء كلام في موضوع القراءات يستحق أن نرجع إليه.

قال الامام الطحاوي والقاضي الباقلاني وأبو عمر بن عبد البر، وغيرهم من العلماء ان القراءات جميعاً كانت رخصة في أول الأمر لتعسر القراءة بلغة قريش على بعض القبائل ثم نسخت بزوال العذر وتيسر الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة (وهذا الكلام فيه نظر لأن جبريل عندما أقرأ النبي في العرض الأخير، لم يأمره بنسخ القراءات).

ويقول ابن قتيبة كان من تيسير الله أن أمر نبيه أن يقرء كل قوم بلغتهم، أن بأدائهم الطبيعي في النطق فالتميمي مثلاً كان ينطق الهمزات والقريشي يسهل الهمزات والهمذلي يقرأ الهاء عيناً والأسدي يكسر أول الفعل المضارع والامام الطبري يقول إن الذي قام به سيدنا عثمان هو إنهاء حالة الخلاف على هذه اللهجات ولم يعد لها موضع بعد كتابة المصحف الامام، وقد استوثقت له الامة على ذلك بحمد الله.

فما بالك اليوم بقارئ يقرأ لنا باللهجة التي لا نعرفها ولا نألفها... فهو إما

مشغول بنفسه عارض لفنونه واما أنه موكل بتفسير القرآن على السامعين .
أما إذا كانت القراءة مما يوضح معنى جديداً مع توفر التقوى وخشية الله فلا
بأس من ذلك .

وهناك مقياس صالح في الموضوع ... وهو أن يتخيل المرء كيف كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقرأ كلام الله وهو القرآن فنقرؤه كلاماً وليس أغنية ولا
فنا فنتلوه بأدبه وخوفه وحزنه ووقاره ولا يستطيع مؤمن عاقل أن يتصور هذا
العيب الذي يسلب على المسلمين من مكبرات الصوت اليوم سواء في أفراحهم أو
في ماتمهم — ليقول انها قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه — أو يقول
هكذا نزل به جبريل عليه السلام .

أداة التلاوة للقارئ :

يستحب لقارئ القرآن أن يكون على وضوء ويحسن له أن يجلس بهيئة حسنة
مستقبلاً القبلة في مكان مناسب أو قائماً يصلي بين يدي الله وأن يقرأ بخشوع
وخضوع وتمعن وهو منصرف بقلبه وحواسه للقراءة فلا تعبت يده بشيء ولا
ينشغل عنه شيء وأن تكون قراءته احتساباً لوجه الله تعالى ؛ فلا يطلب عليها
أجراً ولا ينافس بها أحداً ولا يقصد بها ارضاء الناس ولا يتلاعب بالآيات .

ويحسن به أن يراعي ظروف السامعين فلا يطيل عليهم فيسبب لهم الملل ،
ولعل العشر آيات هي القدر المتوسط للتلاوة على الآخرين أما إن كنت تتلو
لنفسك فلا حرج عليك ...

كذلك لا يجب أن يزعجهم برفع الصوت إذ لا يخلو الأمر من وجود مريض أو
دارس علم كما يحسن اختيار الوقت فلا نقرؤه عند راحة الناس أو في جوف
الليل بل عندما تكون النفوس نشيطة مستعدة حتى لا يكون القارئ ممن يصدون
عن سبيل الله و يبغونها عوجاً .

ويحسن بالقارئ أن يفسر بعض الآيات للسامعين ، مما يوضح حكماً شرعياً
(إن كان من أهل العلم) ويجب الحرص على تكريم المصحف ، فلا توضع فوقه

الكتب ولا الأدوات وإذا بلي أو تمزق فيجب أن يحرق و يسان ترابه عن النجاسات أو يلقى في الماء .

آداب المستمع:

ينبغي للمستمع أن يسمع بأذنه و ينصت ويخضع بقلبه لقوله تعالى « وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » ولا يجوز لمستمع القرآن أن يعلق على التلاوة بعبارات من عنده كقول بعضهم : « الله الله يا شيخ أو أعد أعد » لأننا نحن أقل من أن نصدر أحكاماً وتعليقات على كلام الله عز وجل . وكل ما يطلب منا هو التدبر والخشوع ... ويمتنع الشراب والطعام في مجلس القرآن إلا لضرورة، كما يمتنع التدخين والضحك وكل ما يذهب بوقار المجلس على أنه يجوز للمعذور أن ينصرف من مجلس القرآن دون اعتراض قلبي منه ... ويحسن أن يغلب على مستمع القرآن الحزن والخوف وألا يستخفه الطرب وحسن الصوت لقوله صلى الله عليه وسلم (إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه أو سمعتموه فابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا فتابكوا) أي أظهروا البكاء .

سجدة التلاوة:

هناك مواضع في القرآن الكريم ، إذا قرأها الإنسان أو سمعها فعليه أن يخضع ساجداً لله تعالى ؛ إن كان على وضوء لأنه يشترط في السجدة ما يشترط في الصلاة من الطهارة والسجدة في القرآن أربعة عشر سجدة ولها علامات في هوامش المصاحف كذلك تنوي بقلبك سجود التلاوة وتسجد سجدة واحدة وترفع رأسك وتسلم عن يمينك و يستحب أن تقول في سجودك : « اللهم اكتب لي بها عندك أجراً وضع عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً ... وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام » . أو ما شئت من أدعية السجود أما إن لم تكن على وضوء فيستحب أن تقول ثلاث مرات : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » .

ختم القرآن:

لقد أنزل الله هذا الكتاب ليكون تربية دائمة لا تباع هذا الدين ، ودعانا إلى

تلاوته بقوله تعالى : « وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن » .

وقال صلى الله عليه وسلم (إقرأوا القرآن فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ... لا أقول : ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) .
وكان بعض الصالحين يختم القرآن مرة كل ثلاثة أيام وبعضهم يختمه مرة كل عشرة أيام . ولكن يرى علماء المسلمين أفضلية ختمه في كل شهر فقد كان أكثر الصحابة والتابعين يفعلون ذلك وهو أعون على التدبر والتفكير وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند ختم القرآن فيقول « اللهم إنا عبيدك وأبناء عبيدك وأبناء إمائك ناصيتنا بيدك . ماض فينا حكمك عدل فينا قضاؤك نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك ؛ أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وشفاء صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا وسائقنا وقائداً إليك وإلى جنات النعيم » .

تعليم القرآن :

إن تعليم القرآن هو أشرف عمل في هذه الحياة لأنه تنوير عقول الخلق بنور الله . ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم خيركم من تعلم القرآن وعلمه وينبغي أن يكون تعليم القرآن احتساباً (مجاناً) لوجه الله تعالى فلا يؤخذ عليه أجرٌ وكذلك الأعمال التي تتصل بالعبادة كتعليم الدين واللغة العربية والأذان والإمامة والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتجهيز الميت وحمله ودفنه .

وقد قال بعض العلماء إنه يجوز للرجل المنقطع لوظيفة من هذه الوظائف أن يأخذ من مال الدولة ما يساعده على الحياة كتمن للوقت لا للعمل الديني . ولكن بشرط ألا يطلب العامل فيها من الناس شيئاً ولا يحدد لنفسه أجراً ولا يشتري بآيات الله ثمناً ولا يخاف في الله لومة لائم ولا يمنع شيء من ذلك أن يجهر بالحق ...

ومما يؤسف له أن معظم الدول الإسلامية قصرت في رعاية هذه الشؤون فاحتاج القائمون بهذه الأعمال إلى ضرورات الحياة وأصابعهم الفقر والضجر

فنزلت درجتهم في نظر الناس كثيراً. ولكن يجب علينا أن نعرف حق العاملين وأهل القرآن وأن نطالب بانصافهم لأن في ذلك رفعا لقدرهم وإعزازاً لكرامة الدين لقوله عليه الصلاة والسلام (حامل القرآن حامل راية الإسلام) نعم إن تعليم القرآن والعلوم الرعية هو أرقى عمل في هذه الحياة وما عند الله خير وأبقى.

ترتيب التلاوة:

الأفضل أن يقرأ القرآن من البقرة إلى الناس على ترتيب المصحف وأما الابتداء في التعليم من آخر المصحف نحو أوله فقد استحسنته بعض العلماء.

فضل القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وإذا تلي فمعنى ذلك أن الله يتكلم فيجب أن يخشع الناس وأن يتأدبوا وأن يقطعوا كلام الدنيا أو أن يتوقفوا عن قراءة القرآن أو اذاعته إن كانت هناك مشغلة عاجلة أو بيع أو شراء.

إن الذي أوحاه الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم هو المعجزة الخالدة في صدق الدعوة وقوة الاقناع وكان ولا يزال دستوراً على مر الأيام صالحاً لتنظيم شئون الحياة لا يملأه الإنسان ولا تنقضي عجائبه على كثرة الترداد وقد رغبتنا الله تعالى في تلاوته وتدبر معانيه في آيات كثيرة منها قول الله عز وجل «إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور» وقوله تعالى «اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة». وقوله تعالى «وإذا تلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكياً».

وأما الحديث الشريف:

فمنه قوله صلى الله عليه وسلم (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله في ملائحته) وقوله عليه الصلاة والسلام (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران).

مناهج للتحفيظ :

بعض الدول الإسلامية تترك قضية المحافظة على القرآن الكريم للجهود الشعبية والجمعيات الأهلية التي تتولى هذا الأمر، وهذا تقصير رسمي ولا شك؛ لأن القرآن دستور حياة الأمة، وهو سبب سعادتها وعزتها قال الله تعالى «لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم» أي شرفكم «أفلا تعقلون».

وبعض هذه البلاد تعهد للمدارس الرسمية بتحفيظ قدر قليل من قصار السور في المراحل الابتدائية وهذا لا بأس به إلا أنه لا يكفي بل عليها أن تعتمد إلى تنمية الدوافع الشخصية لدى أفراد الأمة من شباب وكبار لحفظ القرآن والاحاطة بعلومه مع تيسير الوسائل لهم؛ وذلك باعطاء النابهين من الحفاظ والعلماء الأولويات في الوظائف والترقيات أو شيئاً من التكريم في المجتمع أو تجعل الاحاطة بقدر معين من القرآن شرطاً للقبول في بعض الكليات والدراسات العليا فبذلك يتنافس المتنافسون؛ لنيل ما هم أهل له من الكرامة في الدنيا والآخرة.

أليس حفظ ثلاثين جزءاً من القرآن الكريم مع معرفة تفسيرها والأحكام المستنبطة منها لمدة أربع سنوات يعادل أية دراسة في كلية من الكليات النظرية؟

فلماذا لا يعطى الحفاظ درجة الليسانس مثلاً؟ لوبدأوا بالحفظ بعد التوجيهية حتى يستطيعون أن يعيشوا على مستوى زملائهم الجامعيين بدلاً من الارتفاق به في المآثم والأفراح.

حفظ القرآن :

إن أكمل درجات المسلم أن يكون المرء حافظاً لكتاب الله تعالى بمعنى أن تكون الآيات محفوظة في عقله وقلبه بترتيبها وصحتها كما جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم وبحيث يستعيدها الإنسان من ذاكرته متى شاء؛ دون حاجة للنظر في المصحف الشريف وهذا هو الذي يسمى حفظ الصدور وهو الذي أوصل إلينا القرآن سليماً من الضياع والتحريف عبر القرون.

وقد مرت على المسلمين عصور تعذرت فيها الكتابة والتدوين وفي أماكن تعذر فيها حمل المصاحف؛ كما نشاهد الآن في بعض البلدان الشيوعية. فأصبح الاعتماد على ما حفظه حفاظ القرآن. كما حصل في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما ويسن في الصلاة أن يقرأ المصلي بسورة أن آية من حفظه بعد فاتحة الكتاب وكما أن كثيراً من الأدعية الجيدة من آيات الله الكريم... وفي القرآن الكريم أحكام شرعية ومواعظ جليلة تتمثل في آيات معينة ويدل الاستشهاد بها على كمال عقل المتكلم؛ وحسن منزلته لذلك يجب عليك أيها المسلم أن ترتب على نفسك شيئاً من القرآن الكريم تحفظه كل يوم أو كل أسبوع عن ظهر قلب؛ حتى تجد في النهاية أنك حفظت مقداراً لا بأس به.

كيفية الحفظ :

اقرأ آية واحدة أو آيات قليلة أو اكتبها ثم اقرأها على شخص حافظ؛ ثم انقلها نسخاً في ورقة خارجية (أو في لوح من الألواح) ثم كررها لنفسك؛ عن غيب حتى ترى أنها قد ثبتت في ذهنك. واطلب من استاذك أو من زميل لك أن يسمعها لك من المصحف؛ فربما تكون قد أخطأت فيها خطأ... ثم اجعلها من تلاوتك في الصلاة بعد ذلك حتى ترى أنها قد ثبتت عندك وخذ بعدها مجموعة أخرى واربطها بها وهكذا...

ومن عجيب بركات القرآن إنك حين تشرع في الحفظ، سوف تكتشف أنك تحفظ آيات كثيرة؛ ما كنت تظن أنك تحفظها فتشعر بسرور بالغ وانسراح عظيم يشجعك على السير قدماً في طريق الحفظ إن شاء الله.

أغراض القرآن الكريم :

لقد جاء هذا الكتاب الكريم وهو آخر الكتب السماوية جاء شاملاً لعلوم الدنيا والآخرة؛ جامعاً لأبواب لا حصر لها مما ينفع الناس في حاضرهم ومنيراً لهم طرائقهم... أحياناً بالإيجاز البليغ وأحياناً بالإشارة والتلميح؛ وتارة بالتفصيل؛ وطوراً بالإجمال.

وكان في مقدمة ما عنى به القرآن الكريم تصحيح عقائد العباد؛ وربط مفاهيمهم بما سبق أن علمه للبشر على أيدي الأنبياء السابقين لتأكيد الرسالة الواحدة من أول الكون إلى منتهاه. ثم أنزل الله فيه شريعة واضحة متكاملة، تتضمن العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج ومعاملات وجهاد... وتتضمن الآداب الاجتماعية والأخلاق الفردية، ثم تصحح ما تناوله التحريف من المفاهيم الأساسية للحياة والموت؛ وكذلك تضمّن هذا التنزيل المبارك طائفة أخرى من المعاني والأغراض.

ففي باب العقيدة: يقول الله عز وجل «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِينَ هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» ويقول تعالى «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ».

وفي باب الشريعة يقول الله تعالى: «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ؛ نَصِيبًا مَفْرُوضًا» ويقول سبحانه وتعالى: «وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا» وقوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ» إلى آخر الآيات. وفي تصحيح التاريخ يقول الله عز وجل «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ» ويقول تعالى عن حقيقة الفراعنة «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثُمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ» وعن تاريخ بعض قبائل اليمن يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ» إلى آخر الآيات.

وفي باب القصص والمعجزات يقول سبحانه وتعالى «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذَا نَفَشْتَ فِيهِ غَنَمَ الْقَوْمِ، وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» ويقول تعالى «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعُدْوًا، حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

وفي باب الآداب والاخلاق :

يقول الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم» ويقول الله تعالى «لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها؛ سيجعل الله بعد عسرٍ يسراً» ويقول «بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ايبغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً».

وفي وصف شخصية النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً». ويقول الله تعالى «وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون، فقد جاءوا ظلماً وزوراً».

يقول الله تعالى «والضحى والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خيرٌ لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى».

وفي باب الدعوة والحواري يقول الله تعالى : «الذين قالوا أن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار؛ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات، وبالذي قلتم، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين». ويقول الله تعالى «وقالت اليهود عزيز بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله، ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أننى يؤفكون».

تفسير القرآن الكريم :

عندما كان القرآن يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة الوحي الإلهي كان العرب يفهمون مباشرة نظراً لفصاحتهم وأنه نزل بلسانهم... وكانوا إذا اشتبه عليهم شيء يسألون عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فيجيبهم بما يعلم أو يتريث حتى ينزل عليه الوحي بتبيان المقصود ولكنهم لم يكونوا يسألون إلا عما يلزمهم فقط لسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم عن كثرة

السؤال والاختلاف في القرآن... قال تعالى «فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم». وقال تعالى «أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل».

ولهذا بقي مقدار من القرآن الكريم لم يعرف تفسيره في العصر الأول وعندما انتشر الإسلام في بلاد غير عربية دعت الحاجة إلى تفسير القرآن وتوضيح أسرارها لغير العرب؛ بل وللعرب أنفسهم.

وقد ورثنا من الأقدمين كثيراً من كتب التفسير؛ منها ما هو مطول يقع في ثلاثين مجلداً أو يزيد ومنها المختصر الذي يكتمل بمجلد واحد كما أن منها ما يهتم بالفقه والأحكام... ومنها ما يهتم باللغة والقواعد ومنها ما يهتم بالسير والتواريخ وأسباب النزول؛ ومع ما في تلك التفسيرات من حشو واستطراد وآراء شخصية... ومعلومات غير دقيقة من العلوم التي كانت تسود في تلك الأزمنة لكنها في الجملة كبيرة القيمة عظيمة الأهمية في فهم معاني القرآن الكريم.

مناهج التفسير: وتختلف آراء الناس في تفسير القرآن الكريم فمنهم من لا يعتمد على كلام القدماء؛ وهم السلف، ويفسر برأيه غير متقيد بشيء؛ وهذا أمر خطير؛ لقوله عليه الصلاة والسلام (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار).

ومن الناس من يقرأ كتاب الله تعالى بدون أية محاولة لفهم؛ المعنى اكتفاء بما يرجو من الشواب والبركة؛ وهذا أيضاً غير صواب لأن الله تعالى أمرنا بالتدبر... فقال «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

أما المنهج الذي نراه صحيحاً في فهم الكتاب العزيز فهو الآتي:

أولاً: أن تفهم معاني المفردات اللغوية التي تصعب عليك (وتوجد مختصرات كثيرة في معاني كلمات القرآن ومفرداته).

ثانياً: أن تقرأ تفسيراً موثقاً به أو أكثر من تفسير واحد لتتعرف بوجه عام هذا

العلم وما يتصل به من علوم كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والكناية والمجاز وعلوم اللغة والبلاغة وتميز آيات الأحكام مع عدم الاستسلام لكل ما ورد في التفسير من الغرائب والإسرائيليات .

ثالثاً: أن تفتح قلبك لفهم القرآن وتتدبره في حدود معاني اللغة العربية دون تأويل ولا تعطيل . فالقلب المؤمن هو خير مفسر للقرآن الكريم .

التأويل: هو تفسير الآيات أكثر مما يفهم منها أو صرفها عن معناها الصحيح إلى غيره **والتعطيل:** هو إلغاء المعنى المقصود واستبعاده مع شدة وضوحه وليكن معلوماً أن هذا الكتاب معجز بالفاظه ومعانيه فهو يحتمل المعاني الكثيرة ولن يزال بكرة إلى يوم القيامة؛ لا تنقضي عجائبه ولا تحصى معانيه... أما الذي لا يجوز للمسلم فعله فهو أن يتعرض للتأليف أو للافتاء فيما لا يعلم وخاصة في هذا العلم الجليل لأن الأمر خطير جداً وكان كثير من الصحابة ومنهم أبو بكر رضي الله عنهم يمتنع عن كثير من التفسير ويقول «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في القرآن على غير مراد الله تعالى» فالجراحة على كتاب الله لا تجوز بحال فإذا أردت أن تفتح قلبك لمعاني القرين فافعل مثل ما قلناه في أول هذا البحث ولكن ان أردت أن تفتي غيرك فاحترس وتوقف حتى تستوثق مما تقول .

التحريف والتأويل: يأتي التأويل بمعنى التفسير كما قال تعالى «وما يعلم تأويله إلا الله» ويأتي التأويل بمعنى الميل بالمعنى إلى هوى معين؛ كما يأتي بمعنى التحريف . والبأس الباطل ثوب الحق وهو ما نريد الإشارة إليه في هذا الموضوع . لكن نحذر المسلمين من الوقوع فيه وقد اشتهرت بعض التفسيرات بالميل عن التفسير الصحيح إلى التفسير الباطل مثل تفسير بعض المعتزلة الذين لهم آراء معينة في مذهب خلق القرآن وخلق أفعال العباد وحرية الإرادة .

ومن ذلك تفسير بعض فرق الشيعة فإنهم بنوا مذهبهم على نظريات معينة ويقول بعضهم إن القرآن له ظاهر وباطن؛ وإن القرآن كله أو معظمه نزل في أئمتهم ومواليهم واعدائهم ومخالفهم وأن القرآن قد حُرّف وبُذِلَ ويقولون في قوله الله تعالى مثلاً «قال الذين لا يرجون لقاءنا إئتِ بقرآن غير هذا أو

بَدَلَهُ» (يعني بدل علياً) ومعلوم أن علياً لم يسبق له ذكرٌ في الآية ... وفي قوله تعالى «لتركبن طبقاً عن طبق» يقولون في هذا إشارة في أن الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء وائمة الشيعة ... وكلام كثير لا ضرورة لإيراده .

وهناك التفاسير الإشارية الصوفية ومعلوم أن التصوف يتفق مع التشيع في عدد من المسائل كالغلوفي آل البيت ومسائل الشفاعة والتوسل ومسائل الظاهر والباطن واعتزال شئون الدنيا وعدم التعاون مع السلطة أي فصل الدين عن السياسة وأمور أخرى ليس هذا مجاها .

وبعض الصوفية يجازفون بآراء غريبة شاذة وأحياناً ينسبونها إلى صحابي فاضل كابن عباس وغيره وهذا كله غير صحيح ... ففي تفسير سهيل التستري مثلاً عند الكلام على (بسم الله) قال الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مجد الله والله هو الاسم الأعظم .

وعند قوله تعالى (ألم) يقول الألف الله واللام جبريل والميم محمد وأن الله أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام وهذا فكر مشابه لنظرية التثليث في الدين المسيحي ... وغيره .

ويقول محي الدين بن عربي في تفسير الفاتحة ... « فإذا وقع الجدار، وانهدم الصور وامتزجت الأنهار، والتقى البحران؛ وعلم البرزخ؛ صار العذاب نعيماً وجهنم جنة؛ ولا عذاب ولا عقاب، إلا النعيم والأمان» يعني صار موقف الآخرة فوضى وثورة عامة لصالح المجاذيب وهذا كله مما يجب أن يحذر الناس منه فلا يصدقوه .

بقي أن نذكر التفاسير الفقهية وأمرها يسير لأنها ترتبط ببيان أحكام الشريعة إنما يميل كل مفسر لما يؤيد وجهة نظره في الفقه ومعلوم أن فقهاء السنة متفقون في أصول الدين ولم يقع الاختلاف إلا في الفروع ولن نخوض في ذلك حرصاً على الإيجاز .

هذه فكرة موجزة عن التفسير واتجاهاته... نقلنا الكثير منها عن كتاب التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي رحمه الله وعن غيره من الكتب الجيدة... ونود أن ننسب القارئ الكريم إلى مزلق المفسرين الذين يمكن للمسلم المستنير أن يرى آثارهم اليوم أو غدا وهم يحاولون استغلال ثراء اللغة العربية وضعف ادراك جماعة من الناس؛ فيميلون بمعاني القرآن إلى ما يؤيد نزعاتهم التي يعيشون بها، ويرتزقون منها، وصدق الله إذ يقول «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به، كُلُّ من عند ربنا ما يذكر إلا أولو الأبواب».

الإسرائيليات:

هي الحكايات التي أوردها المفسرون تعليقاً على بعض الآيات ولكنها لا تستند إلى أصل معتمد، بل هي منقولة عما ورد في كتب اليهود أو مستندة إلى آرائهم الخاصة وثقافتهم المتداولة عبر القرون. وقد استند بعضهم إلى حديث منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

لكن الإسرائيليات التي نقرأها من خلال كتب التفاسير صارت غير مقبولة مع تقدم المعرفة وغير لائقة أن يتداولها القراء والعلماء بما تنطوي عليه من خرافة لا يقبلها العقل، أو من اتهام للأنبياء والصديقين مما لا يصح أن يوجه إليهم ومن ذلك ما أورده الزمخشري في تفسير الكشاف في سور (ص) عند قوله تعالى «إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة» يقول كان أهل زمان داود يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها واتفق أن عين سيدنا داود وقعت على امرأة رجل يقال له (أوريا) فأحبها فسأله أن ينزل له عنها فاستحيا منه الرجل فنزل عنها فتزوجها داود بالاضافة إلى نسائه التسعة والتسعين

وهي أم سليمان ... والصحيح غير ذلك فالنعجة المقصودة في القرآن كانت نعجة وليست امرأة.

الخلاصة أن الإسرائيليات قد دست في كتب المفسرين فيجب الاحتراس منها.

إستنباط الأحكام:

القرآن الكريم هو مصدر جميع الأحكام عند المسلمين تفسره السنة المطهرة أو تفصل ما أجمله . وتوجد الأحكام الشرعية في شروح القرآن وشروح كتب الحديث . وقد وضعت لها كتب خاصة تحمل معنى اسم (أحكام القرآن) ومثلها كتب الفقه؛ وهي استخلاص واستنباط الأحكام من نصوص القرآن والسنة وفيها علم السيرة وعلم الرواية والدراية وأحوال الصحابة والقياس وغيره .

وسنورد فيما يلي بعض النماذج لاستنباط الأحكام .

في الجزء الأول من أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن العربي من صفحة ٨٩ إلى ٩٦ عند قوله تعالى «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» قال أن فيها تسع عشرة مسألة: الأولى في سبب نزولها . الثانية في الرفث . الثالثة في قوله هن لباس لكم . الرابعة في قوله علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم . الخامسة في قوله فتاب عليكم . السادسة في قوله «فالآن باسروهن» . السابعة في قوله «وابتغوا ما كتب الله لكم» وفي ذلك ثلاثة أقوال ... ثم أورد شروحات حسنة جيدة طويلة تعطي مزيداً من العناية والالتفات إلى أسرار هذه الآيات ...

والذي نريده الآن هو بيان أهمية ما تنطوي عليه آيات الكتاب الكريم من كنوز وثروة علمية وأن هؤلاء العلماء قد خدموا الدين بجهود جبارة يسرت للمسلمين الانتفاع بهذه الكنوز وما يؤسف له أن بعض المسلمين الآن يقرأ القرآن ولا يفهم منه شيئاً ... ولا يستطيع أن يستنبط منه حكماً وقد أهملوا هذه الكتب الجيدة المليئة بالكنوز النافعة .

إعجاز القرآن:

يتميز القرآن الكريم بأمور كثيرة منها الصحة فلا يجادل مؤمن بالإسلام ولا غير مؤمن من المحققين في أن القرآن هو أصح الكتب السماوية الموجودة في العالم الآن... وقد تواترت القرائن على ذلك بصور شتى، منها وجود المصاحف القديمة الموجودة حالياً، وبعضها يرجع إلى القرن الأول ثم تتابعها عبر القرون وبأيدي كتاب وناسخين متعددين من شتى الألوان والجنسيات فلم يختلف فيها سطر ولا جملة ولا حرف ولا شكلة، وكلها بنفس الضبط والدقة ومن ذلك حفظ الحفاظ في الصدور.

ومنها التوافق العلمي: فبالرغم من إتساع رقعة الإسلام في كافة أرجاء الأرض من أقصى الصين إلى أوربا وأفريقيا والأمريكتين عرضاً ومن القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي طولاً فلا تكاد تلمس في قراءة أحد من هذه الأقطار ما يختلف فيه عن تلاوة أخيه في شيء يمكن أن يغير المعنى أو يميل به.

ومن ذلك التراث الحي فقد جمع ما كتب من آياته ومخطوطاته الموجودة لدى المسلمين الذين عاصروا دولة الإسلام من القديم والنقوش الباقية على جدران المساجد مع تطاول الزمن كل ذلك يشهد للقرآن بالصحة والسلامة من التحريف.

ثانياً: الإعجاز اللغوي: لقد كان القرآن معجزاً بألفاظه ومعانيه من ذلك ما روي أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستمع إلى قول الله تعالى (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وكان مشركاً فخر ساجداً وقال: «والله ما يقول هذا بشر».

وقد حدث عندما كان رسول الله يتلو من سورة النجم قوله تعالى (أزفت الأزفة ليس لها من دون الله كاشفة. أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا) فسجد المشركون عن غير وعي منهم لما بهرهم من بلاغة القرآن وإعجازه... والأمثلة في هذا كثيرة أوردها كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. وقد الفت عشرات الكتب

في هذا المعنى منها «إعجاز القرآن للباقلاني» وإعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي .

الإخبار بالغيب:

ولقد أخبر القرآن الكريم بطائفة من المغيبات وقعت بعد زمان الإخبار بها على الوجه الذي حدده القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين) وكان نزول هذه الآية قبل صلح الحديبية على رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذلك قوله تعالى (ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وقد حصل ذلك على وجه التحديد وعن أبي بن كعب قال لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ورمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه . فقالوا أتظنون أنا نعيش حتى نبني مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل فنزل قول الله تعالى (وعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) ومعلوم أن الله استخلف المؤمنين في الأرض وأغناهم وأمنهم حتى أقاموا دولة الإسلام ... وهناك مئات الأمثلة من الآيات عن المعجزات القرآنية فليرجع إليها من شاء .

أثر القرآن في العالم:

هذا الكتاب المبين هو معجزة الإسلام الكبرى ومعانيه دقيقة، وأخباره صادقة؛ وتركيبه عجيب؛ أخبر عن الماضي البعيد فلم يعارضه شيء وأخبر عن الحاضر في وقته فكان خير نظام وخير أدب وخير تشريع . وأخبر عن المستقبل والغيب فتحقق ما قاله بعد نزوله بمئات السنين وطابق أحدث المخترعات الجديدة . ولا زالت فيه أعاجيب لم يصل إليها العلم الحديث

والذين آمنوا بدين الإسلام تأثروا بالقرآن من حيث أنه دستور حياتهم

واصبحت تعاليمه سارية على نصف سكان الأرض لمدة قرون طويلة هم وأولادهم ومن جاء بعدهم فهو الذي كوّن لنا العادات التي نسير عليها وهو الذي حفظ اللغة العربية من الضياع وبقيت مفهومة في جزء كبير من العالم فلم تذهب معالمها بمرور الزمن كما تشعبت اللغات الأخرى كاللاتينية في أوروبا إذ صارت لغات كثيرة لا يفهم بعضها بعضاً... والقرآن هو الذي رسم خطوط الحضارة للعرب ثم نقلتها الأمم الأخرى فهو بحق أستاذ البشرية جميعاً المؤمن به منهم وغير المؤمن ومع أن المدنية الحديثة لم تعد تخضع للدين ولا تعترف بسلطانه إلا أن أثر القرآن لا يزال هو أقوى شيء في أمن الناس ومعاملاتهم كما أنه كان كثير الأثر في تكوين تلك المدنية؛ ولولاه لتغير وجه الدنيا وسائر شئون حياة الناس في بلاد الإسلام وفي غيرها من البلاد.

وجوب العناية به :

عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) رواه البخاري وفي رواية (إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه) .

وكان بن مسعود يجلس في مسجد الكوفة فيعلم الناس قراءة القرآن حتى بلغ عدد الذين أخذوا عنه من الثقات مباشرة أو بواسطة ما يقرب من أربعة آلاف واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن حزم على نجران ليفقههم في الدين؛ ويعلمهم القرآن ويأخذ منهم الصدقات؛ وورد ذلك في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر.

روى الامام أحمد عن أبي عبد الرحمن حدثنا من كان يقرؤنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يقرءون من رسول الله عشر آيات فلا يأخذون العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه العشر من العلم والعمل قالوا فعلمنا العلم والعمل جميعاً .

قال الحافظ السيوطي : « تعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام فينشأون على الفطرة وتسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل أن تتمكن الأهواء منها

وتسودها بأكدار المعصية والضلال» .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشترط على وفود الأعراب بعد إسلامهم أن يقرأوا القرآن بينهم ويعلموهم أمر الدين و يقيموا المؤذنين يدعون للصلاة .

وقد حدث في العصور الأخيرة أن انخدع المسلمون بالحضارة الغربية والشرقية وكلتاها عدوة للإسلام وأهملوا العناية بهذا الكتاب العزيز — فعلىنا أن نجتهد في حفظه وتحفيظه وإبلاغ أنواره للعالمين — والحمد لله رب العالمين .

(الجماعة الصالحة)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فهذه المحاضرة ، هي الجواب على السؤال الذي يتردد على ألسنة كثير من الشباب ، يتساءلون قائلين ، إذا كانت الجماعة من شعائر هذا الدين ، فما هي الجماعة التي توصوننا بالاتصال بها ، وخدمة الإسلام تحت لوائها ؟

والعالم النصف ، لا يستطيع أن يسمي جماعة معينة ، نظراً لسرعة التغير في الحياة والأحياء ، إنما يشير إليها بالوصف ، وتوافر الشروط الشرعية ، تاركاً لكل إنسان أن يحكم ثم يختار ، فلا يعلم الغيب إلا الله .

وبجمل بناء ، أن نتكلم عن الجماعة الإسلامية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، ثم في العهود التي تهاونت بتطبيق الإسلام ، ثم أنواع الجماعات ، ثم نبين ميزات الجماعات الصالحة ، وأمثلة من الشطط في مسالك الجماعات .

الجماعة النموذجية الأولى :

نعلم مما وصل إلينا من كتب السيرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أقام دولة الإسلام في المدينة المنورة ؛ كان هو الحاكم المنفذ لما أنزل الله من أمر ونهي ... وكان المجتمع الإسلامي متفهماً للرسالة ، مطيعاً للتعاليم ، ترفرف عليه راية المحبة والسلام ... فإذا دعا داعي إلى الجهاد هبّ الناس خفاً وثقلاً لما فيه إعلاء كلمة الله ...

ولقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على إقامة الجماعة المثالية الأولى ، حتى أنه قال « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، وقد كان ذلك كذلك .

ثم جاء عهد الخلفاء الراشدين ، محاكياً ومقارباً لعهد رسول الله صلى الله

عليه وسلم، وكان كل خليفة شديد الحرص على أن لا يخرج عن ذلك الهدى قيد أنملة... ومع وجود المجموعة الصالحة من المهاجرين والأنصار، لم يكن المجتمع يشعر بحاجة إلى التحاكم والتقاضي، فقد روى التاريخ أن أبا بكر رضي الله عنه كلف عمر رضي الله عنه بالقضاء بين الناس، فجلس عاماً كاملاً لم يحتكم إليه اثنين، لأن كل إنسان كان عارفاً بالحق والواجب، راضياً عن الإدارة العامة، وداعياً لها بالتوفيق وهذا لم يمنع من وقوع حوادث قليلة، أرادها الله لبيان حكمها للأجيال اللاحقة.

وكان يكفي في كل نزاع أن يقال للحاكم والمحكوم، أن هذا حكم الشرع، فينزل عليه فوراً بنفس راضية، مصداق قوله تعالى «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليماً»، ولم يكن هناك حاجة لاصطناع الأمر والقوانين الكثيرة، إذ كان قانون كل إنسان في داخل نفسه، وخشية الله بين عينيه، وهم يذكرون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «انكم تحتكمون إليّ وأنا بشر، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر، فأقضي له، فمن قضيت له بشيء من مال أخيه فإنما اقتطع له قطعة من النار».

صورة الجماعة في العهود المتأخرة:

وبعد عدة قرون جاء حكام للأمم الإسلامية، تهاونوا في الحكم بما أنزل الله، واستبدلوا بها قوانين أخرى من عند أنفسهم، أو من عند غيرهم، فكثر المشاكل ووقعت الجفوة والكراهية بين الشعوب وحكامها، وبين الناس بعضهم وبعض، ونسوا حظاً مما ذكروا به» فكثر القضايا وتعددت درجات المحاكم وأنواعها، وأصابهم الله ببعض ذنوبهم، مصداق قوله تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون، أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون».

أما قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقضية نشر الدعوة الإسلامية، وقضية تربية الأفراد في حلقات ومحاضن خاصة في المجتمع، وقضية فعل الخير العام، فقد تعطلت في تلك الجماعات أو كادت، وأحس كل مسلم بالخرج الشديد، مخافة أن يسأله الله تعالى عن القعود عن الواجبات المشار إليها آنفاً، فنشأت الحاجة لقيام الجماعات الأهلية الخاصة، وإلى تعددها، حسب الأهداف المقصودة لها، وحسب الظروف المختلفة في كل قطر عن الآخر.

فلو كانت الأمور تسير كما أراد الله ورسوله، ولو كان الإسلام مطبقاً كما أنزل الله، ما كانت هناك حاجة إلى قيام تلك الجماعات وتعددتها، لأن مسؤولية الأعمال التي تقوم بها، هذه أساساً مسؤوليات أمير المؤمنين، أو ولاة أمور المسلمين.

أنواع الجماعات: نستطيع أن نقسم الجماعات المعاصرة، إلى أربعة أقسام رئيسية:

أ - جماعات العبادة والسلوك: وهي التي توجه اهتمامها إلى اتقان العبادات، وتخليصها من البدع والخرافات، وتدريب الأفراد على أن يسلكوا في حياتهم سلوكاً إسلامياً صحيحاً.

ب - جماعات الخدمة الاجتماعية: وهي التي توجه أكثر اهتمامها إلى تقديم خدمات للمسلمين، ولعامة الناس، مما يسهل عليهم شئون الحياة أو يخفف عليهم وقع الفقر.

ج - جماعات التربية والتعليم: وهي التي توجه غالب نشاطها إلى إنشاء المدارس لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم، أو اللغة العربية، أو الدراسات الإسلامية، سواء في بلاد العرب أو خارجها.

د - جماعات الدعوة والحركة: وهي التي تقوم بنشر الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم، أو تعمل لتنفيذ شريعة الله في الأرض، هذه الجماعات أصبحت كثيرة، وهي حقيقة واقعة لا يمكن تجاهلها، وإن وصفها والتمييز بينها، هو موضوع هذه المحاضرة.

الجماعة الصالحة لمن؟

يجب أن يوضع في الحساب عند الإجابة على سؤال إنسان في هذا الموضوع ، يوضع في الاعتبار ميله واستعداده ، فقد يرى إنسان أن جماعات الخدمة الاجتماعية هي الأقرب إلى تخصصه واستعداده ، بينما يرى غيره أن جماعات الدعوة والحركة هي الأنسب له ، ومع ذلك فهناك قدر مشترك في تمييز الصالح من هذه الجماعات ، حتى في نطاق النوع الواحد ، فقد تكون جماعة خدمة أفضل من جماعة خدمة باسم آخر ، وقد تكون جماعة عبادة خيراً من جماعة عبادة في بلد آخر ، وإنما نحاول أن نوجد مقاييس لهذه الصلاحية ، على قدر فهمنا في دين الله والله المستعان .

ميزة الجماعة الصالحة وعلامتها :

أولاً سلامة المنهاج فلا يجوز أن توصف جماعة من الجماعات بالصلاح أو بالصلاحية ، إلا إن كان لديها المنهاج الدقيق المستمد أساساً من كتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل جماعة يمكن أن توزن بثلاثة أمور : — القيادة — المبدأ — الجنود . فإن اختل واحد من هذه الثلاثة ، تعرضت الجماعة للانحراف أو إلى الدمار ، والمبدأ أو المنهاج هو قانون الجماعة ، وهو الذي يتضمن الغاية والوسيلة ، فالغاية هي الهدف النهائي الذي تتمنى الجماعة أن تصل إليه ، فتوجه كل الجهود لإدراكه ، والوسيلة هي الطرق والأساليب التي قررتها الجماعة ، أوتراها صالحة للوصول إلى ذلك الهدف ، وفيما بين هذين ، تراعى الظروف الكثيرة المحيطة بالجماعة ، وتوضع خطوات التدرج التي يرجى تطبيقها من الناحية العملية .

والناظر إلى الجماعة من خارجها ، عليه أن يتعرف على هذا المنهاج ، وأن يسأل المعروفين بالبصيرة الناقدة ، ليعرف مدى سلامته وإمكانية السير فيه .

ثانياً الشمول والعالمية :

وبالنسبة إلى الجماعة الإسلامية أيضاً ، فيجب أن تشبه الإسلام نفسه ، ولما كان الإسلام قد جاء للناس كافة ، ليس لبلد ولا لجنس ، ولا لقوم ، إنما هو عام

للإنسانية كلها، مصداق قوله تعالى «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً» وقوله تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فوجب أن تكون جماعات الدعوة والحركة موصوفة بهذا المعنى، وليست قاصرة على ركن معين من الدين. وأما موضوع الشمول فمعناه اشتمال الإسلام على كل فروع العلم والعمل، التي يحتاجها الناس في حياتهم، مصداق قوله تعالى «ما فرطنا في الكتاب من شيء» وعلى اعتبار أنه الدين النهائي الذي لا دين بعده، مصداق قوله تعالى «ما كان محمدٌ أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» فإذا لوحظ أن الجماعة تحمل فلسفة معينة، تنكر الجهاد مثلاً أو تستبعد على الإسلام أن يحكم، أو يصلح شئون الدنيا، مؤثرة بذلك الشمول أي تشريع آخر، تكون هذه الجماعة غير صالحة.

ثالثاً صلاحية القيادة:

والقيادة أو الرئاسة هي جزء هام من الجماعة، بل هي رأسها المدبر وعمودها الفقري، فلو عرف عنها ما يطعن في سلامتها وتكاملها، ولو عرف عنها آثار الدنيا على الآخرة، أو عدم العدل في القضاء، أو التبعية لجهة معينة، ممن يكرهون الإسلام، ويكيدون له، أو كانت موصوفة بالضعف وعدم القدرة على اتخاذ القرار، مع العجز عن تدبير الأمور، أو كانت مستبدة فردية لا تحترم الشورى ولا توقر العلماء، أو كانت مشبوهة العبادة أو السلوك أو كانت موسومة بالجهل والخرافة، فيمكن أن يحكم على الجماعة التي رضيت هذه القيادة بأنها غير صالحة...

رابعاً سلامة التاريخ:

ويحسن النظر في تاريخ الجماعات القديمة، ومقدار كفاحها وما وجه إليها من اتهامات صادقة، وما كان من دفاعها عن تلك الاتهامات، لمعرفة مدى براءتها أو إدانتها، فتاريخ الجماعة جزء منها، وكيف استطاعت أن تتغلب على الصعاب، حتى تبقى، وهل تعتمد في تمويلها على جهات مشبوهة الغرض. أم على جهود أبنائها العاملين، وهل حققت شيئاً من النفع العام، خلال مسيرتها أم

أنها تعيش على الأوهام والنظريات الجوفاء، ومن الذي يحبها؟ ومن الذي يبغضها؟ من أهل الحق وأهل الباطل، إن الإجابة على هذه التساؤلات تفيد كثيراً في الحكم على صلاحية الجماعة.

خامساً التضحية والأناة: وبحسن النظر كذلك إلى مدى عناية الجماعة بمنطق الأعمال، والتفاعل الحركي في المجتمع، فالكلام كثير وقد شبع الناس منه، وأصبحوا يتطلعون إلى منابع التأثير والقدوة الصالحة. كذلك أمر الحكمة والأناة، لأن الله تعالى أمرنا كذلك في قوله «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»، فالثورية ليست في الإسلام، إنما هو الصبر والمصابرة والرباط والثبات، مصداق قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

سادساً السلامة من التناقضات والغلو والشطط:

وما يميز الجماعة الصالحة أن تسلم من وجود التناقضات في داخلها، أو في أعضائها المقدمين، فإن ذلك دليل على عدم الصدق، وبرهان على بعدها عن النهج الإسلامي الصحيح، فالله تعالى يقول «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين».

سابعاً: اليقظة والانتباه:

والأمثلة على هذا كله كثيرة لا تحصى، وظاهرة لا تخفى وإنما المهم أن تكون في أحداث الحياة ذكرى لمن كان له قلب، وأن تكون في استقلالية الرؤية أصالة، لا تتأثر بالبهرج الكاذب والدعايات المنمقة، فالحق أبلج والباطل ضعيف لجلج، نقول هذا إثارة للحق، ودلالة على الطريق، ننذره المفتونين في الجماعات المنحرفة، ونشجع المترددين عن السير مع الجماعات الصالحة، وصدق الله إذ يقول: «بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره» نسأل الله أن يبصرنا بالحق ويجعلنا من أهله والحمد لله رب العالمين.

وفيما يلي بعض النماذج لهذا الشطط، (وانظر محاضرة «الأفكار المنحرفة» ومحاضرة «تلبيس إبليس» «ومسائل الجاهلية»).

نماذج من شطط الجماعات: أولاً - الغرام بالجدل.

بعض الجماعات غلبت عليها النزعة الفلسفية الجدلية، فهي تزن كل شيء بالاستحسان أو القبح، ويكثر في أجوائها النقاش والجدل، تبعاً لذلك، وتروج فيها العبارات الملتوية، صعبة الإدراك، مثل قول بعض المشايخ: «يقول الأحـد الفرد أنا الأول بالرحمن، والآخر بالإنسان، الظاهر بالخلق، الباطن بالحق، فمن عرفني كذلك، حشرت أخباره في أولى، وأعدت ظاهرة في باطني، حتى يصير أزلياً لا آخرلاً وله، وصمدانياً لا ظاهراً لباطنه». و يقول: «لا يرى وجه الحق من قيـدته الجهة، ولا يفارق الجهة إلا من نفذ من أقطارات السموات والأرض، ولا ينفذ من طغت عليه بقية جسمانية، لأن جسم الإنسان هو سجنه، فإذا فارقه فارق السجن، فإن قلت في حصر الجهة والمسافة، وكل روح وروحاني فقد اطلقت الجهة والتجريد والمفارقة»، ومن ذلك أيضاً قول ابن عربي وجماعته (إذا رأيت الواحد من جميع جهاته، جاءك بصورة غيرك فاستر أحديتك بمرتبة من مراتب الفرق، وإياك أن يراك بعين من عيون سواه، فإن فيه عيون محركة، وإن ذلك لواقع ما له من دافع) (ص ٢٥ من كتاب نفائس العرفان لابن عربي) — وليس هذا الكلام المضطرب من سمت الإسلام/ لقول الله تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم «وما أنا من المتكلفين».

ثانياً — ومن شطط الجماعات: اعتماد السبب الواحد للظاهرة الاجتماعية على أن هذا الغموض في ذاته يسترب بعض الأهداف الخطيرة، كما يعتمد المركسيون مثلاً نظرية الرأسمالية أساساً لفساد العالم... ويعتبرون التعديلات التي يرون إدخالها على النظم الاقتصادية، هي الأساس لصالح العالم، بما في ذلك الأخلاق، وهذا قصور في الفهم، لأن الظاهرة الاجتماعية، لا تكون إلا نتيجة لعوامل متعددة، وليس لسبب واحد. كما أن قضية المادة إنما هي جزء واحد من النشاط الإنساني الكبير، ويقابل ذلك عند المتدينين المسلمين اعتماد السبب الواحد في أنواع العبادات في شأن الثواب والعقاب والإصلاح، كأن يقول بعضهم أن اتقان الصلاة هو الحل الوحيد لمشاكل المسلمين، أو أن

الانقلاب العسكري للاطاحة بهذا النظام هو وحده طريق الفرج والخلاص .

ومما يذكر في تاريخ الأحزاب المصرية أن حزباً جعل شعاره « الجلاء التام أو الموت الزؤام » ، و يومها قال أحد العلماء وماذا تكسب مصر لو تم جلاء الانجليز من جهة البحر الأبيض المتوسط وجاء كلب جديد من جهة البحر الأحمر» — إن الذي تحتاجه البلاد فعلاً هو توفير أسباب القوة الإيمانية ، والنفسية والمادية ، التي تساعد على إنهاء الشعب من كبوته ، بحيث يطرد كل مستعمر ، ويقوم كل اعوجاج .

ثالثاً : ومن مظاهر الشطط كذلك تضخيم الذاتية ، بحيث يدور نشاط الجماعة كلها على المبالغة في شخص واحد ، « أو أسرة واحدة » ونسبة كل الفضل له ويسقط عنه كل النقد ، ويظهر كأنه الملهم للإصلاحات والعبريات ، وهو الفعال للخير وهو الباني للمشاريع ، لا يظهر بجواره أحد ، ولا يساويه شريك من أفراد الأمة ، وتدور عجلة الحياة في الجماعة على النفخ في هذا الشخص ، حتى إذا انفجر أو أدركه الموت ، حدث الفراغ الخطير وظهرت المساوئ المختبئة ، ويمضي تاريخ الناس بين أكاذيب المبالغة ، والتحسر على الخسائر .

رابعاً : ومن مظاهر التناقضات في الجماعات والهيئات ، أن ترى واقع المسؤولين فيها ، يخالف دعواهم فرما تقوم جماعة باسم الجهاد ، نيابة عن الفقراء والمستضعفين والمظلومين ، وبعد فترة من الزمن ، تنظر إلى زعمائهم فتجد أنهم أثروا ثراء فاحشاً ، واكتفوا بالحياة الناعمة ، والخطب الرنانة ، بينما بقي البؤساء في بأسائهم ، والفقراء في فقرهم ، — إن لم يكن الحال مع هذه الجماعة أسوأ مما كان قبلها .

(السلوك في الجماعة)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد فمعلوم أن الجماعة الإسلامية ضرورية لخدمة هذا الدين وأن الإسلام اهتم بالجماعة وأشاد بها وقال عليه الصلاة والسلام: « ان يد الله مع الجماعة (أو إن يد الله على الجماعة) ومن شذ شذ في النار» وقال تعالى «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير» فالجماعة في كل عصر وفي كل حين من ضروريات العمل الإسلامي .

وأنواع التجمعات كثيرة في الدنيا فمنها تجمعات قانونية أو رسمية كالتجمعات التي تقوم بها دولة من الدول لتنظيم أمورها وتسيير أعمالها فهذه تجمعات تحكمها قوانين ولوائح وأنظمة وأواصر مكتوبة، تترتب على المخالفة فيها عقوبات معينة، وهناك تجمعات إنسانية، أو عشائرية أو قبلية، لها قوانين وأعراف غير مكتوبة، ولكنها حاسمة تحكم الجميع فرئيس العشيرة أو رئيس القبيلة أو إمام المجموعة، حرّفي أن يطبق ما شاء من العقاب على من شاء من المخالفين، أو أن يعفوه عنه .

هذه التجمعات العشائرية أقرب إلى النظم الاستبدادية، والناس فيها خاضعون لذلك، راضون به سائرون عليه، فهذه الأعراف المستقرة متوارثة عندهم كابر عن كابر، وهناك تجمعات تطوعية لعمل من الأعمال، وهي ما نحن بصدد الكلام عليها، والسلوك في هذه الجماعات التطوعية، صعب لأن القيادة فيها لا تبلغ أن تكون سماوية بالمعنى المعروف ولا هي أرضية بالمعنى المألوف فلو كانت سماوية يحكمها خليفة معتمد له بيعة في أعناق الناس ويسيرهم بقوانين الله، وبالحدود والتعزيرات لكان الأمر أيسر. ولكن عندما انفرط عقد الرابطة

الإسلامية، وأصبحت الجماعات كثيرة متناثرة، متعددة الأشكال رقيقة الحال، وليست لها صفة الدولة، فإن السلوك فيها يحتاج إلى درجة من الفهم، بحيث يرتضي الأعضاء فيها أن يطيعوا نظامها طاعة لوجه الله أو حباً في تلك الجماعة حتى من غير القوانين المكتوبة يعملون ذلك احتساباً لوجه الله عز وجل.

أما طريقة اختيار القيادة في الجماعات التطوعية قد يكون ذلك مقررأ في قوانينها وقد يكون عرفاً من الأعراف، ولكن القيادة عليها مدار عمل عظيم، في كل تجمع من التجمعات، فإذا كان القائد مختاراً بحرية، على الشروط الواردة في نظام الإمامة، في الفقه الإسلامي، بأن يكون مسلماً تقياً ورعاً فقيهاً رحيماً مؤثراً لآخوانه، فإن هذا يسهل المهمة تسهيلاً عظيماً، ويحل كثيراً من المشاكل أما إذا قامت الجماعة منفصلة بفكر معين وقد جمع بينهم هذا الحماس وليست لهم مشيخة، أو رياسة مطاعة، ولا قيادة ملزمة، فإن الأمور فيها تكون على درجة من الصعوبة، لأن إدارة الجماعة التطوعية تحتاج لآداب تلزم القيادة وآداب تلزم الأعضاء.

أسباب نجاح أو فشل التجمعات:

نعتقد أن كل تجمع يترتب فشله أو نجاحه على أمور خمسة:

١ - مدى فهم الأعضاء لأهدافهم: فكلما كان أعضاء الجماعة فاهمين لأهدافها متفقين على وسائلها العامة متصورين لوزنهم في المجتمع وموقفهم من الآخرين كلما كانت فرص النجاح أمامهم أعظم... والإسلام يهتم بتثقيف الأفراد بمثل العبادات والتربية المستمرة لكي يحقق هذا الهدف؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ملعون من قاتل تحت راية عمية» أي من أجل هدف مجهول، ولا ينبغي لرؤساء الجماعات أن يغشوه أو ينافقوا لغيرهم أو يخبئوا عنهم أمورهم المصيرية، وإلا كانوا المسؤولين عن غرق السفينة، وهم أول من يغرق فيها.

٢ - مدى فهم الأعضاء لآداب السلوك في الجماعة: وهو ما سنعرض للقول فيه بتفصيل. فقد تضم جماعة جملة من أصحاب الكفاءات النادرة ثم يقع

بينهم الإنقسام والشقاق — لا بسبب جهلهم بفروع العلم ولكن بسبب جهلهم بفن السلوك داخل الجماعات .

٣ — طريقة اختيار القادة :

فقد دأبت بعض الجماعات على الأخذ بنظام القرعة أو التأمير بالوراثة ولو كان طفلاً غير مميز، أو التأمير بنظام الانتخاب العام، وإن لم يكن المرشح مستوفياً للشروط التي تؤهله للمسؤولية، لكن بعض الانتخابات يقع فيها التزوير، وتسود فيها الرشوة، إنما الواجب أن تكون تقوى الله وإيثار المصلحة العامة هي الرائد للجميع .

ومن القواعد المقررة في الإسلام، أن من طلب الرئاسة لا يعطاها، وهنا فرق بين طلب الرئاسة والتطلع للسلطة المطلقة، وبين عرض الموهبة على المسؤولين، إن كانوا لا يعلمونها كقول سيدنا يوسف « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » والقيادة الموقفة هي التي تتوفر فيها الشروط الشرعية المعلومة، وقد تبطل الجماعة أو الأمة برئيس فرض عليها أو قدمته ظروف معينة « كالانقلابات العسكرية » فإذا هو يدمرها ويؤخر مسيرتها، ويرهق الناس، ويأخذ عليهم كل سبيل، قال عليه الصلاة والسلام « خير أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشر أمراؤكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم » .

٤ — طريقة ادارة الرأي والمال :

وهذه أيضاً تؤثر إيجابياً أو سلبياً على الجماعة، فقد فرض الإسلام الشورى على كل إمام وإن لم يفرض نتيجتها، وحرّم الظلم والاستبداد، ونهى على فرعون قوله « ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » فوصف الله حكمه بقوله « وما أمر فرعون برشيد » إنما يؤخذ الرأي من أهل العلم والتقوى، الذين تميزوا في الناس بنزاهة الغاية، ونضوج الرأي وطول التجربة، أما تعيين أهل الشورى بمقياس أعمالهم التي يمارسونها، أو أجناسهم أو وظائفهم فقط، فليس ذلك من الحكمة في شيء .

وكذلك الشأن في ادارة أموال الجماعة، فإن أكثر ما يقع النزاع في الجماعات على قسمة المال، وطريقة التصرف فيه، والله تعالى يحذر من تولية السفهاء شئون المال بقوله: «ولا تؤولوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً» والمفروض أن يتولى ادارة المال أهل الأمانة والورع. ولم تخل الأَرْض منهم يوماً.

هـ - طريقة التحكيم والمحاسبة:

وهي من العوامل المهمة في ضبط أمور الجماعة و يقال دائماً «لعن الله قوماً ضاع الحق بينهم» فإذا فقدت الجماعة عنصر العدل وشجاعة الحكم، وهيبة المحاسبة، سرى إليها الضعف والتسبب، وأصبح الحق كالباطل، وإذا يئس الناس من عدل الحاكم اضطربت الأمور.

آداب عامة لكل جماعة:

من ذلك أ - تلبية الدعوة، وهو خلق واجب لكل من ارتبط بقوم أو نوى أن يتعاون معهم، فلا معنى لقيام جماعة إذا كان أعضاؤها يتهاونون أو يستكبرون عن تلبية الدعوة فيها.

ب - الاعتزاز بالعضوية

بحيث يراها كل عضو شرفاً يفتخر به، أو قوة اضيفت إلى قوته، فلا يقبل أن يهان الوطن أو تهان الجماعة التي ينتسب إليها. بل عليه أن يدفع غيبتها و يبين الحق في مواقفها، وإلا كان مقصراً في أمانة العضوية.

ج - الكتمان:

وهو أن يحفظ سر جماعته، ولا يتطوع بكلام زائد قد يستفيد منه الأعداء، خصوصاً لو كان الشخص ممن يحضرون المجالس و يشاركون في اعداد القرارات. أما إذا كان لديه ما يستوجب الاعتراض فيكون اعتراضه من خلال القنوات الشرعية، ومن خلال الهياكل التنظيمية المعترف بها في تلك الجماعة، ولا شيء سواها...

د - توقير ذوي الهيئات :

بمعنى أن يعرف الفضل لأهله ، وأن يحترم كبار السن والتجربة بحيث يشعرون بهذا الاحترام . كذلك أهل الجهاد والسابقة ، قال تعالى « لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » . أما تناول الصغار على الكبار ، وإنكار قيم الرجال لهفوة حصلت أو كلمة سقطت ، فليس من العدل في شيء ، إنما يوزن الرجل بجمله حاله ، وغالب عمله ، فإن كان أكثر عمله خيراً فهو من أهل الخير .

هـ - التضحية من أجل الجماعة :

وتدعوا كل جماعة أفرادها إلى أن يضحوا من أجلها ، وأن يعطوا أكثر مما يؤملوا ، وأن يبنوا ولا يهدموا ، وإلا كانت شركة خاسرة ، ما دام الذي يؤخذ منها أكثر مما يقدم لها ، قال تعالى « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين » فكأن القرآن الكريم اعتبر البخل والإمساك عن الإنفاق في سبيل المصلحة العامة نوعاً من التهلكة ، وكم رأينا من الأعمال الجيدة والأفكار الضرورية والمشروعات الحسنة ، قامت ثم تعثرت وماتت بسبب تقصير أصحابها ، فهم بذلك الذين أهلكوها ، وربما يهلكون أنفسهم بذلك أيضاً .

و - احترام النظام :

فإذا اصططلحت الجماعة على الأخذ بنظام معين وتبنت معاملة وارتضاه الناس ، فلا يحل لواحد أو مجموعة أن تنتفض عليه في وسط الطريق ، لما يظنون أنه المصلحة ، فذلك خروج على النظام ، وإتيان للبيوت من غير أبوابها وإنما تعالج هذه الأمور في وقت معين ، وبطرق معينة ، ومثل من يفعل غير ذلك كمثل من ركب القطار وجلس فيه فترة ثم بدا له أنه يستعجل فقفز من النافذة ، ويلحق بذلك احترام الشورى ، وتقدير آراء الآخرين ، ولو كانوا أقل منه علماً وشأناً ، ولا

يجد الأعضاء في أنفسهم حرجاً مما انتهت إليه الجماعة، إلا أن يكون معصية لله، فهو أمر له حكم آخر، لكن المفروض أنك عندما ارتضيت جماعة معينة استيقنت مقدماً أنها بجملتها لا تقدم على معصية، ولهذا دخلتها. وربما يكون حكمك بأنها ارتكبت معصية، إنما هو مجرد رأي يعرض للمناقشة.

ز- الاحتراس من مكاييد الأعداء:

ومن رعاية حق الجماعة أن يدرك أعضاؤها أنها مستهدفة لعداوات الأعداء، فيجب التنبيه لمكايدهم، وعدم الاطمئنان إلى مشورتهم، ومكرهم قال تعالى «قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر» وللأعداء حيل شتى، ومكر خبيث، ولا ينبغي لعضو الجماعة أو الدولة أن يكون غافلاً أو مجاملاً للدرجة التي يجلب فيها الضرر لجماعته.

ح- آداب إسلامية خاصة:

ومع أن الذي ذكرناه من وجوب الأخذ بالآداب المتقدمة هوشياً لازم لكل جماعة، إلا أن العمل في الجماعات الإسلامية سواء أكانت هيئات أو جمعيات، يحتاج إلى الأخذ بآداب وأسباب أخرى إضافية، لأن من طبيعة هذا الدين أنه يقوم على الفضيلة ويعتزبها، ويعتمد الربانية ويخضع لها. فالحكم في الإسلام عبادة، والجندي عبادة، وتنفيذ العقوبات على المذنبين عبادة، وسوف نتكلم في هذا الباب عن أمور معينة منها النية، ومنها الايثار والصبر، ومنها النصيحة وترك الغيبة والحب في الله، وإصلاح النفس، والتماس العذر للآخرين، والارتباط بالجماعة والانشغال بها والمواساة مع اعتبار التقوى.

١ - قيمة النية في الإسلام

إن الإسلام يجعل النية معيار العمل ويهتم بالقلوب لا بالمظهر وبالباعث لا بالصورة.

والنية الصالحة تجعل العادة عبادة، والمباح طاعة، بل الشهوة قربة، وقد وردت في ذلك جملة أحاديث، حتى في اللقمة التي يضعها في فم امرأته، وفي بُضع أحدكم صدقة - الخيل ثلاثة ففرس للرحمن وفرس للإنسان وفرس للشيطان.

صدق النية وحده موجب للمثوبة

أ - فيثاب المرء على عمل نواه وإن لم يتمه قال تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

فيثاب المرء على عمل نواه ووقع خطأ ، للحديث الشريف « لك ما نويت يا يزيد ولك ما أخذت يا معن » .

ويثاب المرء على عمل نواه وإن لم يعمله أصلاً ... وقد ورد ذلك في أمور شتى :

ففي الجهاد : للحديث الشريف : « إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر » .

وفي الشهادة : للحديث الشريف : « من سأل الله الشهادة بقلب خالص ، بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » .

في قيام الليل : للحديث الشريف : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له من العمل مثل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » .

في الانفاق : « إنما الدنيا لأربعة نفر... الخ » الحديث الذي جعل المنفق في الخير والتمني لمثل عمله في الأجر سواء » .

وبإزاء ذلك توقيع العقوبة على نية الشر والمعصية للحديث الشريف : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » والحديث السابق الذي جعل المنفق من ماله في الشر ومعصية الله ، والتمني لعمله بقلبه ونيته مستويين ، كما قال في الحديث فهما في الوزر سواء .

بركة النية الصالحة ... لقوله في الحديث : من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه وقوله تعالى : « ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم » الآية في سورة التوبة .

الابثار والصبر

والصبر أن تؤثر أخاك بما تحب ، وبما تحتاج إليه ، قال تعالى « و يؤثرون على

أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» لأن النفس رُكبت على الشح «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» وقد حصلت أمثلة من الايثار في تاريخ الإسلام، حتى أن أحدهم ليجود بشربة الماء لأخيه ثم يعود الساقى فيجد الأول قد مات من العطش، والصبر يكون أيضاً على الأذى على ما يناله الإنسان في الجماعة، فأنت يا أخي لست في ناد للتسلية، ولست في مكان للترفيه، وإنما أنت في موقع للجهاد لرفع راية الإسلام، فإن لم تتسلح بالصبر الجميل على ما ينالك من إخوانك ومن غيرهم، فلست بجندي صالح...

الحب في الله:

وتتميز عضوية الجماعة الإسلامية بعنصر الحب في الله، بحيث أن تكون العاطفة الشخصية عند كل واحد مرتبطة بميزان طاعة الله، فنحب من أحب الله وأطاعه، ونتسامح في بعض حقنا من أجل هذا الحب، ونبغض من حاد الله وعصاه، مضحين في سبيل ذلك العلاقات الطبيعية الأخرى، قال تعالى «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم» والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به، وإذا توفر الحب في الله بصدق في نفوس الأعضاء، انحلت جميع المشاكل، وصاروا فعلاً كالجسد الواحد، أو البنيان المرصوص، وتوفرت بينهم الثقة التي تجعل إنساناً يأتمن إنساناً آخر على ماله ونفسه وعرضه، وهذا كسب عظيم.

عدم طرد الضعفاء:

وبالمقياس المتقدم لا يصبح في الجماعة ضعفاء وأقوياء، إنما يصبحون جميعاً عباداً لله وإخواناً، قال تعالى على لسان نبي الله «وما أنا بطارد للذين آمنوا — أنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون» فالقوي في الجماعة المؤمنة قوي لها/ والضعيف فيها قوي بها.

اصلاح النفس والإنابة:

واما اصلاح النفس فيكون بالتربية، ومنه طلب العلم ودراسة أحوال

النفوس والتربية بملازمة الخبراء والصلحاء ، و يكون بمجاهدة النفس عن شهواتها ، واستشعار رقابة الله في كل تصرفاتها فالمؤمن في الجماعة طالب في مدرسة ، يعطي فيها و يأخذ قال تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .

من اصلاح النفس كسر شهواتها من الكبر وطلب الرئاسة ، والطمع وتغني زوال نعمة الغير ، ومقاومة آفات النفس بكل أشكائها .

ولا بد للداعية في الجماعة أن يعرف الراجح من المرجوح ، ليأخذ بالراجح ويعذر الأخذ بالمرجوح ، أو ينصحهم إذا استطاع ، ويحسن بالداعية تنمة لهذا أن يعرف نبذة عن تاريخ الفقه الإسلامي ونشأة المذاهب وتطورها .

أما الانابة فمعناها الرجعة إلى الله وإلى الحق عن رضا واقتناع ، قال تعالى « وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له » .

النصيحة :

وهي الارشاد إلى ما يظن المرء أنه الخير ، أو التحذير مما يظن المرء أنه الشر ، وقد يخلط الناس بينها وبين النسيمة فالأولى هي التي من أجلها قال عليه الصلاة والسلام « الدين النصيحة » قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال « لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » فالنصح لله أن نتبع أمره ونجتنب ما نهى عنه ، والنصح لكتابه ، أن ينفذ أحكامه وشريعته وأن يتلوه ، وأن نقوم بحقه .

والنصح لرسوله ، أن نصدق كلامه وأن نعمل به ، والنصح لأئمة المسلمين أن نرشدهم إلى الحلال والحرام ، ونحذرهم مما لا ينبغي ، والنصح لعامة المسلمين من هذا القبيل ، فالنصيحة أن نتقدم بالخبر الصحيح ، أو بالارشاد الحق ، إلى من يملك الاصلاح وأما النسيمة بأن ننشر السوء عن واحد أو عن جماعة بقصد الإساءة والهدم والتدمير ، فالنسيمة حرام والنصيحة فريضة على المسلمين .

التماس العذر للآخرين : ومن أدب السلوك في الجماعة ، إتهام النفس والتماس العذر للآخرين ، فيجب أن نحب للناس ما نحب لأنفسنا ، ونكره لهم

ما نكره لها، ونفترض في غيرنا أنهم عقلاء، أو أنهم يحبون الخير و يعملون له ، حتى لو رأينا أنهم أخطأوا السبيل .

فذلك أعون على بقاء الصلة ، ورجوع الشاردين إلى الصف .

المواساة: فإن الأخوة التي أشرنا إليها، يجب أن تتأكد وتثبت بالبراهين العملية ، وأهمها التكافل والتعاون والمواساة، يقول صلى الله عليه وسلم « انكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم » .

الانشغال بالجماعة والارتباط بها: إن العمل الحزبي والديني يختلف تماماً عن العمل الجهادي الرباني، فهناك يكفي للعضو أن يدفع مالا أو يكتب مقالاً، أو يعلن رأياً، أما في العمل الإسلامي، فالأمر كما قال الله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » إذن فالأمر يختلف تماماً وعلى عضو الجماعة أن يبذل من جهده وأن يضحي بوقته .

فلا يبخل على الجماعة بوقته ، قد يختار الرئيس مؤهلاً من جميع النواحي، غير أن لا وقت له ، وهو شديد المشغلة ، وهذا الرئيس لا يصلح ، لأن الوقت شرط في السلوك في الجماعة ، ومن لم يعطها من وقته لا يعطيها من ماله ، ولا يعطيها من نفسه أيضاً ، فالتضحية تكون بالمال والنفس والوقت .

أخطاء وتصويبات

أولاً التسرع في الخصومة:

من الأشياء الخطيرة بالنسبة للسالكين في جماعة ربانية، سرعة وقوع الخصومات بينهم ، وهذا غالباً ما ينشأ بسبب الغيرة على الحق، بدليل أن الأعضاء في الأندية الترفيهية نادراً ما تنشأ بينهم خصومات، إذ ليست لهم دعوة، ولا ما يغارون عليه، والله تعالى لم يترك العاملين له دون تقويم أو تربية، فأنزل إلينا ما يمنع الشقاق والعنت، وجعل حب الإيمان وأهل الإيمان مقدماً على حب الحق الاعتباري، أو الحق الاجتهادي، تأمل قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا؛ أن تصيبوا قوماً

بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ؛ واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ؛ ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم . وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون » .
ولذلك ينبغي اعتبار سرعة الغضب وسرعة الخصومة « حتى لو كانت لأجل ما نسميه مصلحة الدعوة » ، من الأمور الخطيرة على الجماعة .

و يتصل بذلك إهمال الإصلاح بين الأعضاء ، فرب تدخّل كريم يصلح بين أخوين ، ويقضي على الخلاف بينهما . يقول صلى الله عليه وسلم « ألا أن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » .

ثانياً : احتقار العلم أو التدين عند الآخرين :

ولما كانت الجماعة تضم أنواعاً من الناس ، منهم العالم وقليل العلم ، ومنهم العابد وضعيف العبادة ، ومنهم الغني والفقير ، فلا ينبغي لمن ميزه الله بشيء من هذه النعم ، أن يظهر أو يبطن الاحتقار لمن هو دونه فيها . فقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيراً منهن » .

ومما يؤسف له ، أن بعض العلماء وبعض العبّاد هم الذين يسببون الخلاف والانشقاق في الجماعات ، مما قد يستعصي علاجه أحياناً .

ثالثاً : الارتباط بالأشخاص دون الجماعة :

وقد يحصل أن تنشأ جيوب في داخل الجماعة ، بسبب القرابة العصبية ، أو بسبب التلمذة أو المشيخة ، أو بسبب أوضاع جغرافية وتاريخية واجتماعية مختلفة ، وربما تشكل العلاقات الخاصة جيوباً تؤذي الجماعة ، خصوصاً لو تهيأ للمسؤولين عن هذه الحلقات ما يخالف الإجماع أو نهج الجماعة .

والمفروض أن يكون الولاء لله ، والارتباط على الله ، والحرص لا يكون إلا على الكيان العام ، لأن مثل تلك المشاعر تمت بسبب إلى الجاهلية الأولى .

رابعاً: أسلوب النقد:

هناك فرق بين النقد والتجريح، وفرق بين النقد الذي يقصد به الإصلاح، والذي يقصد به الهدم، وقد يختلط ذلك على بعض الناس، فقد كانت هناك مثلاً بعض السلبيات في طرق التدريس في الجامع الأزهر، وكان يمكن أن تعالج بالموعظة الحسنة؛ ولكن بعض الدول الأجنبية، التي كانت ترى الكثير من جهاد الأزهر ضد استعمارها، وجدت أحد الحاقدين على الأزهر فزودته بأعلى الشهادات العلمية، وزوجته من عندها وحضرته تحضيراً كاملاً، ليكون أداة هدم للأزهر وعلوم القرآن، وقد انخدع الناس فلم يفتنوا لهذا الأمر، إلا بعد عشرات السنين.

إن النقد الصالح هو الأمر بالمعروف و يكون برفع الأمر لمن يملك الإصلاح، مع نية صالحة وبراءة من الظلم والبغي، وحفظ لأقدار الناس.

خامساً: الاتجاه لفرع واحد:

ومن أخطار العاملين في الجماعات، أن يزينوا لأنفسهم فرعاً واحداً من فروع العمل الإسلامي، ويبالغون في العمل له، وينسون باقي الجوانب. فإن كان ذلك قد عمل على أساس التخصص فيما يحسنه المرء، مع التسليم ودوام التذكير بباقي جوانب العمل الإسلامي، من اقتصاد وقوة، وعبادة وعلم، وتكافل وسياسة، وأخلاق وتعليم ونحوها، فلا بأس من ذلك. أما إذا ظن أن هذا الركن الواحد هو كل ما يطلب من المسلم فقد أساء فهم الإسلام، وأصبح خطراً من الأخطار لأنه تكذيب لنصوص القرآن التي تفيد أن الله ما فرط في الكتاب من شيء.

سادساً: الاكثاب والتقوقع:

وبالنظر إلى ما يرى الداعية وعضو الجماعة من المآسي التي تنصب على المسلمين في كل مكان، فمن الطبيعي أن يرى مهموماً حزيناً، كما قال الشاعر:

أنى التفت إلى الإسلام في بلد تجده كالطير مقصوصاً جناحاه

لكن الواجب على الداعية المسلم أن يبشر ويستبشر، إذ لا يأس من رحمة الله، قال تعالى «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً» وأن يدفعه الأمل في الله إلى مضاعفة العزيمة وتوقع النصرة. أما إذا أدى هذا الحزن الدائم إلى الاكتئاب والتفوق، والعزلة عن ميادين النشاط، فيكون قد أضر بالدعوة ونفّر الناس من حوله.

سابعاً: الاعتزاز بالرابطة:

وبعض الناس يشعر بسعادة غامرة، أن الله هداه إلى تلك الجماعة، وفرح بما جاءه من العلم، فظن أنه قام بالواجب، طالما هو يتردد على ساحاتها، ونراه قد أهمل الكثير من الحقوق المتعلقة به شخصياً، حق الأهل والأولاد، وكحق العمل وحق الوالدين والأقارب، وحتى حقوق الله التي يؤديها غيره من عامة الناس. وفي مثل ذلك يقول القرآن الكريم «إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور»، إنما عليه إذا كان في أجواء الجماعة أن يبتكرها، ويعمل على تقدمها في خارج أجوائها، ولا ينسى شيئاً من الحقوق المنوطة به سواء بالنسبة للناس أو لرب الناس.

والحمد لله رب العالمين

(الدعوة إلى الإسلام)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين أما بعد فهذه المحاضرة عنوانها الدعوة إلى الله تعالى .

فما معنى الدعوة؟

الدعوة هي الاجتهاد في نشر هذا الدين ، وبيان جماله ومعالمه للعالمين ، حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وحتى يتم نشر التوحيد ، والإسلام والهداية ، والشريعة والنظام ، الذي جاء به هذا الدين العظيم ، إعزازاً لدين الله ، واعترافاً بنعم الله علينا ، حيث جعلنا خير أمة أخرجت للناس — إذن لماذا ندعو؟

نحن ندعو لتنفيذاً للأمر الإلهي الذي قال فيه «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» وتنفيذاً للأمر الإلهي في قوله تعالى «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً» ، وقال انني من المسلمين» فصلت ٣٣ وللأمر الإلهي في قوله تعالى «لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» النساء ١١٤ .

والدين هو أعظم المعروف الذي يقدم للبشرية ، حباً للناس وحرصاً عليهم ، وإقالة لهم من عثرتهم ، وسوقاً لهم إلى صراط الله المستقيم ، نحن ندعو إلى الله تنفيذاً لهذه الأوامر الربانية — والذي أحب هذا الدين وتعشقه وآمن به ، وامتلاً قلبه بنور الإسلام ، لا يتوقف عن ذلك طوال حياته ، فهو عامل من عمال دين الله على مسيرة العمر كله .

على أن هناك بعض الأمور الدنيوية أيضاً ، تدعو الإنسان لأن يسير في هذا الطريق ، كنوع من أنواع الإصلاح الاجتماعي لأن الثقافة الضارة التي سادت

العقول ، وعمت المدارس والمعاهد ، وكان أكثرها من معسكرات عدوة لنا ؛ لا بد لنا أن نواجهها وأن نصححها بصوالح معيشتنا وأمننا وأرزاقنا فلا يجوز أن نظل في موقف المدافع عن عقيدته ووطنيته فقط ، دون أن نقوم بعمل إيجابي حتى نحيا بسلام ... وقد قال الله عز وجل « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » الأنبياء ١٨ .

لقد كان من آثار تلك الثقافة الأجنبية حصول اليأس من النهوض ، وبخاصة في الدين ، كما كان الغرور والغفلة والانصراف عن منهج الله عز وجل ، والاستمتاع بحطام الدنيا ، دون نظر إلى ما خول الإنسان ، والانغماس في الترف والمعصية ، والافتتان بالأقوى والتشبه به ، والتطاحن على ذلك الحطام — الأمر الذي زاد المسلمين ضعفاً بعد القوة التي كانوا يتمتعون بها — إذن نحن ندعوا إلى الله مدفوعين بعاملين كبيرين :

العامل الأول هو: تنفيذ أمر الله وطاعته ، فيما أشار إليه من أوامر وأحكام .

والأمر الثاني: إصلاح حال الدنيا وحال الناس ، حتى إذا لقوا ربهم يرجى لهم أن يكونوا سائرين على طاعة الله سبحانه وتعالى .

وهناك مفاهيم ضرورية لازمة لمن يريد أن يتجه إلى هذا الميدان الكريم .

منها أنه لا بد من توفر الحماس وشرح الصدر ، كما قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام عندما كلفه ربه بمثل هذه المهمة ... قال : « رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » — ذلك لأن المهمة طويلة وشاقة ، ودونها مصاعب جمة — فالذي لا ينشرح صدره ، ولا يتزود بطاقة من الحماس قد يقف في وسط الطريق — أو قد يناله اليأس والهمل — فيقع عن مواصلة الجهد .

الأمر الثاني: أنه واجب لا تطوع .

فليس لأحد فضل إلا الله ، لقوله تعالى « يَمُتُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا

تمنوا عليّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين» الحجرات ١٧ إن الله الفضل والمنة، وهو الذي أكرمنا بهذه الهداية، فنحن ندفع ضريبة الهداية واجباً علينا لله رب العالمين — على أن هذا العمل هو أرقى الأعمال على الإطلاق — فهو رسالة الأنبياء التي كلفهم الله بها، والأنبياء أعظم قدراً من الملوك، ومن سادات الدنيا وهم حملة النور الذي أنزله الله من السماء لأهل الأرض.

ومن المفاهيم التي يجب أن تستقر في الأذهان أن هذه الدعوة هي دعوة إلى الله وهو صاحبها الذي ينجحها أو يؤخر نجاحها — وما نحن في هذا الطريق إلا وسائل، وجنود وعبيد، فلا يتصور أحد أن هذه الدعوة قد نجحت بجهوده أو أنها أخفقت بسبب جهود غيره — إنما علينا أن نجتهد، وأن نسدد ونقارب — والله هو الذي ينصر من يشاء، قال تعالى «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» غافر ٥١.

ومن المفاهيم الضرورية أيضاً، أن الدعوة لا يمكن أن تحصل بجهد شخص واحد مهما كانت قوته ولكن الجماعة ضرورية لقيام الدعوة واستمرارها — وإذا كانت الجماعة لازمة لقيام الدعوة، كان السلوك في الجماعة بما له من أدب وطرائق من الأشياء الضرورية لحفظ الجماعة، لأنه إذا انفرط عقدها انفرط عقد الدعوة الذي قامت الجماعة به.

ومن المفاهيم الضرورية أيضاً — وجود التوافق النسبي بين حالة المدعوين والأمر الذي يعيشون عليه، وبين ما نحب أن نوجههم إليه — فإن اتيان الناس بالفرائب أمر خطير النتائج. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «حدثوا الناس بما يعلمون. أتحبون أن يكذب الله ورسوله»؟

والحكمة لها مدلولات كثيرة، ومن المفاهيم الضرورية أيضاً أن توطن العزم على الصبر والمصابرة في هذا الطريق، لأنه طريق شائك محفوف بالمهلك؛ مصداق قول الله تبارك وتعالى «ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا. وليعلمن الكاذبين» العنكبوت ١، ٢، ٣.

ومن المفاهيم الضرورية أن القدوة الصالحة لازمة للداعي — فيحاول الداعية أن يلتزم بالعبادات، وبفرائض الله، وأن يواظب عليها، وأن يكون على درجة من التوكل على الله، والزهد والانصاف مع النفس ومع الغير، مع الاعتدال في المشرب والمأكل والملبس، وفي كلامه وهيئته، وكل ما يتصل به — فإن الإسلام هودين الوسط قال الله تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً؛ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» البقرة ١٤٣ ثم إننا نحن البشر مقلدون لا مبتكرون، فليس الدعوة دعوتنا، وليس الفكر فكرنا وإنما هو تنزيل من حكيم حميد.

ومن أهم ما يلزم للداعية كذلك أن يجتهد قدر الاستطاعة في أن يقلد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقول الله تعالى «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً» وقوله تعالى «لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنثكم، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم» فالرسول صلى الله عليه وسلم قدوتنا، ونحاول أن نعمل كما عمل ونسلك الطريق الذي سلك، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها — والذي لا يقلد رسول الله لا يتبع السنة — والذي لا يتبع السنة إنما هو مفارق لحقائق الإسلام — والمسلم العاقل الفاهم ينظر إلى هذه الكثرة الكثيرة من البشر ما بين طالب كسب وطالب شهوة وطالب معيشة على أنهم على غير هداية، وأن الذي أوتي الهداية هو وحده الذي يعمل لحساب الله. قال تعالى «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» وقال تعالى «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين» فصلت ٣٣.

فالدعاة إلى الله هم أحسن الناس قولاً وعملاً، أما الذين لا يبتغون هداية الله فقد وصفهم القرآن بأنهم أضلّ من البهائم، قال الله فيهم «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس، لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم أذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون» الأعراف ١٧٩ — نسأل الله ألا يجعلنا من الغافلين.

ننتقل الآن إلى الكلام عن السلوك في الجماعة هذا الأمر ينقسم إلى عدة أقسام فالتربية العملية هي الأساس، وليس الكلام كافياً لأن ينقل الناس من ميدان إلى ميدان، وهذا هو الخطأ الذي يرتكبه كثير من الوعاظ والدعاة، فيظن الواحد منهم أنه عندما يلقي المحاضرة فقد أدى الواجب المطلوب منه — وليس الأمر كذلك — نحن نحاول أن نربي جيلاً على حقائق الإسلام — والتربية عملية دقيقة، تخضع لاعتبارات عدة، منها توثيق الصلة الشخصية بين الداعية والمدعوين — فللدعوة الفردية آداب وخصائص يمكن أن ندرسها على حدة، وهي التي بدأ بها الأنبياء، وتربى بها الرعيل الأول من الحواريين والأصحاب. ثم عندما اقتنع هؤلاء تولوا هم نشر الدعوة، وتوسيع الدائرة، حتى ظهرت الرسالة للعالمين. قال تعالى «محمد رسول الله والذين معه أشد على الكفار رحماء بينهم» وقال تعالى «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة، لنغرنك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً» يعني لنسلطن أصحابك عليهم وقال تعالى «من المؤمنين رجال صدقوا ما عدهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً» الأحزاب ٣٣ قال رجال والصحابه والحواريون وأتباع الدعوة، كانوا دائماً حول الرسل — كانوا هم أجهزة التبليغ والاعلام والدفاع.

الدعوة الفردية:

ثم إن الدعوة الفردية مباركة لأنها تخلو من الرياء في أكثر الأحوال، وهي التي تستمر بها الدعوات في أحلك الظروف، ومع أقسى الأمر الظالم، ومن خلال العهود السوداء لا تتوقف الدعوة الفردية أبداً.

وأما الدعوة العامة فيمكن استعمالها كلما أتيج للإنسان من الظرف المناسب — أو إذا وجد التجمع المناسب وكان هو قادراً على مثل هذه المواقف وهي التي لا تقل أهمية عن الدعوة الفردية، ولكنها تحتاج لاستعداد معين من الداعية، ولظروف معينة يتدرب عليها.

ومن وسائل التربية كذلك:

نشر الكتب والرسائل ، فإن بعض الكتب فيه تلخيص جميل للمعرفة ، مع سهولة التناول والتبادل ، ونختار من الرسائل التي توضح رسالة الإسلام ، ونشرحها بيسر وتحديد ، وقد يطلب من بعض القادرين أن يسهموا في توزيعها ، لتحل محل الكتب التي لا تهدي إلى خير ولا تنفع شيئاً .

وللتعرف على الكتب النافعة يستشار أهل الرأي والخبرة .

ومن الوسائل النافعة كذلك استمرار الزيارات ، وتعميق أواصر المودة بين المؤمنين ، ولا ينتظر الداعية من الآخرين أن يأتوا إليه في مكانه ، ولكن يسأل نفسه لماذا لا يذهب هو إليهم ، وكما يقولون في « الحركة بركة » فانتقل وتحرك بقدر ما تسمح لك الظروف — كذلك من الوسائل المهمة في نشر الدعوة .

المشاركة والتكافل بين الأخوة والزملاء في أعمال الدنيا .

فقد نشارك اخواننا في التجارة ، أو نشاركهم في الجهد الذي يشق عليهم ، كل ذلك في حدود الصدق والأمانة ، فهذا ما يثبت المحبة في الله ، ويبرهن على التعاون المثمر .

ومن الوسائل كذلك الارتباط بالمصاهرة فقد أظهر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم إلى بعض ، حتى مع فارق السن فقد تزوجت الصغيرة من الكبير وتزوجت الكبيرة مما هو أصغر منها ، لم يكن الاعتبار اعتبار الشهوات ولا اعتبار التأنيق في الاختيار ، بقدر ما كان الاعتبار الأكبر هو ربط المسلمين على وحدة جامعة ، وأخوة عامة ، وعائلة واحدة ، فالمصاهرة توسع دائرة الأهل — قال تعالى « واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري » طه ٢٩ / ٣٢ .

ومن وسائل الدعوة العناية بالرسائل والخطابات .

وبها يتم تبادل النصيح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالخطابات عظيمة الفائدة . ومحسن أن تكون رسالتك لأخيك أو ردك على رسالته درساً في

التربية بشرط أن يتم ذلك في ظل الحب والأخوة، وبالطريقة التي لا تجرح ولا تشعر باستعلاء.

ومن الوسائل أيضاً القيام بالأعمال النافعة، من إنشاء المدارس للعلم النافع، وتحفيظ القرآن الكريم، وكذا إنشاء المؤسسات الخيرية، ودور الرعاية الصحية، وغيرها من أعمال البر والخير، فإنها تنفع الناس، وتربط القائمين عليها في تعاون مشترك قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون».

ومن ذلك السياحة والرحلة، كزمانة الحج، ورحلات نشر الدعوة، وحتى النزهة الخلوية، فإن لها من الآثار الطيبة ما يوفر الذكريات الجميلة في مثل هذه المناسبات، ويعرف الأخوة بعضهم ببعض بشكل أفضل، والتعارف من أسرار الوجود، قال الله تعالى «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» الحجرات ١٣ ومن ميزة التعارف والأخوة في الله أنها تقلل من وقع النصيحة على النفس فإن النصيحة مرة، وقليل من الناس من يحتملها، إلا أن كان هناك تعارف سابق يمنع الحساسية.

ومن الوسائل أيضاً بذل المعروف وتقديم الخير، خصوصاً المساعدات المالية والعينية والهدايا، قال عليه السلام: «تهادوا تحابوا» أي إذا تهاديتم وقعت بينكم الألفة والمحبة، فكل ذلك يعالج ما عسى أن يقع من جفوات بين الناس في حياتهم اليومية، كلفظ ناب أو تعبير غير مقصود، ربما يؤوله الجانب الآخر على غير وجهه ولا يبيده لأخيه، فتكون الزيارة والهدية مما يداوي جراح القلوب.

هذا... ومما يدعو للتوفيق في أداء رسالة الإصلاح، أن يدرك الداعية ما في المجتمع من سلبيات ونقائص، فهذا الإدراك يوفر للداعية زاداً من الهمة والنشاط ويوفر عليه احتمالات الخطأ.

ثالثاً: إن حركة الإصلاح لا ينبغي أن تكون مصادمة للأعراف التي ألفها الناس، نعم أن التغيير يعني المخالفة، ولكن الرفق مطلوب، فيحسن التدرج حتى تجدد عدداً من المؤمنين بما تقول لكي يقوموا بعد ذلك بحماية الدعوة

واستمرارها — ثم إن القوة في الدعاة المخلصين تكون في الروح أكثر مما تكون في البدن فإنك ترى المؤمنين يسارعون إلى تلبية مطالب أرواحهم ، من حيث لا يببالون بما تتطلبه الأجسام من راحة أو شبع ، أو لذة أو عناء ، وبهذا تنتصر الدعوات .

وإن على الداعية أن يجتمع باخوانه في أوقات دورية ليزودهم بالإرشاد ، وليعلمهم طرق الدعوة ، وأساليبها وآدابها — ويحسن بالداعية أن يبدأ بأقربائه ، فيبلغهم و يبصرهم لقول الله تعالى لنبيه عليه السلام « وأنذر عشيرتك الأقربين » الشعراء ٢١٤ .

وليحذر كل منا الاستعلاء على غيره بعلم أو جاه أو مال ، لقول الله تبارك وتعالى « واخفض جناحك للمؤمنين » الشعراء ٢١٥ .

هذه ملاحظات عامة في أصول الدعوة ولا بأس أن نشير إلى بعض أخطاء الدعاة ، ذلك أن بعضهم يهتم بركن واحد من أركان الدين ويترك باقي الأركان ، وربما يستنفد طاقة الوعظ والدعوة في هذا الأمر الجانبي الفرعي وحده بينما كان غيره أولى وأهم — وعلى الداعية أن يعتمد إلى أهميات المسائل ، كتصحيح أمور العقيدة ، ومعاني التوحيد ومفاصل الأمور — ثم تأتي بقية الأشياء تبعاً لتلك الأصول .

ومن الخطأ كذلك الانعزال عن المجتمع ، فتقع الجفوة المتبادلة بينهم وبين غيرهم ، وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجب في هذا الشأن بقوله : « إن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » .

ومن أخطاء الدعاة أن يرموا غيرهم بالجهالة ، و يتهموهم بقصر العلم وقصر العمل ، فإن قلة العلم صفة عامة لجميع البشر قال تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ومع التسليم بأن بعض الناس أعلم من البعض فلا يجوز مواجهتهم بذلك / لأنه من الغيبة والتجريح الذي لا يجوز .

ومن أخطاء الدعاة أن يظهروا بمعارضة أهلهم وذويهم ، فيفقدون بذلك

سنداً اجتماعياً ويعيرهم الآخرون بالتناقض ، أو بالعجز عن كسب الأقربين .

ومن الخطأ كذلك العناد وعدم قبول الحجة الواضحة ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، وأشدهم بها فرحاً — ثم أن حدة اللسان خطأ كبير، قال تعالى «وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم» وفي هذا تحذير من حصول شر جديد. فبعض مظاهر التقوى لا تصدق على من تظاهروا بها ، كما أن بعض المظاهر الأخرى لا تمتنع من وجود الخير في أهلها/ قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»

ولا بد من توجيه العاملين في هذا الميدان المبارك إلى ضرورة الأمل في الله وحسن الظن به ، والاستناد إليه ، في صغير الأمر وكبيره «فهو القوي العزيز، وهو العليم الخبير» «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» يونس ٩٩ .

هذا ولا ينبغي الأسف والتحسر بسبب قلة الاستجابة من الناس ، فإن الله قال لنبيه «فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً» الكهف ٦٠ أي لا تتضايق ولا تتألم نفسياً إذا لم يؤمن هؤلاء — ومهما أصاب الداعية من أذى أو ملاحقة أو إهانة فليكن ذلك هينا في جنب الله — والأمل في الله هو العزاء من كل فائت وهو القوة لكل عامل وينبغي أن نجعل الدين للواقع — فيضع الداعية في حسابه صوالح الأحياء التي تلح عليهم ، فهذا التاجر الذي أقفل دكانه وحصر للصلاة — لا ينبغي أن نحبسه طويلاً .

وبالنسبة لعملية تصحيح الأخطاء المنسوبة للدين : يجب أن ندرس مزاعم الآخرين ونجهز الرد المناسب عليها ، ومنها شبهات الطلاق والرق وتعدد الزوجات والجهاد وأحكام الميراث ومكانة المرأة ... ويحسن بالداعية أن يوضح الأحكام الخمسة في الفقه الإسلامي .

والتعميمات قليلة الجدوى — فإن قلت للعامة «عودوا إلى كتاب الله» يقولون لأنفسهم ومتى فارقناه؟ وكيف يريد منا أن تكون تلك العودة .

كذلك في قضايا التحكيم ... لا بد من الجرأة في أن نقول للمخطيء أنت المخطيء — ويكون ذلك بكل وسيلة ممكنة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

والمنكرات في هذه الأيام صارت أكثر من أن تحصى. تأمل يا أخي ما يشاهد ويسمع ويقرأ في شتى وسائل الاعلام — في كل البلاد الإسلامية تقريباً ... إن الاتفاق على هذا الباطل يلفت النظر مصداق قوله تعالى «أتواصوا به ... بل هم قوم طاغون».

بالأمس كنت أشاهد قصة تمثيلية — وهي لا تكاد تخرج عن مضمون عشرات القصص قبلها. إنها فتاة والدها رجل عليه سيماء الصلاح ويصلي من حين لآخر ... لكنه يظهر بمظهر المعاند الغبي ضيق العقل كثير الانفعال ... وهي تحب شاباً منحرفاً تافها وتصر على الزواج منه — والوالد يرفض وأخيراً ينتصر الحب ويهزم الوالد ... ويأتي هذا المنحرف ليسوق الحكمة للوالد المتدين!!

وقصة أخرى تظهر فيها الزوجة جميلة مظلومة وزوجها كثير الغياب عن المنزل — وهي من ورائه تعشق رجلاً آخر — يظهره مثلاً للأناقة واللفظ ... والزوج المستقيم الحريص على بيته يبدو معرقلاً لهذا الحب الشديد ... ويشعر الناس جميعاً بأنها مؤامرات على الحياة الزوجية ودعوة للفجور ... ولكن ليسأل الدعاة أنفسهم ... ماذا فعلوا مما يحسن تقديمه لهذا الآلات الإعلامية الجبارة؟

لماذا لا ننتج القصص الجيدة ووسائل الترفيه الحسنة التي تسعد كل إنسان حيثما كان. إن الوقوف في وجه هذا الانحدار الثقافي ضرورة، وهو من الجهاد في سبيل الله ... وقد يقال أنه يرفض في البداية ... ولكن إذا كثر الانتاج / وكان هادفاً جيد الصنعة، فسوف يغلب الشر — قال تعالى «فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

نسأل الله أن يبارك حياتنا وجهودنا ويستخدمنا لدينه حتى نلقاه والحمد لله رب العالمين.

(تقويم البلدان)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، أما بعد .

فهذه المحاضرة عنوانها (تقويم البلدان) أو ما يسمى بعلم الجغرافيا وهو علم مهم ، لا غنى لأي متعلم عن الاحاطة به ، وله أقسام كثيرة ، فهناك الجغرافيا الطبيعية ، التي تشمل رياح وأمطار ومناخ كل بلد ، من درجة الحرارة والبرودة ، إلى الأنهار والجبال ، وطبيعة الأرض ... وهناك الجغرافيا السياسية ، وهي الأقسام السياسية أو الحدود ، التي تقررت لكل مملكة ودولة ، وما يفرقها عن الأخرى ، (وغالباً ما تستند الحدود السياسية إلى معالم طبيعية ، كالجبال والأنهار) وهناك الجغرافيا الاقتصادية ، وهي جغرافية الموارد التي تبحث في أمور المعادن والمناجم ، والزراعة والثروات في كل بلد ، والقطع المنزرعة ، والبحار والثروات من كافة نواحيها ، وهذه أيضاً تعتمد على الجغرافية الطبيعية ، وهناك علم الجولوجيا (أو علم طبقات الأرض) وما فيها من كنوز كالبترول والمعادن الموجودة تحت سطح الأرض أو فوقها ، ويتصل بهذا مسألة البراكين والزلازل . كما أن هناك جغرافية الأجناس وهي التي يعرف بها الإنسان كيف يميز بين الأجناس ، والعروق والأقوام ، فهذا الجنس الأصفر الياباني والصيني ، والجنس الأسود كزنوج أفريقيا ومعظم سكان المناطق الحارة الاستوائية ، وكذلك الجنس الأبيض وهم أهل أوروبا وشمال آسيا وجنوب أمريكا ، وسكان القطبين ، والجنس الأسمر أو الجنس النحاسي وغيرهم من الأجناس التي خلقها الله ، فقد اكتشفت علامات مميزة لهذه الأجناس ، يستطيع الإنسان بدراستها أن يحكم على الإنسان الذي يلقاه بمجرد النظر إليه إلى أي جنس من تلك الأجناس ينتمي ، وقد تسمى الجغرافيا البشرية ، وهناك جغرافية السكان ، أيضاً ، وهي تبحث في الكشافة السكانية ، وتوزيعها على رقعة الأرض المعمورة ، وهناك جغرافية

المواصلات ووسائل النقل البرية والبحرية والجوية والنهرية، وكيفية الإتصال بين الناس... هناك الجغرافيا الفلكية، (أو علم الفلك) وهو يبحث في الكواكب والسيارات التي تراها بالليل والنهار. هذه الأرض التي نعيش عليها شيء عظيم وهي آية من آيات الله تعالى.

وقد أشار الله إلى ذلك في القرآن الكريم حيث قال «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» ق ٧ - ٨. فالأرض مخلوقة بدرجة حرارة معينة، أو درجات حرارة متفاوتة، وكل درجة موزونة وكل إقليم يسكنه ناس لهم مميزات خاصة، كما أن بعد الأرض عن الشمس بعد موزون ومقدر بقدر الله، بحيث لو اقتربنا من الشمس قليلاً لاحترقنا، ولو ابتعدنا عنها قليلاً لتجمدنا، ولهلك من على الأرض. ثم أن الأرض تسبح في الفضاء كما تسبح كل الكواكب والسيارات، قال تعالى «وكل في فلك يسبحون» والنجوم كذلك في مساراتها لها أماكن تدور فيها، ومواقع محددة لها، والله تعالى يقول «فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم» الواقعة ٧٥ - ٧٦. فلم يعد يليق بمسلم أن يعيش في حدود بلده أو أقليمه أو محافظته، ثم يتصور أن تلك هي الدنيا، إن الدنيا في وراء ذلك، آمال شاسعة وأشياء ممتدة، «ولله ملك السموات والأرض». «ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» النحل ٤٩ - ٥٠.

إن الأرض فيها أسرار كثيرة جداً، ولقد دعانا الله إلى النظر فيها بقوله، (قل سيروا في الأرض فانظروا) العنكبوت ٢٠. وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) يونس ١٠١. وقال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون) الذاريات ٢١ - ٢٢.

والآن نتكلم عن الجغرافيا الطبيعية.

ونحن نعرض الآن نبذة قصيرة لمجرد التعريف بالعلم كمدخل للبحث،

ولكننا لا نستطيع أن نضع هذه العلوم التي شغلت الناس مئات السنين وملأت الآلاف من المجلدات لكي نستعرضها في هذه العجالة إنما هو تذكير بأهمية البحث، ولكي ينشط القادرون على مواصلة طلب العلم... إن الجغرافيا الطبيعية تبدأ بكلمة الحرارة، طبعاً كل شيء من الله . والشمس والقمر والنجوم والشجر، والدواب والماء والطين والمعادن، وكل شيء إنما هو من خلق الله تبارك وتعالى، ولكن لا بأس علينا أن نبحت لنهتدي إلى بعض القوانين التقريبية التي نستدل منها عن سر الوجود والحياة، مع التسليم بأن القدر الأعلى من الله وهو يغير كيف يشاء ويحكم ما يريد .

يقولون أنه تتسلط حرارة الشمس على مياه المحيطات الواسعة . ومعلوم أن المحيطات جزء من الأرض وهي تمثل ثلثي مساحتها أو ثلاثة أرباعها، فيتبخر قدر من مياه البحر، ويرتفع في الجو، فإذا ارتفع في الجو برد وتكاثف، وانعقد سحاباً . ثم يرسل الله الرياح فتسوق هذه السحب إلى حيث يوجد الضغط الجوي الأخف، أي أن السحب تتجه من مناطق الضغط الثقيل إلى مناطق الضغط الخفيف . (البارد ثقيل والحر خفيف) فإذا صادفت جبلاً أو أجساماً باردة انعقدت ماء، ثم تساقطت أمطاراً على سفوح تلك المرتفعات الباردة، هذه أول قاعدة .

وعندما ينزل المطر (بإذن الله) من السماء ينتشر على الأرض، وتحفظ التربة جزءاً آخر في شكل قنوات صغيرة تتجمع وتتبع الأقل انخفاضاً، ثم تكون مجاري الأنهار، فالنهر له شعب مختلفة هي الروافد، ثم تتجمع كلها في مصب أو أكثر إلى حيث ينحدر الماء أكثر الأماكن انخفاضاً على الأرض وهو مستوى البحار أو البحيرات، لأن البحار كلها في مستوى واحد تقريباً وتقاس ارتفاعات الأرض اليابسة بالنسبة لسطح البحر لأن مستواه ثابت . إذن تتكون روافد الأنهار وقد تجمع فيما بينها بعض الجزر، يدور حولها النهر من يمين ومن يسار، وتبدأ الحياة تدب، وتنمو النباتات والشجيرات، بزراعة منظمة أو طبيعية على جوانب هذه الأنهار والجبال التي تشبعت بالماء، فنبت فيها العشب إذا كانت صالحة لذلك، وهناك جبال جرداء لا تأتيها كميات من المطر أو صخرية صلبة، لا

تمسك ماء ولا تنبت شيئا، وهناك جبال تفتت مع مرور السنين، وأصبحت تربتها طينية ناعمة، بنبت عليها العشب، بدأ الأبقار والمواشي ترعى على العشب الذي ينبت على سفوح الجبال، ويعيش الناس هناك يشربون من ألبانها، ويلبسون من جلودها وأشعارها وأوابارها، كما ذكر القرآن الكريم في قصة الحياة «والله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا، فسقناه إلى بلد ميت، فأحيينا به الأرض بعد موتها، كذلك النشور» فاطر ٩.

هذه قصة الحياة، والجغرافيا تؤيد هذا، لأنها من العلوم الثابتة التي تقررت بتجارب السنين الطويلة/ الرياح كما قلنا تتحرك من مناطق الضغط الثقيل إلى مناطق الضغط الخفيف وهذه المناطق ليست ثابتة فقد يكون الضغط ثقيلًا على بلد ما في هذا اليوم ثم يصبح خفيفاً غدا/ ومن ذلك ينشأ نسيم البر والبحر.

هذه الخطوط العرضية عظيمة الأهمية في تصور الجغرافيا يقولون: أن الشمس تعتمد على خط الاستواء مرتين في العام ثم على مدار السرطان مرة واحدة وعندها يراها سكان الدائرة القطبية الشمالية مائلة قرب الأفق، وأن درجة الحرارة قليلة هناك جداً، أما عن منطقة مدار السرطان، فهي أكثر اعتدالاً.

أما خط الاستواء وما عليه من البلاد المرسومة والتي يصيب مرورها خط الاستواء، فهي مناطق حارة ممطرة مليئة بالرطوبة طول العام، ومدار الجدي كذلك منطقة معتدلة جنوبية مثل مدار السرطان والدائرة القطبية الجنوبية، دائرة شديدة البرودة وهذا يصدق الواقع، فإذا أنت ذهبت إلى القطب الشمالي فتجد أن الحياة هناك باردة جداً، والأرض متجمدة معظم العام، والشمس تغيب أحياناً ستة أشهر لا يراها أحد، ثم تظهر قريبة من الأفق ستة أشهر أخرى لا تغيب، والناس هناك يعيشون على صيد الأسماك، ويشربون من البان حيوان الرنة، ويعيشون عيشة قاسية، لأن بيوتهم مصنوعة فعلاً من كتل الجليد، وتندرج البرودة إلى الأقل كلما تقدمنا جنوباً، نحو مدار السرطان فتأتي المنطقة المعتدلة الشمالية، وتقع فيها كل أوربا واليابان وجزء من الصين والولايات المتحدة وجزر الفلبين وبعض آسيا وباكستان ومصر والشمال الأفريقي، وبلاد

ما حول البحر الأبيض المتوسط وما يوازيها عرضاً في أنحاء العالم . وهي محتملة الجو، باردة باعتدال شتاء ، حارة باعتدال في الصيف .

إذا جئنا إلى منطقة خط الاستواء ، نجد أنها تقع عليها بلاد أخرى مثل جنوب الهند وجنوب جزيرة العرب ، وأواسط أفريقيا وشمال أمريكا الجنوبية ، وجنوبي أمريكا الشمالية ، التي تشمل منطقة المكسيك وكوبا وهذه الجهات وجزر المحيط ، وقدر من شمال استراليا ، هذه المناطق كلها تتشابه في نباتاتها وفي جوها ، فالجو حار فيها معظم أيام السنة إلا ما كان منها على الجبال ، فالجبال المرتفعة باردة ، وأحياناً يتراكم عليها الثلج بالرغم أنها على خط الاستواء ، وتنبت هناك غابات الموز والمانجو والمطاط ، (الكاوتشوك) النار بجيل ، وكافة النباتات الاستوائية المتسلقة على الأشجار الضخمة ، وبها كثير من الطيور المغردة والثعابين والزواحف والوحوش ، فهذه المنطقة الاستوائية أمطارها غزيرة طول العام .

ولقد أصبح الآن معروفاً أنك إذا سمعت عن بلد كذا ، تعرف بمجرد الدراسة الجغرافية الكثير عن سكانا ونباتاتها وحيوانها وجوها .

هذه التقسيمات الجغرافية تفيد كثيراً .

ننتقل الآن إلى ما يسمى بخطوط الطول لقد قسموا هذه الكرة الأرضية أيضاً إلى خطوط طولية من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي وعددها (٣٦٠) خطاً تبدأ من خط الصفر من بلد في بريطانيا تسمى (جرينتش) أو خط التوقيت الدولي ، وهي تفيد في أمرين أساسيين .

الأول : تحديد موقع أي بلد بمساعدة خطوط العرض السابق ذكرها .

الثاني : تحديد الزمن في أي بلد باعتبار أنه بقسمة ساعات اليوم على عدد هذه الخطوط ينتج الفرق الذي يحدد بأربع دقائق بين كل خط طول والذي يليه ، ونظراً لدوران الأرض حول الشمس من الغرب إلى الشرق تضاف هذه الدقائق زيادة كلما سرنا شرقاً ، وتخصم كلما سرنا غرباً ، وهذا الحساب هو المعمول به عالمياً في حساب الزمن والمكان ، حتى الآن في كافة أنحاء العالم .

الخرائط : وقد كان المسلمون أول من رسموا خرائط جغرافية للعالم ، وأول

من قال بكروية الأرض استناداً إلى دلالات القرآن الكريم . ثم توالى رسم الخرائط على نطاق واسع في الوقت الحاضر، مع الاستعانة بالطائرات والحملات الاستكشافية ، والبواخر عابرة القارات ، وكل وسائل المواصلات الممكنة — كما تم قياس محيط الأرض وارتفاعات الجبال ، وأعماق المحيطات ، وعمل المساحات لطبيعية الأرض والأنهار والبحيرات . ثم تنوعت هذه الخرائط فمنها ما يختص بطرق المواصلات ، ومنها ما يختص بتوزيع المحاصيل والثروات ، ومنها ما يختص بتوزيع السكان على سطح الأرض في البلاد ، ومعرفة الكثافات السكانية لكل منها ، ومن الخرائط ما يختص بتوزيع درجات الحرارة والأمطار ، ومنها الخرائط السياسية ، التي تبين حدود كل دولة ، ومنها خرائط توزيع الحيوانات ، ومنها خرائط للمعادن ، وخرائط لمناطق الزلازل والبراكين وخرائط لبيان التيارات البحرية والأعاصير ، ونحو ذلك .

الجغرافيا والاعلام : وتهتم الدول المتقدمة بطبع ونشر الخرائط التي تخص بلدانها بوجه عام ، والمدن الكبرى بوجه خاص ، خصوصاً التي فيها معالم سياحية ، تحتوي على جداول بسير وأرقام الطرق والسكك الحديدية ، وخطوط الانفاق والسيارات والمتاحف ، والعناوين المختلفة المهمة ، وتتباهى تلك الدول بنشر معلومات جغرافية سياحية عما حققت من نهضة وتقدم ، وأصبح المسافر بالبر أو البحر أو الجو لا يستغني عن المعلومات التي يوفرها علم تقويم البلدان ، وهناك خرائط للعالم بجملته ، يستطيع الناظر اليها ، كما يستطيع الذي يتصورها ذهنياً ، أن يحدد مكان مكة المكرمة بالنسبة لموقعه في البلد التي يكون فيها ، وبالتالي يعرف اتجاه القبلة للصلاة بمجرد معرفته بالجهات الأصلية .

الجهات الأصلية : مما تجب معرفته تحديد الشمال والجنوب والشرق والغرب لما لذلك من أهمية في بناء المساكن ومعرفة اتجاه الريح السائدة في الأماكن المختلفة ، ومعرفة قبلة الصلاة ، وإن الله ربط العبادات بدورة الفلك الأعلى ، قال تعالى : **(وعلامات وبالنجم هم يهتدون)** والسييل إلى ذلك معرفة مشرق الشمس أولاً فإن وقف إنسان ووجهه في اتجاه مشرق الشمس تكون جهة الغرب خلفه والجنوب على يمينه والشمال على يساره — ثم تكون الجهات الفرعية تبعاً

لذلك ، وكل ذلك مما لا غنى عنه خصوصاً للمسافرين .

البوصلة : (الإبرة المغناطيسية) لقد اكتشفوا أن هناك مركزاً للجاذبية الأفقية في نقطة واحدة على سطح الأرض ، وهي القطب الشمالي ، وأن الحديد الممغنط (المتأثر بالمغناطيس) ينجذب دائماً نحو القطب الشمالي ، فصنعوا على أساس ذلك آلة صغيرة تسمى (البوصلة) وهي أبرة ممغنطة صغيرة ، تثبت على عمود قائم وتكون حرة الحركة ، فتحدد الاتجاهات الأصلية والفرعية ، وهذه الآلة الصغيرة لا يستغنى عنها طيار ولا بحار ، ولا مسافر في أماكن مجهولة من العالم ...

هذه فكرة سريعة عن علم الجغرافيا بأقسامه العديدة والحمد لله رب العالمين .

أي تندفع الرياح من البحر إلى البر فتسبب لطف الهواء ، وقليل من بخار الماء ، ثم تنخفض الحرارة ثم في الليل ، يكون الماء محتفظاً بحرارته في النهار ... والارض قد بردت بسرعة لأن اليابس يبرد بسرعة و يسخن بسرعة ، والماء يسخن ببطء و يبرد ببطء ، فيأتي نسيم البر من البر إلى البحر ، ومن بين هذين تنشأ مصالح للخلق وتهاجر الطيور .

وهناك ظاهرة المد والجزر وهي أن البحار ترتفع مياهها مرتين كل يوم ، وتنخفض مرتين أيضاً ، ومن خلال ذلك تنشأ مصالح كثيرة للناس كصيد الأسماك ، وري الأشجار القريبة من شواطئ الأنهار المالحة ، برد المياه العذبة إلى الأنهار فتفيض تلك الأنهار ، فهناك آلاف الأفدنة في مثل منطقة البصرة وغيرها ، تعتمد في ربيها على نظرية المد والجزر ، تشرب من الماء الحلو ولكن بارتفاع البحر ورد الماء في شط العرب إلى تلك المزارع ، اذن فالجغرافية الطبيعية ، تشمل النظر في الأشياء الإلهية الخلقية التي يسمونها (الطبيعية) ومثلها البحيرات العليا الموجودة على رؤوس الجبال والبحيرات المالحة وتكونها وحركة الأسماك وهجراتها وحركة الري والصرف وما إلى ذلك .

أما الجغرافية السياسية فهي كما قلنا ، تبين حدود البلاد بواسطة خطوط الطول والعرض ، فمدينة (كذا) تقع على خط عرض كذا وتمتد حدودها إلى خط

كذا، ومن خط طول كذا إلى خط طول كذا، وعند الكلام على بلاد السودان مثلاً نقول: انها تحد بأفريقيا الاستوائية من الشرق، والحبشة من الغرب، ومصر من الشمال، وأوغندا من الجنوب، وعند الكلام عن مصر يقال مثلاً، انها تحد بالبحر الأبيض المتوسط من الشمال، والبحر الأحمر من الشرق والصحراء الكبرى من جهة الغرب، والسودان من جهة الجنوب، وكل بلد تحدت حدودها الطبيعية أو السياسية على خرائط. وهذه القضايا تترتب عليها علائق مهمة بالنسبة للنزعات على الحدود، وقد تنشأ الحروب وتقام من أجل طمع دولة في ثروة دولة أخرى، ربما ظهر فيها البترول أو أي معدن ثمين آخر وأحياناً يتقاتلون على كيلومتر واحد من الأرض.

ان علم الجغرافيا الاقتصادية، أو جغرافية الموارد. هو العلم الذي يبحث في ما رزق الله به بلدا معيناً من ثروات معينة فنقول مثلاً:

روديسيا فيها من الماس أو فيها من المنجنيز ونيجيريا فيها من البترول أو الغابات، وفيها حيوانات أليفة أو برية، وفيها أماكن للزراعة، وكل ذلك مدون ومكتوب في علوم تدرس للتلاميذ في المدارس، أحياناً باختصار وأحياناً بتوسع.

بالنسبة لعلم الجيولوجيا أو طبقات الأرض فهو علم يدرس كنوز الأرض كما يدرس الزلازل والبراكين التي يقولون: انها تحدث نتيجة لتحرك غازات دفيئة بقوة هائلة، من مكان إلى آخر أقل منه ضغطاً، فيحدث الاهتزاز الشديد في مكان البلد أو في مكان ذلك التحرك السفلي. وقد استطاع العلماء الآن أن يحصروا حزام منطقة الزلازل والبراكين بالتقريب، على أماكن من سطح الأرض، حيث توجد الارتفاعات الشاهقة فتحصل الانكسارات الأرضية كما يقال، والله أعلم.

أما علم الجغرافيا البشرية وهي المختصة بتمييز الأجناس فمثلاً يقولون أن الجنس الزنجي يتميز بأنه عريض الجبهة غليظ الشفاه قصير الشعر غير مرسل. أما الجنس الصيني فالعيون مائلة من أطرافها إلى أعلى، واللون أصفر، والشعر ناعم منسدل، والقامة قصيرة، والجنس الأبيض مثلاً أقرب إلى الاعتدال والجلد

أقرب إلى الحمرة أو الشقرة، والاسكيمو أقوام قصار القامة، عيونهم ضيقة، إلى غير ذلك من الصفات الغالبة على كل جنس، وهو علم واسع يتصل بوصف السكان أو وصف مخلوقات الله...

أما جغرافية المواصلات:

فهي على درجة كبيرة من الأهمية، وبسبب المواصلات تقوم الحروب بين الدول، فالنهر الفلاني مثلاً نهراً صالحاً للملاحة، وهو يفصل بين بلد كذا وكذا مثل النهر المسمى بشط العرب بين العراق وإيران، كان سبباً من أسباب الحرب بينهما، لأن نصفه للعراق ونصفه لإيران، ويحدث الاحتكاك بين السفن فيه وتشتد الخصومات خصوصاً، إذا ظهرت على الحدود ثروة لها قيمة، فالمواصلات تشمل خطوط السكك الحديدية، والبريد والبرق، وخطوط الطيران، وأنايب البترول، والأنهار والمساحات الإقليمية التابعة للبحار، وما يسمى بالجرف القاري، وتتضارب مصالح الدول، وتدعي كل دولة أن مصالحها مهددة، خصوصاً ما يتصل بالأمن الخاص، مثل موضوع قناة السويس، هل تمر فيها دولة معادية كإسرائيل أم لا، وهل يدخل في ذلك حق الدفاع عن النفس بحيث تمنعها الدولة الأخرى أم لا...

وهناك قضايا كبيرة ومعقدة، تتصل بعلم الجغرافيا، ومن ذلك تلك الأنهار العذبة التي تمر في أكثر من دولة وكيف تكون قسمة الماء بينهم.

فبعض البلاد تحب أن تحول مياه النهر الذي يمر في غير أرضها مثل قضية نهر الليطاني ونهر اليرموك التي نهبتها إسرائيل من العرب، وهناك اتفاقات تنص على استخدام مياه الأنهار، في كل دولة يمر عليها.

أما الجغرافيا الفلكية فهي تبحث في خلق السموات وما فيها من كواكب، ولقد استطاعوا أخيراً أن يصلوا إلى القمر، وإلى بعض الكواكب السيارة، عن طريق قذف صواريخ بوقود خاص يظل يشتعل لسنوات عديدة، ويدفع هذه الآلات والمكينات في مسار يوجهه من الأرض، عن طريق الأشعة.

فهذه الأقمار وهذه الآلات التي أرسلت إلى الفضاء، أصبح محتملاً جداً أن

تتقاتل الدول عليها أو بسببها، وهم يسمونها (الحرب الكونية) أو (حرب الفضاء). ويبحثون كيف يمكن أن يبيد بعضها بعضاً، من هناك بتوجيه من الأرض، ويمكن أن يصاب بها أي هدف على سطح الأرض، كما يمكن أن يرسل الأضرار على بلاد معينة من الفضاء، وتبدو الكرة الأرضية صغيرة، بالنسبة للبعد الشاسع الذي استطاعوا أن يطيروا إليه، الجغرافيا الفلكية أصبحت من العلوم المهمة، بسبب الفوائد التي حققتها خصوصاً في مجال المواصلات والاتصالات اللاسلكية، فمثلاً يقوم القمر الصناعي بإرسال الإشارات التليفونية والبرقية إلى أية جهة من الجهات، وكثير من البلاد العربية قد استعملت هذه الأقمار لمساعدتها على حل مشكلة التليفونات، وذلك عن طريق انعكاس الإشارات التليفونية والبرقية من الأرض وإليها، هذا الجسم المعلق في الفضاء والذي يدور بسرعة دوران الأرض يعتبر بالنسبة للبلد الواحد كأنه واقف فوقها لا يتحرك، إن بحوث الفضاء كلفت الدول الكبرى أموالاً هائلة، كانت تكفي لسد ضرورات ولكنه الترف العلمي، أو الصراع العسكري بين الدول، هو الذي دفعها إلى هذا التنافس المحموم، أملاً في التحكم في الفضاء الخارجي، واكتشاف الكواكب السيارة، وما حولها من غازات أو أبخرة، أو سرعة دورانها ودرجة الحرارة فيها، وهل يمكن أن تسكن أو لا تسكن، وبحوث كثيرة تتصل بهذه الأمور.

الجغرافيا العامة إن أول ما نتعلمه من الجغرافيا في المدارس أن يرسموا لنا كرة على السبورة ويقولون هذه مثل الكرة الأرضية، ويرسموا في وسط الكرة خطاً، خط الوسط الذي يمر بمركز الدائرة، ويمسونه خط الاستواء. ثم إلى أعلى قليلاً يرسمون خطاً آخر ويقولون هو مدار السرطان، وخطاً آخر إلى شماله أعلى منه، ويقولون هذا يمثل الدائرة القطبية الشمالية، وإلى أسفل خط الاستواء يرسمون خطاً يمثل مدار الجدي ثم الدائرة القطبية الجنوبية.

(الفروق والوسط العادل)

الحمد لله رب العالمين — والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد فهذه المحاضرة عنوانها «الفروق والوسط العادل» .

وسنتكلم فيها عن الفرق بين البر والطاعة وبين التربية والتدليل — وبين البخل والتبذير وبين الجد والكبر — وبين العلم والأعلام — وبين الصمت والثرثرة وبين محبة النفس والأنانية؛ وبين تنفيذ الأمر وممارسة الظلم — وعلى مدلول كلمة الإيمان وكلمة الشرعية؛ وأمور من هذا القبيل .

نقول وبالله التوفيق — إننا أخذنا هذا الموضوع من قول الله عز وجل «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس . ويكون الرسول عليكم شهيداً» وهو تعبير معجز؛ كيف لا وهو كلام رب العالمين .

إن الأمة الوسط هي أفضل الأمم — وإن الاعتدال في كل شيء هو أحسنه وأقيمه — وإن التطرف شيء غير مقبول — وكان من قدر الله أن جعلنا الله وسطاً في الأزمان ونزل الوحي على منطقتنا وهي وسط في الدنيا — وجاء نبي وسط عدل — فنحن إذا تكلمنا عن البر والطاعة نعرف أن الله أمرنا ببر الوالدين — وحرّم علينا عقوقهما — فلاأبوين البر بمعنى الحنان والحب وتقديم الخير — وتقديم المعونة — وتذكّر الجميل — فلا تقال لهما كلمة جارحة «ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً» .

ومعالم البر معروفة عند الناس — معروفة بالفطرة — ولكن هناك قضية هامة وهي: «إذا ظلم الوالد أو جار في حكمه — فماذا يكون موقف الابن من ذلك؟

وإذا ظلمت الأم أو جارت فهل نعطيهما البر أم نعطيهما الطاعة؟ إن لها البر دون الطاعة المطلقة. قال تعالى «وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما».

إننا نوفر لهما البر — ولكن مقاييس الحق والطاعة المطلقة لا تكون إلا لله رب العالمين — وإن الحمد المطلق لا يكون إلا لله رب العالمين — فلو أن أمًا قد جارت في الحكم كأن تكلف ولدها بأن يطلق امرأته الصالحة المرضية عنده — التي له منها أولاد — فيمكن أن يقول لا يا أمي ليس هذا من شأنك.

في قضية التربية والتدليل:

يولد المولود وقد يكون هو الوحيد — وتحنو عليه أمه — ويحب عليه أبواه — فيعاملونه بالطريقة التي يحبونها — ويغذوه الغذاء ويكسوه الكساء — ولكن هناك فرقاً واضحاً بين التربية والتدليل فقد يكون في التربية قسوة — كما قال الشاعر:

فقسا ليزد جروا ومن يك حازما فليقسُ أحيانا على من يرحم

إن العقوبة من التربية؛ وإن الموعظة من التربية — وإن الحرمان الجزئي هو من التربية؛ وإن تحميل الولد بعض المشاق من التربية — فالتربية أن توقفه عند الحد؛ وعند الاعتدال وعند الأدب؛ وأن يتذوق الجوع أحياناً — والحرمان والتدريب على الفضائل — وأن ينقطع ساعات على غير هواه للتعليم أو للعبادة — تلك هي التربية.

أما إذا أعطي الولد كل ما يشتهي — وغلب الحب أو غلبت العاطفة على الحق الواجب، أو على الأصول المتبعة — وخرج الولد مدللاً وقد اعتاد ألا يعصى له أمر — وألا يقال له «لا» — فيخرج إنساناً ضاراً فاسداً — إن الشخص المدلل عنيد لا يطاق — فهو لا يشكر أحداً ولا يقدر معروفاً — ولا يتوقف عند حد — ولا ينتظم في عمل — ولا ينضبط على أي أمر — وهو إن ترك على هواه يصبح مستبداً ظالماً — وليس هذا هو الوسط العادل — وإنا نحذر كل أب وكل أم من إهمال الحزم في التربية — فإن أول ما يعاقب بها هو الأب أو الأم — والتربية هي

الالزام بالطاعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مروا أولادكم بالصلاة لسبع — واضربوهم عليها لعشر — وفرقوا بينهم في المضاجع» أي أن هناك ما هو جائز — وما هو ممنوع — هناك ما هو حلال — وما هو حرام — وعلى كل إنسان يريد وجه الله — أو يريد أن ينفع أولاده لأنفسهم أو لغيرهم أن ينبتهم نباتاً حسناً.

في قضية البخل والتبذير:

إن الله تبارك وتعالى قال «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً» بعض الناس إذا جاءهم المال لعبوا فيه وعبثوا عبثاً شديداً — إننا نسمع عن لوحة رسمها فنان تباع بليون دولار أو مائة ألف — فماذا فيها؟ وبماذا ينتفع الناس منها؟ إنها لمجرد شهوة إقتناء — لا تقدم ولا تؤخر — ولا تخدم الحياة في شيء وبينما يفعل المترفون ذلك — نرى في الدنيا آلاف الخلق يهلكون جوعاً أو عطشاً فلا يرق لهم قلب؛ ولا يلتفت لهم محسن — وتقام أسواق المزادات على بيع كلب أو حصان أو على قطعة من الأثريات لا معنى لها، ولا فائدة؛ وهذا من التبذير الذي يبغضه الله عز وجل — بينما نراهم بخلاء في نواح كثيرة — وصدق علي رضي الله عنه حين قال: «إنك لا ترى إسرافاً في ناحية إلا وبجانبه حق مضيع» — هذا رجل يشتهي فتاة في حلال أو حرام — فينفق عليها النفقات الطائلة — ويعطيها كل ما تشتهي — وله أبوان عاجزان محتاجان لا يلتفت إليهما — أو عليه حقوق تلزمه من زكاة أو من صدقة أو من جهاد — أو من نصر للدولة أو من إحسان إلى فقير أو محتاج وهو لا يلتفت لذلك — ثم يستغرق في جزئية واحدة ويغفل عن الباقي — هؤلاء يتعرضون لسخط الله لقوله تعالى «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً».

بين الحرية والكبت:

بعض الناس يعامل أبناءه بالمحبة والحنان على أن يلتزموا مع ذلك جانب الصدق في المعاملة؛ أو في طلب العلم وهذا حسن — ولكن بعض الناس يبالغ في الحزم فيحول المعاملة إلى نوع من الكبت والحرمان — فلا يسمح لهم بنزهة ولا

برياضة ترفيهية؛ ولا يسمح لهم بأن يخرجوا من المدرسة إلا إلى الدرس الخصوصي — ويجلس هو لهم بالمرصاد — فاللعب ممنوع — والزيارة ممنوعة والفرجة ممنوعة — فهم يعيشون دائماً تحت هذا الضغط الشديد والذي يحصل بعد ذلك انه بمجرد أن يخف هذا الضغط عنهم — ينقلبون إلى عكس ما كانوا عليه — وقد يصبح أحدهم منفلتاً عابداً للشهوات والمادة — والوصية أن يكون للجد وقته — وللهو وقته — وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أريحوا قلوبكم من الجد — فإن القلوب إذا ملّت عميت — وإن عميت لم تفقه شيئاً» وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول — كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة خشية السأمة علينا» .

وهذا الأمر ينطبق على الزوجات؛ كذلك فبعض النساء تراها مستغرقة في أداء الواجبات المنزلية؛ أو رعاية الأ ولاد والبيت — وتمر عليها الأيام والشهور فلا تخرج من البيت، ولا ترى الشارع، إنها تعيش في عمل متصل وفي إنهاك مستمر — ثم تسقط صريعة المرض؛ و يطلبون لها العلاج النفسي وكان علاجها أن تنظم ساعات حياتها؛ وأن يكون لها اجازة لزيارة الصديقات ورؤية الأهل حتى يستوفي حقها الواجب للبدن وللروح أيضاً .

كذلك يجب أن يفرق المسلم بين العلم والاعلام فالعلم هو البحث عن المعرفة الحقيقية؛ والاعلام هو تقديم معرفة معينة من شخص أو هيئة إلى ناس آخرين — أو هو ما تحب السلطة أن تبلغه للناس — أو ما يريد الملك أن يوصف به عند شعبه؛ فالاعلام والعلم يجب أن يتوفر لهما جو الحرية والأمانة — هذا أمر يجب الانتباه إليه وليس كل ما يذاع أو يكتب في الصحف يصدق — إنما توزن الأمور بمقاييس الحق حتى تأخذ بالنافع وتترك ما عداه .

وعندما نتحدث عن الفرق بين الكسب والاحتيا ل نقول :

إن الكسب هو الناتج عن عمليات البيع والشراء — فهو ربح حلال ينال كل إنسان حظه منه ... والمال الحرام يمثل الكسب الذي لا يتناسب مع الجهد — غالباً . ويدخل في ذلك أمر المعاملات الربوية والمقامرة واليانصيب وكذلك

الأموال التي يدخل فيها المكر والحيلة — والمعاملات المحرمة — فكيف يستحل مسلم أن يربح ألفاً أو عشرة آلاف — لمجرد موافقة الأرقام التي معه للأرقام المعلن عنها؟ وأين الجهد في ذلك — وما من هذا؟

وهذا الفرق الدقيق بين الطيب والخبيث هو الذي قامت عليه البنوك الإسلامية — وهو الذي أغفلته البنوك الربوية — فعلى كل مسلم أن ينتبه للحلال والحرام وأن يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم...

كذلك الفرق بين الفن والفتن: إذا نظرنا إلى الفنون التي تزداد في هذا الزمان نجد أنها كثيراً ما تعرض ما لا يجوز مثل إثارة الغرائز واللهو القبيح — والأمور الساقطة — كضرب الوجوه أو قتل الناس — أو تمثيل الجريمة والجنس — وهو ما يسمونه «الفن الشعبي» — أو يسمونه «الواقعية» — أي تصوير الحياة كما هي — أو كما كانت عند الأجداد والأقدمين دون نقد أو تعديل — وهو أمر عظيم الضرر.

وقد كنا نفهم أن الفن هو إتقان الأعمال والصناعات الدقيقة؛ وإخراج ما ينفع الناس؛ من كل ما يصنع أو يباع؛ ومما يجعل الحياة لنفعها لا لضررها — فاختبأت الفتن وراء الفنون.

إن الفنون الآن يمارس الكثير منها لفتنة الخلق — ولإضلال الشعوب — ولإضعاف قدرات الشباب وصرفهم عن الغايات الكبرى؛ وشغلهم بالباطل — فيجب أن يفرق المسلم بين ما يسمى فناً سامياً نافعاً — وبين ما يسمى فتنه — فيأخذ النافع من الفن ويعرض عن الفتنة بكل أشكالها.

وبالنسبة للقرآن الكريم يجب أن تعرف حد الوسط بين تلاوة القرآن — وبين ازعاج الناس به؛ وتعرف الحد الفاصل بين تعليم القرآن مع التقيد بتلاوته، وبين التجارة فيه.

فحبذا تلاوة القرآن الكريم التي تزرع الخشية في النفس — وترقق القلب؛ ويؤجر بها التالي والمستمع. أما إذاعة القرآن الكريم من خلال مكبرات الصوت على أعلى مستوى — لازعاج النائمين والدارسين والذاكرين والعابدين

والبائعين والشارين — في المآثم والأفراح في الليل والنهار — فهو ما لا يجوز فمن استأجر أحداً لهذا فهو آثم — ومن قام بهذا العمل من القراء فهو آثم — ومن اشترط ثمناً مقابل القراءة وحدها فهو آثم . لقول الله عز وجل « اشترؤا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون » — وكل ثمن للقرآن فهو قليل . وهذا من أسوأ الكسب .

كذلك يجب أن نفرق بين الأخوة والتحزب .

فإن كنت أخاً لك في الله — أو في الدم فإنما أنصرك على الحق — وأوقفك عن الباطل وأردك عنه — أما المتحزب فإنه يقول « أن حزبي دائماً على حق . فلا أخالف جماعتي في أي حال » ، وهذا لا يحل ولا يجوز .

وقد قال تعالى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » وقال تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » — أي أنهم فرحون بارتباطهم على هذه العصبية ومناصرة بعضهم لبعض بصرف النظر عن موقفهم من الحق .

وحقيقة الوسط العادل أن نقول للمحسن أحسنت — وأن نقول للمسيء أسأت ... وقد ورد في الحديث « لا يكن أحدكم إمعة ؛ يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ؛ ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

وكذلك نبحث عن الوسط العادل بين المحاماة والتضليل

فقد يكون المحامي مأجوراً أجراً عظيماً إذا أظهر حقاً ضائعاً — أو دافع عن مظلوم لا يجد نصيراً ؛ أما أن تتحول مهنة المحاماة إلى نوع من الكسب الحرام ؛ والتحايل والتضليل ؛ ثم يحتال بعضهم من خلال الألفاظ والقوانين على تبرئة مجرم أو إدانة بريء ؛ فذلك لا يحل مطلقاً . قال تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » البقرة ٨٨ .

كذلك في مهمة النيابة .

نحن مستمسكون بوجوب الحكم بما أنزل الله ؛ لكن نقول إن مهمة النيابة في القضاء العادي هي أن تنوب عن الشعب في إظهار الحق — فهي تمثل العدالة؛ ولكن النيابة في بعض البلاد أصبحت سلطة اتهام فقط — فيقف النائب ويقول: «أيها الناس انظروا إلى هذا المجرم الذي أمامكم في قفص الاتهام؛ ولا تأخذكم به رحمة .

وبسبب الحرص على أطماع دنيوية نرى بعض هذه الأجهزة لا تعدوا أن تكون وسائل اضرار بالخلق، وهذا لا يليق — فيجب على كل من تقلد منصب النيابة أن تكون وجهته الحق وليس إدانته الخلق .

كذلك الفرق بين الحكم والارهاب

إن قيام الرئاسة والامامة من الضرورات الواجبة في الإسلام؛ لكي تقسم أرزاقهم وتقيم العدل فيما بينهم — وتحمي عقيدتهم — ولكننا نرى في بعض البلاد أن تصرف الحكومة هو المحنة النازلة على الشعب — فتقوم قوات الحكومة بعمليات الارهاب . لإخافة الناس وإزعاجهم — والافتراء عليهم — فهل تكون الشرطة بذلك في خدمة الشعب؟ إنما تكون الشرطة في خدمة الشعب — إن قامت بحراسة الأموال؛ وحافظت على الأعراض — وأمنت الناس ووفرت الثقة والمحبة بين الحاكم والمحكوم؛ ووفرت لهم الحرية فيما يباشرون من نشاطات الرزق والحياة — وإن الله تعالى عاب قوماً فقال «وغدوا على حرد قادرين» .

فالذي يتاجر يحتاج إلى تصريح؛ والذي يموت يحتاج إلى تصريح — والذي يولد يحتاج إلى تصريح؛ وقد امتدت يد سلطات الحكم امتداداً بشعاً — حتى شملت كل شيء في الحياة — وضيقّت على الناس أرزاقهم؛ حتى صارت الحكومة في بعض البلاد هي البائع الوحيد...

وهي المشتري الوحيد وما كانت تلك وظيفة الحكم في الأساس إنما كانت وظيفة الحكم أن تمهد للناس أسباب الرخاء؛ وأن تدعمهم يرزق الله بعضهم من بعض...

كذلك نحب أن نوضح الفرق بين زكاة الفطر وزكاة المال أو بين الزكاة والصدقة إن زكاة الفطر هي الزكاة التي تجب بالفطر من رمضان — وهي صاع من تمر أو شعيراً أو أقط — يخرج عن كل حي ليلة العيد — في نهاية شهر رمضان — ليوسع به على الفقراء والمساكين ... وهوشيء يسير مرتبط بعدد نفوس كل عائلة؛ وهو سنة مؤكدة فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما زكاة المال — فهي قوام حياة الدولة — وهي عماد بيت مال المسلمين — فمنه تجهيز الجيوش — وتسد الثغرات — وتتألف قلوب الناس على الإسلام — وتؤمن الطرق قال تعالى «إنما الصدقات — (يعني الزكاة) — للفقراء والمساكين والعاملين عليها؛ والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله» — فالزكاة لكل ما فيه اعلاء لكلمة الله ومن تركها عامداً فقد كفر وخرج من الإسلام وهي أخت الصلاة ويجب الحرص عليها والاهتمام بها فالفريضة مقدمة على كل ما عداها.

كذلك يجب التفريق بين الحلال والحرام في جهد الوسيط والسمسار — فلو أن إنساناً توسط ليشترى بيتاً لآخر؛ وبحث عنه وقدر ثمنه بالعدل ، وقام بتسجيله ووفر المشقة على المشتري وقدم له العلم الصحيح — فهذا أجرته حلال — لا بأس بها — ولكن لو توسط إنسان لآخر فزَيْن الصفقة الخاسرة؛ وأخفى عنه عيوبها — أو أخذ أجراً من الطرفين ومكر بينهما؛ فهذا حرام لا يحل له — فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول «أَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمَهُ مِنْ سَحْتٍ فَالنَّارُ أَوَّلَى بِهِ» والسحت هو الحرام بكل أشكاله.

كذلك الفرق بين البيع والربا.

قال تعالى: «وقالوا إنما البيع مثل الربا — وأحل الله البيع وحرم الربا» — فإن أعطاك أحد مالا؛ وانتظر عليك للسداد وقتاً ما؛ ثم جاء يطالبك بمال أكثر؛ فهذا هو الربا — وإن باعك إنسان سلعة بثمان آجل أكثر من ثمنها الحاضر بسبب الانتظار؛ فهذه صفقة بيع بالأجل.

وسياسة الإسلام قائمة على أن الغرم بالغنم — وأن المال لا يربح بنفسه — إنما يربح بالعمل فيه — بحيث لا يلد المال المال وهو جامد. قال عليه الصلاة والسلام البرُّ بالبرِّ والفضل ربا — والذهب بالذهب والفضل ربا والملح بالملح. والفضل ربا — يدا بيد — مثلاً بمثل — فمن زاد أو استزاد فقد أربى» إذن باختلاف جنس البضاعة عند السداد يخرج المعاملة من نطاق الربا.

وهناك فرق بين الشرعية الدينية والشرعية المدنية:

نسمع هذه الكلمة تتردد في الكتب والصحف؛ وقد يخلط القارئ المسلم بين ما هو «شرعي» في دين الله، وما هو «شرعي» في القانون الوضعي، فكلمة «الطب الشرعي» مثلاً أصبحت تعني الطب المتمشي مع مواد القانون، الذي تتعامل به الدول فيما بينها.

وكلمة «الحكومة الشرعية» أصبحت تعني تلك التي نجحت في الانتخابات العامة، أو التي اعتمدها رئيس الدولة، أو هيئة الرئاسة، وليس معناها تلك التي تحكم بشريعة الإسلام.

وكلمة «الشرعية» أصبحت لا تعني شريعة الله، إلا إذا أضيفت إليها كلمة «الإسلامية» فإذا لم تضاف هذه الكلمة فإنها تعني القانون فقط، وكذلك كلمة «المشروع» والاشترع.

وهناك اختلاف على مدلول كلمة الإيمان:

فإذا أطلقت هذه الكلمة في هذه الحياة المادية، فإنما تعني شدة التعلق بمبدأ معين — ولو كان هو الكفر والالحاد... يقول أحدهم: «أنا شديد الإيمان بالفكر العلماني، أو بالشيوعية» وبالاتشراكية. وهي لا تعني ما يفهم المسلمون من منطوق الإيمان، إلا إذا أضيفت إليها كلمة تفسرها — كأن يقال الإيمان بالله — أو برسوله أو باليوم الآخر، أو بالحق والعدل... الخ.

أما إذا سمعت تعبيراً مثل «دولة العلم والإيمان» فهو الإيمان بما رضىته الدولة من مبادئ... بمعنى التصديق فقط.

وإذا قال أحد الساسة: «أنا شديد الإيمان بالمبادئ، أو بالنصر، أو بالتعاون، أو بالحلف السياسي» فهذا إيمان آخر.

واختلاف على مدلول كلمة العلم:

فالعلم في الإسلام هو العلم الديني؛ ومنه علم الغيب وهو العلم النافع، لكن إذا أطلقت كلمة العلم، فهي تعني كل أنواع الدراسات... فقد يوصف الجاسوس بأنه عالم في فن المخابرات، وقد يوصف اللص بأنه عالم في الاقتصاد والاختلاس، ثم عرفوا الشيء العلمي بأنه ما يقع في دائرة الحواس الخمس. إذن فالعلم المادي يختلف تماماً عن مفهوم العلم في الإسلام. ولهذا نقول... يلزم تحديد الألفاظ قبل الحكم على مدلولها.

وهناك وسط بين الصمت والثروة:

فالكلام هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان، وهو من نعم الله العظيمة... والكتابة تتصل به في معنى التعبير، ولقد منَّ الله على عباده بذلك في قوله، «الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».

ولذلك وجب أن نتعلم حد الوسط في الكلام، فلا نسكت عندما يطلب الكلام... وأن نستحسن الحسن ونظهر السرور لما يسر ويفرح... ونشجع على فعل الأشياء الجيدة... وفي نفس الوقت نتكلم باعتدال... ولا نتجاوز الحد اللازم... وإذا سئلنا فإننا نجيب على السؤال فقط — لا نسترسل إلى غيره... ولا نخوض المرء فيما لا يعنيه... ولا يتطوع بمعلومات لم تطلب منه قال تعالى: «إن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون».

وقال تعالى: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد».

وقال عليه الصلاة والسلام «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» والوصايا الإلهية والنبوية في هذا كثيرة... ورُبُّ كلمة أوردت صاحبها موارد التهلكة... ومثال ذلك يقال عن الكتابة والتدوين... فيجتنب الحشو وكل ما لا فائدة منه.

وهناك وسط بين إهمال الكسب وجمع المال :

فالمعلوم أن المال هو عصب الحياة ، وبه قوام المعيشة ... لكن الناس بين رجلين : أحدهما استولى عليه الكسل ؛ أو ادعى الزهادة والانشغال بالعبادة ، فقعد عن طلب الرزق معتمداً على ما يأتيه من غيره ؛ وهذا إهمال ؛ فعن عمر رضي الله عنه قال « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول (اللهم ارزقني) وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

والله تعالى يقول « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .

وفي الجانب الآخر نرى رجلاً انشغل بجمع المال وكنزه ، وقد أعطاه الله فوق كفايته — لكن عادة الجمع والتعديد قد استولت عليه ، وصارت همه الأكبر ، كما قال تعالى « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » . والوسط المعتدل هو أن نسعى للرزق دون لهفة ، ودون حرص على الجمع والاستزادة ... ثم نرضى بما قدره لنا ؛ مع دوام السعي بالطرق الحلال .

وهناك وسط بين محبة النفس والأهل وبين الأنانية :

فقد جبل كل منا على أن يهتم بصالح نفسه أو ولاده وعائلته ... وهذا واجب ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لأهله . وأنا خيركم لأهلي » ... ولكن عندما يصبح هذا الشعور مقعداً له عن الجهاد ، أو عن نشر الدعوة ، وخدمة الآخرين من المحتاجين ، يقع الإنسان في الفتنة ، لقول الله عز وجل « إنما أموالكم وأولادكم فتنة . والله عنده أجر عظيم » .

وهناك فرق بين تنفيذ الأمر وممارسة الظلم :

إن من الأمر والأنظمة ما لا غنى عنه لحماية أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم ... ومن الأمر ما وضعه أعداء الوطن أو أعداء الدين ولأغراض يريدونها ...

فمن الموظفين القائمين على التنفيذ ، من تعود تنفيذ تلك الأمر بقسوة ومراة ، ولا يستمع إن شكوى منظم ولا يقدر عجز العاجزين ، ولا يرثى لآلام

المسحوقين ... والمفروض أن القانون أعمى ، فهو كالقطار المنطلق على شريط مرسوم .. وضعه الواضعون تحت تصور معين .. ثم قالوا « يطبق على كل الحالات » وتبقى بصيرة الشخص المنفذ ... وقد يكون القانون ظالماً ، إنما يلفظ من وقعه حسن التطبيق ، ورعاية الاعتبارات المحيطة بالموقف .

وقد يكون القانون عادلاً ، وإنما يشتط المنفذ — فلا تنال حقه بموجبه إلا بعد أن ترى الولايات ، وتنفق النفقات في غير ضرورة .

وكانوا في أوروبا يصفون أمثال هؤلاء المستخدمين بقولهم « إنه ملكي أكثر من الملك » أي أنه يتقرب إلى الملك ، بأكثر مما هو مطلوب منه .

ومعظم الدول تشكو من تلبس أصحاب المكاتب بروح الهيمنة والغطرسة ، إما نفاقاً لرئيس ، أو انتظاراً لرشوة ، أو اشباعاً لرغبة داخلية في الاستعلاء والبطش — وهو ما يسمونه بخلق (البيروقراطية) وكلمة « بيرو » معناها المكتب الذي يجلس وراءه الموظف .

فتذكروا أخي الموظف ، أنك واحد من هذا الشعب ، وأن هذا الواقف أمامك هو أخوك أو أبوك ... ولا يجوز أن تتعرض لسخط الله بارتضاء الظالمين ، وتستطيع أن توفق بين سلامة موقفك وبين إدراك الواجب عليك ، وفي النهاية نقول : ان الأمور تقاس على مثل هذا الوزن في كل جانب من جوانب الحياة ... وعلى العاقل أن يراقب نفسه ويحاسبها ، لقوله تعالى : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » وأن يقيس الأشياء على نظائرها ... ثم يدعو الله دائماً أن يرزقه التوفيق والسداد لما يحبه ويرضاه . والحمد لله رب العالمين .

(الصلاة)

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد وآله وصحابه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

هذا موضوع الصلاة، سوف نعرضه بإيجاز واختصار.

إن أمر الصلاة أمر عظيم، وهي الفريضة الثانية بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولقد فرضها الله على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء، من فوق سبع سماوات، وقد أكد القرآن الكريم أهميتها في آيات كثيرة، ويكفي أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، من تركها فقد كفر» «والصلاة عماد الدين» «ومن قبلت صلاته قبلت سائر أعماله» «ومن ردت صلاته ردت سائر أعماله»

وليس قصدنا أن نحيط بكل شئون الصلاة من الناحية الفقهية، فهذا بحث طويل وإنما نود أن تشير إلى أهم ما يجب أن يتذكره المسلم العابد، حتى لا ينسى، وسوف نمروراً سريعاً على شروطها وأركانها، وسنتها ومبطلاتها، ومكروهاتها. ثم نتكلم عن صلاة الفريضة، والنافلة وعن الجماعة، وما يتعلق بالتطهر للصلاة.

ونبدأ بالكلام عن الأذان، هو الاعلام بدخول الوقت للصلاة، ويكون بالألفاظ مخصوصة لا تجوز الزيادة عليها ولا يجوز النقص فيها، وهذه الألفاظ في الواقع، مشتملة على مسائل العقيدة الإسلامية. «وهي الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله» وقد ورد تربع التكبير، وتثنية كل جملة من الجمل التالية له، ويشترط للمؤذن أن يقول في صلاة الصبح قبل التكبيرتين الأخيرتين عبارة «الصلاة خير من النوم» مرتين أيضاً.

ويسن لمن سمع الأذان أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم (بعدما يرد ألفاظه مع المؤذن — ويسأل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة .

أما الإقامة فألفاظها ألفاظ الأذان، مع زيادة عبارة « قد قامت الصلاة » مرتين ؛ ولا كلام بين تكبيرة الاحرام والإقامة — وليس للمؤذن أن يأخذ على الأذان أجراً ؛ ويستحب له أن يكون طاهراً وأن يستقبل القبلة، وأن يتلفت يمينا عند قوله « حي على الفلاح » وأن يجعل أصبعيه في أذنيه، حتى يعرف من لا يسمع — وأن يفصل بن كل كلمتين بسكتة، والإقامة أسرع من الأذان .

وعلى المؤذن أن يقيم الصلاة عندما يأمره الإمام، ويطلب الفصل بين الأذان والإقامة بوقت يسع أوسط الناس بعداً من المسجد أن يتأهب للصلاة، ويأتي سعيّاً إليها، وإلا ضاعت الفائدة من الدعوة إلى الصلاة — وليس على النساء أذان ولا إقامة ويكره التغني في الأذان، واللحن فيه بزيادة حرف أو حركة أو مد . أما التسبيح قبل الفجر وما يقع من النشيد ورفع الصوت بالدعاء فلا أصل له في الدين، وهو من البدع المكروهة، لأنه لم يقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى عهد أتباعه، فهو من المحدثات .

شروط الصلاة وهي الأشياء التي يجب أن تتوفر للمصلي قبل الدخول في الصلاة .

وأولها العلم بدخول الوقت و يكفي في ذلك غلبة الظن، أو اخبار الثقة، أو أذان المؤذن المؤتمن أو أي سبب آخر مما يحصل به العلم — وقد بين الرسول عليه السلام هذه الأوقات ... فوقت الظهر من زوال الشمس « أي عن وسط السماء » إلى أن يصير ظل كل شيء مثله سوى ظل الزوال — ووقت العصر من نهاية وقت الظهر إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه سوى ظل الزوال ... ثم هناك وقت ضرورة إلى قبيل غروب الشمس، ووقت المغرب من تكامل غروب الشمس إلى أن يغيب الشفق الأحمر — ووقت العشاء من آخر وقت المغرب إلى ثلث الليل الأول، وبعد ذلك هو وقت اختيار إلى قبيل طلوع الفجر — ووقت الصبح من طلوع الفجر الصادق إلى قبيل طلوع الشمس — وإذا كان على المرء

قضاء صلوات فائتة فيصلها مرتبة قبل النوافل ، ولا تصلى النوافل في أوقات الكراهة ، ومن أدركته ركعة من الصلاة قبل خروج الوقت فقد أدرك الصلاة .

ثانياً: الطهارة من الحدث الأصغر (ويزال بالوضوء) ومن الحدث الأكبر وهي الجنابة (ويزال بالاستحمام) .

ثالثاً: طهارة الثوب والمكان: ولا تصح الصلاة في الأرض المغموسة ، وكذا المقبرة ، والمجزرة ، والمزبلة ، وأعطان الأبل ، وقارعة الطريق العام ، والحمام ، ولا تصح صلاة الفرض في داخل الكعبة .

رابعاً: استقبال القبلة مع القدرة ، لقوله تعالى «فولّ وجهك شطر المسجد الحرام» فإن لم يوجد من يخبره عن القبلة صلى بالاجتهاد ، فإن أخطأ فلا إعادة عليه .

خامساً: ستر العورة بشيء لا يصف البشرة ، لقوله تعالى «خذوا زينتكم عند كل مسجد» الأعراف ٣١ وبدن الحرة البالغة كله عورة في الصلاة ، إلا وجهها وكفيها ، والعورة التي يجب على الرجل سترها في الصلاة القبل والدبر ، أما ما بين السرة والركبة فمن العلماء من قال إنها عورة ومنهم من قال ليس بعورة .

كشف الرأس في الصلاة يجوز للرجل أن يكشف رأسه في الصلاة ، ويستحب ذلك إن أريد به الخشوع لله تعالى ، لكن المسألة تخضع للعرف والعادة ، فإن كان كشفها يعدّ من نقص الزينة فالأولى تغطيتها والله أعلم .

والصلاة المفروضة خمس قيل يا رسول الله ماذا فرض الله علينا من الصلاة؟ قال خمس صلوات في اليوم والليلة ، قال «هل عليّ غيرهن؟ قال لا إلا أن تطوع شيئاً» متفق عليه .

وهي تجب على كل مسلم مكلف ، والمكلف هو الرجل إذا بلغ الحلم ، والبنت إذا حاضت ، ومن تركها جحوداً أو إنكاراً فقد ارتد عن الإسلام ، وجرت عليه أحكام المرتدين ، لأنه مكذب لله ورسوله ، أما إذا تركها جهلاً فيعلم ، وإذا

تركها كسلا يحاسب و يُعزَّر (أي يعاقب) ثلاثة أيام ثم يستحق بعدها حكم المرتد.

فرائض الصلاة للصلاة فرائض وأركان، فإذا تخلف فرض منها لا تتحقق الصلاة ولا يعتد بها شرعاً، وهذا بيانها:

١ - النية - وهي أن يحدد المصلي وينوي بقلبه أن هذه الصلاة لله وحده، وإنها فريضة الصبح. أو العصر، أو أنها نافلة (أو فريضة) وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» ويكره الجهر بالنية، خصوصاً لو سببت شوشرة على المصلين الآخرين.

٢ - القيام في الفرض على القادر منتصباً (إلا لعذر)، لقوله تعالى «وقوموا لله قانتين».

٣ - تكبيرة الاحرام وهي قول «الله أكبر» ويجب أن تقال باللغة العربية، ولا يغني عنها غيرها.

٤ - قراءة الفاتحة في كل ركعة من الركعات، ومن كان مؤتماً وسمع الفاتحة من الامام فهي تغني عن فاتحته، لقوله عليه الصلاة والسلام «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

٥ - الركوع والاطمئنان فيه، وهو واجب بالاجماع، لقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا» الحج ٧٧.

٦ - الرفع منه فلورفع فرعاً من شيء لم يصلح ذلك، ثم الاعتدال قائماً بحيث يقيم صلبه ويطمئن في ذلك، لقوله عليه السلام «ثم ارفع حتى تعتدل قائماً».

٧ - السجود والاطمئنان فيه لقوله تعالى «واسجدوا» فيسجد على يديه وركبتيه وقدميه وجهته وأنفه.

٨ - القعود الأخير والتشهد وصيغة التشهد «التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته - السلام علينا وعلى

عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله» وهناك رواية أخرى قريبة من هذه، ومن السنة اكمال التشهد، بالصلاة على النبي وعلى إبراهيم وآل إبراهيم.

٩ - التسليم عن يمين ثم عن يسار، بقوله «السلام عليكم ورحمة الله» في كل جهة وبهذا تتم الصلاة، ويجب ترتيب الأركان على ما ذكرناه.

سنن الصلاة منها: تكبيرات الانتقال، وقول «سمع الله لمن حمده» للامام والمنفرد، وقول وربنا ولك الحمد للكل، وقول «سبحان ربي العظيم» في الركوع «وسبحان ربي الأعلى» مرة على الأقل في السجود، وقول «رب اغفر لي» بين السجدين، والتشهد الأول والجلوس له، وقراءة السورة بعد الفاتحة، والجهرب بالقراءة في صلوات الليل، والصلاة على النبي في التشهد الأخير - ورفع اليدين مع تكبيرة الاحرام، وعند الركوع وعند الرفع منه، ووضع اليد اليمنى على اليد اليسرى، وجعلهما تحت السرة، أو على الصدر ويجوز الإسبال، وأن ينظر إلى موضع سجوده، وأن يفرق بين قدميه، وأن يقبض على ركبتيه بيديه، منفرجة الأصابع في ركوعه، وأن يمد ظهره فيه، وأن يجعل رأسه حياله، وأن يمكن أعضاء السجود من الأرض، وأن يجافي عضديه عن جنبيه ويجافي بطنه عن فخذه، وأن يفرق بين ركبتيه، وأن يقيم قدميه، وأن يجعل بطون أصابع يديه على الأرض مفرقة، ويجعل يديه ومنكبيه، مضمومة الأصابع وأن يرفع يديه في قيامه إلى الركعة/ وأن يفرش الجلوس بين السجدين، وفي التشهد الأول، وأن يتورك في الثاني، (أن يجلس على مقعدته) وأن يضع اليدين مبسوطتين بين السجدين، وأن يلتفت يمينا وشمالاً في تسليمه، ونية الخروج من الصلاة.

مكروهات الصلاة وما يكره للمصلي أن يقتصر على الفاتحة، وأن يكررها وأن يلتفت بلا حاجة، وأن يغمض عينيه، وأن يجعل شيئاً يشغله عن الصلاة، وافتراش ذراعيه ساجداً، والعبث بأي شيء، والتخضر (أي يضع يديه في خاصرته) والتمططي والثأوب مع فتح الفم، وكذلك استقبال صورة أو وجه آدمي أو شخص نائم أو نار، وكل ما يلهيه، مثل اللعب بالحصى وتسوية التراب

بلا عذر. والتروح بمروحة، وفرقة الأصابع، وتشبيكها ومس لحيته.

ومتى كثر ذلك عرفاً بطلت الصلاة، وأن يغطي جبهته بما يسجد عليه، وأن يسمح فيها أثر سجوده، وأن يستند إلى حائط، كل ذلك من مكروهات الصلاة.

أما ما يبطل الصلاة فيبطلها انتقاض الوضوء، وانكشاف عورة المصلي عمداً (إلا أن يكشفها ريح فيسترها في الحال) واستدبار القبلة — والعمل الكثير من غير جنس الصلاة لغير ضرورة... وتعمد زيادة ركن فعلي، وتعمد تقديم بعض الأركان على بعض، وتعمد السلام قبل إتمام الصلاة، وتعمد اللحن في القرآن، وتغيير نية الصلاة، وأن يدعو بملاذ الدنيا، وأن يأتي بكاف الخطاب أو التاء لغير الله تعالى ورسوله، وأن يتكلم بغير العبادة، ولو سهواً وأن يتقدم المأموم على الإمام، وأن يسلم عمداً قبل إمامه، وأن يأكل أو يشرب (أما إن غلبه سعال أو عطاس أو تشاؤب فلا بأس من ذلك)... هذه مبطلات الصلاة.

سجود السهو: كيفيته هو سجدتان يسجدهما المصلي قبل التسليم أو بعده، ويشرع في الأحوال الآتية:

١ — إذا سلم قبل إتمام الصلاة.

٢ — عند الزيادة على الصلاة: (فإن كان قد شك بالنقص فعليه بأن يأتي بركعة أخرى احتياطاً ثم يسجد للسهو).

٣ — عند نسيان التشهد الأول أو نسيان سنة من سنن الصلاة أما إذا نسي ركناً وتأكد من ذلك فتلزمه إعادة الصلاة.

صلاة الجماعة وهي سنة مؤكدة في الفرض، أما في النفل والتطوع فهي مباحة، وقد شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ضرورة التزامها عن صلاة المفرد، لقوله تعالى «**واركعوا مع الراكعين**» وكان يعتبر المتأخر عن الجماعة من المنافقين، إلا أن يكون معذوراً، وجعل النبي ثوابها مضاعفاً بسبع وعشرين درجة.

وصلوات الفرائض خمس الصبح ركعتان، والظهر أربع ركعات، والعصر

أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات، والعشاء أربع ركعات، لا زيادة على هذا ولا نقص منه — إلا في صلاة المسافر.

صلاة التطوع أو النوافل: وهي التي لم يلزمنا بها الله ورسوله، وإنما دعانا إليها تقرباً إليه سبحانه وتعالى، ولعلها تعالج صلواتنا «المفروضة» التي فاتنا منها شيء، أو لم نؤدها على الوجه الأكمل، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة — على أن بعض هذه الصلوات له أهمية خاصة في توحيد جماعة المسلمين، واستعلان مظهرهم وقوتهم، فمما شرعت فيه الجماعة العידان، والخسوف للقمر والكسوف للشمس والاستسقاء.

ومن صلوات التطوع السنن «الرواتب» فمنها المؤكدة وهي التي ترافق الفرائض يومياً، وهي ركعتان قبل الصبح، وركعتان قبل الظهر (أو أربع) وركعتان بعده (أو أربع) وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء.

والرواتب التي هي سنن غير مؤكدة؛ وهي اثنتان (أو أربع) قبل العصر، واثنتان قبل المغرب وركعتان قبل العشاء.

الوتر هو سنة مؤكدة، وهو ركعة أو ثلاث عشرة ركعة، تختتم بها صلاة اليوم.

ومن صلاة التطوع أيضاً صلاة الليل، وقد جاء النص على فضلها في أكثر من آية في القرآن الكريم، وكانت مفروضة على النبي صلى الله عليه وسلم وحده طوال حياته بعد نزول الآية «يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً» ولا تحديد لعددتها، ولا لطولها، ومنها التراويح.

ومنها صلاة الضحى ووقتها من ارتفاع الشمي قدر الرمح، وتنتهي بوجوب صلاة الظهر وأكثرها ثمان ركعات.

ومنها صلاة الاستخارة وهي ركعتان، وتؤدى في أي وقت، ويقرأ فيها ما شاء، ثم يدعو الله ليشرح صدره للأقدام على شيء أو تركه.

ومنها الكسوف أو الخسوف والأفضل أن تصلى في جماعة، وهي ركعتان في

كل ركعة ركوعان، يقرأ الامام فيها القرآن قراءة طويلة، ثم يركع ويرفع فيقرأ أقل من الأولى، ثم يكبر ويركع ويرفع قائلاً سمع الله لمن حمده، ثم يسجد سجدتين وفي الركعة الأخرى مثل ذلك ثم يخطف الامام، ووقتها من حين الكسوف أو الخسوف إلى أن تنجلي الشمي أو القمر.

صلاة الاستسقاء وتسُن إذا انقطع المطر وحصل الجذب وكيفيتها أن يصلي الإمام بالناس ركعتين، ثم يخطف خطبة يسأل الله فيها نزول الغيث، ويخرج الناس فيها متذللين راجين رحمة الله.

تحية المسجد وهي ركعتان لمن دخل المسجد، وتحصل التحية بأي صلاة «ولو فريضة» قبل الجلوس.

ومن استأذنته إمرأته أو أمته إلى المسجد كره له أن يمنعها، وبيتها خير لها، لحديث «لا تمنعوا إماء الله بيوت الله وبيوتهن خير لهم وليخرجن ثقلات» (أي غير متعطرات).

فصل في الامامة الأولى بالامامة هو الأقرأ، أي الأحفظ أو الأحسن في القراءة، ثم الأفقه، ثم الأكبر سنأ، ثم الأشرف، ثم الأتقى والأ ورع، وصاحب البيت، وإمام المسجد الراتب، والحر أولى من العبد، والبصير أولى من الأعمى، والمتوضئ أولى من المتيمم، وتكره إمامة غير الأولى، إلا بإذنه، ولا تصح إمامة الفاسق، (إلا في جمعة وعيد تعذر خلف غيره) — أي لم يوجد من يقوم بذلك إلا هو — وتصح إمامة الأعمى والأصم والأقلف وكثير اللحن، إذا لم يخل بالمعنى، وإن ترك الامام ركناً أو شرطاً مختلفاً فيه صحت صلاته، لكن من صلى خلفه معتقداً بطلان صلاته (كالصلاة خلف المبتدع) فعليه الاعادة — ولا تصح إمامة المرأة بالرجل — ولا تصح إمامة الذي لا يحسن الفاتحة، إلا بمن كان مثله — وتصح صلاة المتنفل خلف من يصلي الفرض، وكذلك العكس في أصح الأقوال — وإن كان الإمام والمأموم في مسجد واحد لم تشترط الرؤية — ويكفى سماع التكبير، وإن كان بينهما نهر تجري فيه السفن أو طريق لم تصح الإمامة — وكره لمن أكل ثوماً أو بصلاً أو فجلاً ونحوه حضور المسجد، وكذلك من يتأذى

الناس منه — وبالنسبة للجمعة يُعذر بتركها المريض، والخائف حدوث المرض، ومن له ضائع يرجوه أو يخاف ضياعه، أو يخاف على مال لحفظه، كنظارة البستان أو الحراسة، أو أذى بمطر أو وحل، أو ثلج أو جليد أو ريح في ليلة مظلمة.

صلاة أهل الأعذار يلزم المريض أن يصلي الفريضة المكتوبة قائماً، ولو مستنداً فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، والأيمن أفضل، ويشير برأسه إلى الركوع والسجود، ويجعل السجود أخفض من الركوع، فإن عجز أشار بطرفه، واستحضر الفعل بقلبه ولا تسقط الصلاة عن أي إنسان ما دام عقله حاضراً، وتصح الصلاة على الراحلة، ممن يتأذى بنحو مطر أو وحل أو يخاف على نفسه، وعليه أن يستقبل القبلة إن استطاع، وما يقدر عليه.

صلاة المسافر يجوز للمسافر قصر الصلاة الرباعية، بأن يجعلها ركعتين بدلاً من أربع، لمن نوى سفرًا مباحاً إلى مكان يبعد فوق ثمانين كيلومتراً، ولا إعادة على من قصر الصلاة، ويلزمه اتمام الصلاة إن دخل وقتها وهو في الحضر — ويقصر الصلاة إن أقام حاجة بلا نية الإقامة فوق أربعة أيام، أو لا يدري متى تنقضي، أو حُيسَ بسبب مطر أو نحوه.

فصل في الجمع يباح الجمع بين الظهر والعصر، وبين العشاء والمغرب، لوقت أحدهما، لمن كان على سفر يبيح القصر، كما أنه جائز لكل مقيم تلحقه مشقة، ويباح للمرأة الموضع إن وجدت مشقة من كثرة النجاسة، ويباح للعاجز عن أداء الطهارة لكل صلاة.

صلاة الجمعة هي فرض عين على كل مسلم، حر بالغ، عاقل مقيم، خال من الأعذار، وتصح من المرأة، ولكنها لا تجب عليها، وتسقط عن من يسكن بعيداً عن محل الجمعة بثلاثة أميال.

ووقتها وقت الظهر — وتشترب فيها الجماعة، واختلف العلماء في عددها، لكن الراجح أنها تصح بتوفر أربعة، وتسقط عن أهل البوادي، الذين يتعذر اجتماعهم، ويشترط اشتغالها على الخطبة، وتشتمل الخطبة على حمد الله والثناء

عليه والصلاة على رسوله، والموعظة وقراءة شيء من القرآن الكريم — وأوجب بعضهم الدعاء للمسلمين في الخطبة الثانية، دون رفع اليدين، ويشترع القيام للخطبتين، والجلوس بينهما، ورفع الصوت بها، ويكره الكلام حال الخطبة، ثم يصلي ركعتين تكونان أطول من الخطبة، وتسبح ركعتين أو أربع ركعات بعد صلاة الجمعة — ويستحب لمن يريد الجمعة الغسل، ولبس الثياب النظيفة، والتكبير، ويحرم البيع والشراء بعد النداء لها، ومن أدرك منها ركعة كاملة فقد أدرك الجمعة، وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد سقط وجوب الجمعة لمن صلى العيد لكنه يصلي الظهر.

صلاة العيدين العידان هما عيد الفطر في أول شعبان، وهو يوم فرح بتمام عبادة الصوم، الذي كان في شهر رمضان، وعيد الأضحى في اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم فرح بتمام عبادة الحج، وقيل بسبب نزول قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم».

وقد شرعت في السنة الأولى من الهجرة، وهي سنة مؤكدة، واطب النبي عليه السلام عليها، وأمر الرجال والنساء أن يخرجوا إليها، وكذلك الأطفال «والحائض تحضرها وتعتزل المسجد» ويستحب لها الغسل، ولبس أجمل الثياب، ويجوز أن تؤدى في المسجد، لكن أدائها في الفضاء أفضل، إلا في المسجد الحرام بمكة.

ووقتها من ارتفاع الشمس قدر ثلاثة أمتار إلى الزوال — ولم يشترع لها أذان ولا إقامة، وهي ركعتان يسن فيهما أن يكبر قبل القراءة سبع تكبيرات، في الركعة الأولى بعد تكبيرة الاحرام، وفي الثانية خمس تكبيرات غير تكبيرة القيام، مع رفع اليدين عند كل تكبيرة، ويحمد الله ويثنى عليه بعد التكبيرات.

ومن فاتته الجماعة يصلي ركعتين في منزله أو في المسجد — وتسبح لها خطبة بعد الصلاة كخطبة الجمعة، فيعظ الناس ويبين أحكام الأضحية في عيد الأضحى ويذكر بصدقة الفطر في عيد الفطر، ويفتحها بالحمد، أما الذي ورد من أنهما خطبتان فسند ضعيف، ومن المباح المرغوب فيه وفي العيدين التوسع

في إطعام الطعام، واللعب والغناء، إذا كان ذلك مما أباحه الشرع، وتستحب
التهنئة بالعيدين بين الأخوان، ويسن التكبير في العيدين، ويستمر التكبير في
عيد الفطر عقب الصلوات المفروضات إلى عشاء يوم العيد، وفي الأضحى إلى
عصر آخر أيام التشريق.

والحمد لله رب العالمين

(أخلاق المسلم)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين — والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين — وبعد:

فإن أخلاق المسلم وما يجب أن يتبعه في سلوكه مع الناس أمور مأخوذة من كتاب الله سبحانه وتعالى، فقد نصت آيات القرآن الكريم على جملة كبيرة من الأخلاقيات الفاضلة، وتؤخذ أيضاً من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومن سيرته، فهو قدوتنا وهوزعيمنا، هذه الأخلاقيات نراها أيضاً في الديانات أو المذاهب التي يتعبد الناس بها وتعتبر عندهم أساس الديانة — أي أن بعض الديانات قامت على الأخلاق فقط؛ ولكن الدين الإسلامي يقوم على ثلاث ركائز:

الركيزة الأولى:

هي الاعتقاد أو الإيمان بالحقائق المقررة التي يجب أن يعتقدتها المسلم وتستقر في قلبه وفي إيمانه وعقله الباطن — وهي الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر والغيب.

والجانب الثاني:

هو الشريعة بمعناها الكامل / من الحلال والحرام والجائز والممنوع / وما يلحق به من أمر الجهاد.

والركيزة الثالثة: هي الأخلاق، وهذا موضوع المحاضرة؛ فمن أخذ بواحدة من هذه الثلاث وترك الباقي فلا يعتبر مسلماً — فمن أنكر العقيدة فهو كافر ومن ترك الشريعة عامداً فهو كافر — ومن ترك الأخلاق فهو فاسق.

فما هي الأخلاق ؟

نقول وبالله التوفيق إن الله عز وجل أمر عباده الذين آمنوا به وعملوا الصالحات أن يكونوا على درجة من التخلق في الأبواب التي سنذكرها .

ونبدأ بالكلام عن الخشية والتقوى والانابة — ثم عن الصدق والوفاء بالعهد — ثم عن العدل والاحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وعن الشجاعة وقول الحق، وعن الصبر والحلم، وعن الكرم والايثار — ونتكلم أيضاً عن الحب في الله والبغض في الله؛ وعن الأدب وحسن المعاشرة، وعن الطاعة في المعروف، وعن العفة وعزة النفس، وعن العفو والرحمة، وأمور من هذا القبيل . إن أول ما يؤمر به المسلم أن يكون دائم الخشية لله تعالى مراقباً له في السر والعلن لعلمه أن الله تعالى مطلع عليه «يعلم خائنة الأمور وما تخفي الصدور» غافر ١٩ .

فمراقبة العبد لله عز وجل — هي الأساس الذي يجعله دائماً حسن الأخلاق، لين الجانب، محبوباً من كل من يتصل به — ومن لم يرزق الخشية فهو من قساة القلوب فالله تعالى يقول «فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين» الزمر ٢٢ .

والتقوى هي الخوف، فمعنى أن تتقي الشيء أي أن تخاف حدوثه — فالتقوى تكون منا بالنسبة لله عز وجل — قال تعالى «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون» يونس ٦٢ ٦٣ . فمن رزق الإيمان بالله وصدق بما جاء عن الله عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم فهو مؤمن، ومن رزق الخشية والانابة، ورقة القلب والتقوى فهو إن شاء الله من المتقين — وهاتان الصفتان هما المرشحتان لولاية الله للعبد أي أن الله تعالى يتولى عبده ويرعاه ويحفظه إن اجتمعت له صفتا الإيمان والتقوى .

وآيات التقوى كثيرة في القرآن الكريم منها قول الله تعالى «واتقون يا أولي الألباب» البقرة ١٩٧ وقوله تعالى «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» الأعراف ٢٠١ .

إذن فالتقوى خلق من أهم أخلاق المسلمين .

نتقل إلى النقطة الثانية وهي الصدق .

ومنه الوفاء بالعهد إن الله تعالى يقول «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» التوبة ١١٩ . ويقول «الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار» .

إن الآية الواحدة في القرآن الكريم قد تجمع جملة كبيرة من الفضائل والأخلاق الكريمة؛ فالمسلم صادق على كل حال — قالوا يا رسول الله أيسرق المؤمن؟ قال قد يكون ذلك ... قالوا أيزني المؤمن؟ قال قد يكون ذلك — قالوا يا رسول الله أفيكذب المؤمن؟ قال لا «إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون» — فالصدق سمة المسلمين والله مع الصادقين ويتصل بالصدق الوفاء بالعهد — قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» المائدة ١ قال المفسرون وهي العهود — وقال تعالى «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم» النحل ٩١ فإذا وعدت فلا تخلف «والنبي يقول آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أوتى من خان» وهذه الثلاثة يأخذ بعضها بحجز بعض وتعتبر كلها صفة واحدة للمسلم .

ومن أخلاق المسلم كذلك أن يكون عادلاً مع نفسه ومع غيره لقوله تعالى «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى» النحل ٩ ويقول «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا — اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» المائدة ٨ — فالمسلم لا يظلم أحداً لأن العدل ضد الظلم والذين يظلمون الناس و يبغون في الأرض فساداً هم أعداء الله وقد توعدهم الله في آيات كثيرة بعذاب شديد .

ومن أخلاق المسلم كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالمجتمع المسلم مجتمع فاضل متفاعل من داخله وليس سلبياً ولا ينبغي لأحد أن يقول لا شأن لي بهذه المسائل العامة كلا بل هو مسئول عن النصح والتعاون يقول الله تعالى «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات» آل عمران ١١٤ .

فإن وجدت شيئاً تستطيع أن تأمر فيه بمعروف أو تنهى فيه عن منكر فافعل ... يقول عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» فالتغيير باليد هو الدرجة الأعلى والأكمل فإن لم يستطع أي يجاهد بيده فليجاهد بلسانه أي بالكلمة الشجاعة — وهذه هي درجة الوسط . فإن لم يستطع فقلبه — أي أنه يعترض على الخطأ ولا يرضى بحدوثه وذلك أضعف الإيمان ... وفي كل الأحوال لا يسكت على خطأ ولا ظلم ولا باطل — ولذلك كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً يسوده الفضل والتكامل — بصرف النظر عن الاعتماد على سلطة الدولة والدولة لا يمكن أن ترى كل شيء أو تصلح كل عيب — لذلك فرض على الشعب المسلم أن يقوم بعضه بعضاً و يسدد بعضه بعضاً بشكل طبيعي دائم مع مسيرة الحياة .

وإذا لم يتم ذلك وقع الفساد في المجتمع .

وأمر آخر هو الشجاعة .

ويتصل بذلك قول الحق والجهد في سبيل الله — ومعنى الجهاد في سبيل الله أن تجاهد الآخرين — حتى ترتفع كلمة الله — أو حتى يحقق حق الله — الجهاد في سبيل الله من أفضل وأعلى درجات الإيمان يقول عنه النبي صلى الله عليه وسلم «الجهاد ذروة هذا الأمر وسنانه» ولا يجوز للأفراد ولا للحكومات أن تقعد عن الجهاد، لأنه من شعائر الإسلام . والجهاد ماض مستمر إلى يوم القيامة ويلحق بأمر الجهاد المrapطة في سبيل الله فالذي يربط حارساً أو أميناً على مصلحة مهمة هو مجاهد وهو شجاع — ومن الشجاعة قول الحق في وقته لقوله صلى الله عليه وسلم «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» أي قتله الإمام الجائر .

فالشجاعة صفة المسلمين — ولا يجتمع الجبن والإيمان في قلب واحد أبداً — لأن الإيمان يوجد الثقة بالله وقضائه وهذا ينتج الشجاعة .

ومن أخلاق المسلم كذلك الصبر.

قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» آل عمران ٢٠٠ وقال تعالى «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة» ويتصل بالصبر كذلك كظم الغيظ عما ينال الإنسان من مصاعب ومتاعب من جانب الآخرين والله تعالى يقول «فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» والحلم نوع من الصبر ويكون حلم الإنسان على ما يناله من الأذى.

والصبر أنواع فمنه الصبر على طاعة الله أي أن تضبط نفسك وشهواتك، فلا تتورط في معصية الله، والصبر عن معصية الله؛ والصبر على أقدار الله.

ومن أخلاق المسلمين كذلك الايثار.

قال تعالى «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» فمعنى الايثار أن تقدم أخاك على نفسك فيما تشتهي قال تعالى «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً» وهو ضد الأنانية وحب الذات... إن مشكلة النزاع بين الناس تنشأ من حرص كل واحد على مصلحة نفسه غير عابىء بغيره.

ومن أخلاق المسلمين كذلك الكرم والسخاء.

فالله كريم يحب الكرماء؛ سخي يحب الأسخياء؛ وعنده خزائن السموات والأرض يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن الله عز وجل «عبيد أنفق أنفق عليك فإن يد الله مملأى سحاً لا يغيضها شيء بالليل ولا بالنهار» والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار، قال تعالى «ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً وقال تعالى «وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» وهي البخل ثم قال: «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين».

ومن أخلاق المسلم كذلك الحب في الله والتعاون على الخير العام لوجه الله.

فنحن المسلمين نحب من آمن بالله وبوجوده ووحدانيته . نحب أهل الخير ونكره أهل الباطل . وليس الإيمان متمثلاً في المحبة فقط كما تقول بعض المذاهب كلا — وإنما الإيمان حب في الله وبغض في الله فالمسلم متفاعل مع أهل الخير بالمودة بالحب والتعاون ؛ ومتفاعل مع أهل الشر أيضاً بالكراهية بالبغضاء ؛ والمقاومة والمقاطعة ؛ والنهي عن المنكر؛ حتى يفيء إلى أمر الله — لأن الأمر جرد لا هزل .

وما الحياة إلا صراع بين هذين الأمرين .

ويلحق بذلك التعاون على البر والتقوى — لأنك لو أحببت قوماً فإنك تتعاون معهم على ما فيه الخير والمصلحة — وإذا كرهت قوماً فلا تستطيع أن تتعاون معهم ... ولذلك جعل الله التعارف هو سر الوجود لقوله تعالى «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» والتفاضل بين الناس يكون بالتقوى .

إن التعاون بين الناس يخفف الآلام؛ ويسد العوز؛ ويؤكد الحب في الله ، إذ لا فائدة في أنك تقول إنك تحبني في الله ثم تتركني جائعاً أو عارياً أو مظلوماً دون أن تنصرنني ... فنصرة المسلم لأخيه المسلم فريضة ... قال عليه الصلاة والسلام «المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته — ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» .

ومن دلائل كرم الرسول صلى الله عليه وسلم وعدله أنه لم يميز أحداً من أهله وذوي قرابته على سائر المسلمين بشيء قط ، وإنما أوصى المسلمين بأن يرحمهم وأن يهدوهم ما يسد عوزهم إن احتاجوا — لأن الصدقة محرمة عليهم إلى يوم القيامة . قال تعالى «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» .

ولا تبقى من كرامة لأحد إلا بالتقوى كشأن سائر المسلمين لما ورد في

حديث أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «آل محمد كل تقي» رواه الطبراني .

فلا كرامة لمسلم فاقده التقوى ، ولو ادعى أنه من آل محمد صلى الله عليه وسلم . فالمؤمنون أخوة يتفاضلون بالعمل الصالح ولا شيء سواه .

ومن أخلاق المسلم كذلك العفة وعزة النفس وغض البصر عن محارم الله .

فالمسلم لا يطمع في مال أحد ولا في نعيم غيره — قال تعالى «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير» فالعفة من الخصال الحميدة .

روت كتب السيرة أن اثنين من الصحابة أحدهما مهاجري والآخر أنصاري تأخيا في الله ، فقال الأنصاري لأخيه : «يا أخي هذا بيتي أقسمه لك قسمين وهاتان زوجتاي ، انظر أحبهما إليك أطلقها لك وتزوجها فكانت العفة من جانب أخيه (وهو عبد الرحمن بن عوف) أن قال له «يا أخي أمسك عليك مالك وزوجاتك وإنما أنا رجل تاجر فدلني على السوق» .

إن الكرم من أي جانب ينبغي أن يقابل بالعفة من الجانب الآخر، حتى لا يكون المسلم نهماً شراً ، بل يكون قانعاً بما آتاه الله من رزق ، كذلك عزة النفس لقوله عليه الصلاة والسلام «أطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير» .

ومن الأخلاق الكريمة كذلك العزة الإسلامية .

يقول الله تعالى «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ولا بأس من أن يطرق الإنسان الأبواب التي يرجي منها قضاء أمر ما — ولكن على المسلم أن يستيقن في كمال حال بأن الأمور بيد الله عز وجل «وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، طويت الصحف وجفت الأقلام» .

فالمسلم عزيز بدينه ولكنه في نفس الوقت متواضع ذليل على اخوانه المؤمنين ، لقوله تعالى «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» .

ومن أخلاق المسلم كذلك العفو والرحمة وكظم الغيظ لقوله تعالى «ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور» وقوله تعالى «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس» فيجب العفو عن أساء للإنسان، ورحمة الضعيف والأرملة والمسكين، لقوله عليه السلام «إني أخرج على الضعيفتين المرأة والريق» .

ومن كمال الأخلاق كذلك حسن المعاشرة وتوقير أهل الفضل واحترامهم، فليس حسناً أن يتناول الصغير على الكبير، ويتناول الجاهل على العالم، فإن الله تعالى فضل بعض الناس على بعض في الرزق، وفي المنزلة أيضاً — وطلب منا أن نحفظ أقدار الناس، حرصاً على بقاء المجتمع على ما أراد الله عز وجل .

وحسن الخلق باب كبير واسع، سوف نورد طائفة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتصل بحسن الخلق ومن أخلاق المسلم كذلك الطاعة في المعروف .

إذا أمرك إنسان أمراً ليس فيه مخالفة شرعية ولا عدوان على أحد فلا بأس أن تطيعه، فإن الطاعة تزرع المحبة في قلب الأمر، وتَجَمَل الحياة، بينما ترى الجدال مَذْمُوماً في الإسلام يقول عليه السلام «أنا كفيل ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقاً» . والمراء هو الجدال — فالنبي عليه السلام يبشر ببيت في الجنة لمن ترك الجدال حتى لو اعتقد أنه صاحب حق، يترك ذلك لأخيه إثارة له بالمودة والمحبة، لأن المراء لا يأتي بخير.

ومن أخلاق المسلم كذلك فعل الخير والتعمير، وهو أن يعمل المرء على عمارة الدنيا أو ييسر أمر الناس فيها، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيم، إلا كانت له صدقة» متفق عليه .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا

تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم — أفشوا السلام بينكم» رواه مسلم .

ونحن عندما نتكلم عن الأخلاق الفاضلة ينهض بعض الماديين فيقول أن هذه مثاليات وخيالات لا تتحقق في عالم الواقع، لأن النفوس قد جبلت على حب الخير الذاتي، ولو أدى ذلك إلى صنع الشر للناس .

فنقول أن شريعة الإسلام قد نزلت متكاملة ولم تكلف الناس إلا ما يطيقون، ولم تفرض عليهم إلا ما يصلحهم، فمع أمر الدين لنا بالتزام هذه الأخلاق الفاضلة، قد ضمن الشرع لنا الحقوق الأساسية، ووفر علينا كل عنت وارهاق، قال تعالى «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» ثم ضبط استمرار الفضائل الإنسانية بالوسائل الآتية :

١ — الحكومة الراشدة: وهي التي تقوم برفع المظالم، ومعاقبة المعتدي وقسمة الأرزاق، وتثقيف الناس .

٢ — خصلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي توجد المجتمع المتكامل .

٣ — إنزال العقوبات كالحدود والقصاص والتعزير، فلم يترك الناس سدى، موكولين لأخلاقياتهم فقط . قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» .

٤ — الثواب والعقاب الأخروي فكل إنسان يعلم بمقتضى إيمانه، إن ما فات في الدنيا لا يفوت في الآخرة .

وأنت تلاحظ أن آيات القرآن الكريم، وهي تتكلم عن الأخلاق والشريعة تربط الخطيئة بجزاء دنيوي وجزاء أخروي — بينما القوانين الوضعية لا تشير إلى أمر الآخرة، ومعنى هذا أن يفكر المنحرفون في الاحتيال على شأن الدين والدنيا، ويعتبرون الأمر منتهياً .

بينما المسلم يحسب حساب الآخرة، وهو بذلك دائم التخلق والانضباط ...

ومن سياسة الإسلام رفع الحرج وتقدير الضرورة ومعلوم أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أوقف تنفيذ الحدود في عام المجاعة .

الأخلاق بين الثبات والتغير

إن الذين لا يرتبطون بدين ولا يؤمنون بالله ، و يعبدون المصلحة وحدها ، يقررون أن الأخلاق تجري وراء المصالح ، وتتكيف بحسبها ، وليست هناك أخلاق ثابتة — فالكذب مثلاً يصبح جائزاً إذا جلب لصاحبه نفعاً — والصدق لا يكون فضيلة على كل حال ، فقد يكون مذموماً إذا سبب لصاحبه ضرراً — وهذه النزعة الخبيثة تدمر المجتمعات ، وتضر بالناس .

لكن الأخلاق في دين الإسلام لها صفة الثبات ، فالشجاع شجاع في ضعفه وقوته ، والكريم كريم في فقره وغناه ، قيل يا رسول الله أي الصدقة خير؟ قال «أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغني وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان» .

والصادق صادق في عسره ويسره، قال تعالى «والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» البقرة .

الأخلاق في خدمة المجتمع :

ولم يجعل الإسلام أمر الأخلاق شيئاً شخصياً ، مجانباً لشئون الحياة ، بل جعلها إلى جانب ذلك نفعاً لكل الناس ، وتيسيراً لشئونهم ، ففي قضية تيسير المواصلات مثلاً ، ورد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تكون إبلى للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبلى الشياطين فقد رأيتها ، يمر أحدكم ببيعير له قد سمن على أخيه قد انقطع فلا يحمله — أما بيوت الشياطين فلم أرها» قال راوي الحديث لا أراها إلا هذه الأقساط (القصور) التي يسترها الناس بالدباج ... فالحديث الشريف ينبه إلى ضرورة نقل المحتاجين تطوعاً ، والتعاون على بناء المساكن النافعة ، بدلا من القصور الفارهة .

وفي تصور الموت والحياة يقول صلى الله عليه وسلم: « لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه ، فإن كان لا بد فاعلا فليقل » اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كان الموت خيرا لي » وفي رواية البخاري عنه صلى الله عليه وسلم: « لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد خيرا ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب » . أي يتوب من ذنبه .

يقول صلى الله عليه وسلم: « يا نساء المسلمات ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » يعني لا ترى عيباً أن تهدي لجارتها ولو قدم شاة مطبوخة — وقال صلى الله عليه وسلم: « كل معروف صدقة » وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا أحسد إلا في اثنتين ، رجل أتاه الله مالا فصلته على هلكته في الحق ، (أي أنفقته في سبيل الحق) ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

وبعد فهذه طائفة من الآداب ، والأخلاق ينبغي لكل مسلم أن يتمسك بها ، وأن يحرص عليها . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(التعليم والوظيفة والعمل)

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين — والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

لعل هذه المحاضرة تصور مشكلات الشباب في كثير من الأقطار...

وقد أجريتها على حوار داريني وبين ابن أخي... فعندما رجعت من سفر لقيني وهو شاب مكتمل الجسم لكنه شاحب الوجه شارد الفكر — وقال يا عمي: «ألا هنأني؟» قلت بماذا؟ قال: «لقد نجحت في السنة النهائية من دراستي في كلية التجارة» قلت: «مبارك» . فصمت قليلا — ثم قال: «ألا عزيتني؟» قلت «فيمن؟» قال «في نفسي» . إذ أنني لا أجد عملاً ولا أجد وظيفة، ولا أجد زواجاً، وقد أصبحت عاطلاً .

قلت «لقد عهدتك عاطلاً منذ عشرين عاماً» قال إن التلاميذ في هذه البلاد لا يعملون شيئاً ما داموا منشغلين بالتعليم قلت «ولا يعملون شيئاً إذا أموا التعليم» قال «صحيح» .

قلت ولماذا لم تعمل؟ قال إن أحداً لم يكلفني بعمل . قلت إن أحداً لم يمنعك من العمل — إنما هو التدليل — ذلك أبواك ولم يدرباك على شيء من العمل في أخصب فترات الانتاج — يا بني أنت وأخوتك الخمسة ضحية لما فعله «المستر دنلوب» قال وما «المستر دنلوب»؟ قلت الكاهن الانجليزي والمستشار التربوي، الذي زرعه في وزارة التربية والتعليم بمصر، في أول عهدها بالاستقلال، فوضع خطوط التعليم التي لا تخرج أحداً قادراً على العمل؛ إنما تخرج كتاباً وموظفين يخدمون السادة الإداريين في الحكومة .

إن تخطيط التعليم والتدريس عندنا تخطيط عجيب، لا يناسب دولة نامية أبداً — يظل الطفل كلا على مولاه وحملًا على أهله من سن الثالثة إلى سن

الثلثين — وبعد أن يتخرج يفكر أول ما يفكر في أن يكون خادماً مستخدماً، ولا يتطلع إلى عمل، ولا إلى صناعة ولا زراعة ولا إنتاج، وهوبين ذلك إن نجح، لا يستطيع أن يكلمه أحد في الاجازة الصيفية، وما أطولها لأنه ناجح، وإذا رسب فلا يستطيع أحد أن يكلمه ولا أن يكلفه بعمل في الاجازة الصيفية، وما أطولها لأنه راسب، وسيدأكر من جديد، فنشأ جيل عاطل ..

أنت وأخوتك الخمسة تمثلون عشرين مليوناً من أبناء هذه الأمة هذا شأنهم منذ نصف قرن أو يزيد — وسيظل الأمر كذلك — إلا إذا تحول الناس إلى خطة جديدة — ونظرة أخرى في التربية مثل ما يفعل العقلاء في كل بلاد العالم ... إنهم يجهزون أبناءهم للحياة والعمل والكفاح؛ مع استمرارهم في طلب العلم .

قال الفتى وهل كان العلماء منشغلين بطلب الرزق؟ قلت نعم أو ما سمعت عن الشيخ القطان والشيخ الفحام والشيخ النجار والشيخ البناء والشيخ الحداد والصواف؟ هؤلاء جميعاً كانوا يطلبون العلم وكانوا يطلبون الرزق في نفس الوقت — أما أن يظل نصف الأمة معطلا لأنه يقرأ الكتب فهذه جريمة لا تغتفر .

إن التعليم يا ولدي لا بدّ أن يسد حاجات الناس إلى ضروريات المعيشة ويجب أن يتمشى مع سن النضج الجنسي بحيث يصبح الطالب قادراً عل أن يتزوج وأن يعيل نفسه وأن يبني بيتاً عندما يبدأ نضجه الجنسي أي في السابعة عشرة مثلاً أو العشرين من عمره؛ أما أن ينتظر إلى سن الثلاثين وتنتظره الفتاة مضربة عن الزواج، حتى تحصل على الدرجة العلمية، ثم تكبر عن سن الزواج ثم يفوتها القطار، وقد يذهب جاهلاً فهذه نكبة كبيرة .

إن التعليم يجب أن يكون خادماً لمصلحة الإنسان، لا أن يكون معوقاً لمصالحه .

قال الشاب ونحن هنا ننتظر شيئاً آخر بعد اتمام التعليم، ننتظر خدمة الجيش التي تستمر سنتين أو أكثر، ثم نتقدم لمكتب التنسيق، وهذا المكتب الذي يوزعنا على المصالح الحكومية الوظيفية إن وجدت وربما تكون مسافتها بعيدة فتصبح غير مجزية لأن انتقالنا على حسابنا .

قلت هذا كله فعلته الحكومات لمواجهة ضرورات معينة وهو حصاد ذلك الهشيم — أما الغلطة الأساسية فهي من التخطيط الأساسي — إن البلاد المتقدمة بدأت تبحث أمر الدراسات المهنية — وذلك لاحتياجات برامج التنمية وعندها يستطيع الطالب بمجرد أن ينفذ يده من المدرسة، أن يجد مجالاً رحباً لكسب العيش، و يكون قادراً على ذلك.

أما أن تقوم الأمور على الدراسات النظرية، ثم ينشأ جيل خائب، كل مؤهلاته أن ينتظر المعونة من غيره، أو يرى البطولة في غيره، فهو يتفرج على لاعبي الكرة، أو أن يضحك مع الضاحكين، أو يهزل مع الهازلين، ثم يأتي لأبويه العاجزين الفقيرين، فيقول لهما «زوجاني» فقد أحببت بنت فلان، وأريد أن أتزوج حالا، أنه شيء غير معقول.

قال الشاب لقد نكأت الجراح يا عمي فقد كنت معها بالأمس، وبقينا طويلاً نتحدث، لأن الطريق أماناً مظلم، والمستقبل قاتم، قلت له قل لها ما قاله أحد ملوك بني الأحمر وقد حاصر النصارى قصره في أشبيلية وهو يبكي مع إحدى جواريه ويقول لها:

«تمتع بدمعك لا تفنه فبين يديك بكاء طويل».

قل لخطيبتك بين يديك بكاء طويل — فالطريق أمامكما لا زال مجهولاً، ولا يعلم إلا الله متى تتزوج وكيف ترزق.

هذه قصة التعليم في إحدى البلاد العربية، ونظيرها في معظم البلاد الإسلامية — فأطرق الشاب ملياً ثم قال وما العمل؟

قلت دعني أنقلك نقلة إلى التاريخ الإسلامي القديم لعلك تجد شيئاً لم تعرفه من قبل — كان الناس أمة واحدة وكانوا لا يعرفون هذا التعليم النظامي فكان الولد ينشأ مع أبويه — إن كان نجاراً فهو صبي النجار — وإن كان فلاحاً فهو مساعد الفلاح — وإن كان صانعاً فهو معه عند الآلة يتعلم تحت إشراف أبيه — وهو مع ذلك يدرس القرآن وفي دراسته للقرآن الكريم وكتابته له يتعلم

القراءة والكتابة والحساب وسرعان ما تزول عنه الأمية وتبدأ يده تتدربان على الصناعة بتدرج النمو الجسماني .

هكذا كان الحال في مجتمع حر طليق فلا قيود ولا رسوم ... إنه مجتمع خال من الضرائب والجمارك والقهر والمتابعة والاحصاء ... هناك كان كل شيء هيّئ وأرض الله واسعة لمن يريد أن يهاجر فيها — فكانت الدولة غير مسؤولة عن تعليم أحد ولا عن توظيف أحد ولا عن رزق أحد فالحمل لمن يريد والهجرة لمن يهاجر والله هو الرزاق وهو الفعال لما يريد .

وبمناسبة ذكر الجيش والجهاد كانوا إذا فتح باب الجهاد هبّ الناس متطوعين له ، بدافع من إيمانهم ، وكل إنسان يجهز نفسه من ماله الخاص ، سلاحه من عنده وطعامه في مخلاته — وسرعان ما يودع أهله ويتوكل على الله ، يجاهد لإعلاء كلمة الله ، بحب وشغف وكانوا يتقاتلون على صف الجهاد حتى ليتناول الولد القصير رجاء أن يقبل مع المجاهدين ويقول « هاأنذا كبرت وأصلح للجهاد خذوني معكم لا تتركوني مع الأطفال فأنا كبير » وتخرج البيوت من فيها من الرجال القادرين والشباب — وبعد المعركة يعودون إما بالشهادة وإما بالغنيمة والظفر — هذه قصة الجيش أيضاً .

ولما استوردت الثقافات في العصور المتأخرة ، استوردت معها القيود الكبيرة ، وإذا ذكرت عشرة أشياء تجدد تسعة أشياء منها ممنوعة ، ولقد تمددت سلطات الدولة في بعض البلاد ، وأصبحت هي الأمر الوحيد والناس مجموعة من الأصفار يقف وراءها رقم واحد لكي يعطيها قيمتها .

إن مشكلتنا تكمن في استيراد كل شيء حتى الفكر ، نستورده بدون تمييز ، وهناك بلاد ليست شيوعية ، لكن تخاف من قدوم الشيوعية إليها ، فيريدون أن يقولوا : إننا أنصفنا العمال والطبقة الكادحة ونحن مثلكم في كل شيء فلا داعي للثورة الحمراء .

وقد يدخل في هذا الأسلوب أن تزدد السيطرة على الشباب عن طريق التوظيف والتعليم ، بهذه الطريقة لأسباب أمنية ، حتى يظل الطالب منكسر

النفس خائفاً من الرسوب، ولا وقت عنده للعمل، بسبب ثقل المناهج، ولا يملك آلة يتدرب عليها، بل لا يجد يوماً فارغاً، ولا وقت للتفكير، ولا للعبادة، ولا للتعرف على واقع الدنيا، ويعجز عن أداء أي شيء — فابن الفلاح لا يستطيع أن يزرع الأرض كأبيه، وابن الصانع لا يستطيع أن يدق مسماراً في خشبة كأبيه، لأن هذا الجيل يتمتع بالأيدي الناعمة والثياب المصقولة.

على أنه توجد فئات من السكان في بلاد الإسلام، تعيش بطريقتها الخاصة وترفض هذا الإسلوب، فهم يتعلمون في مدارسهم الخاصة، ويرفضون الوظائف الحكومية جملة وتفصيلاً — وربما تجدهم يعملون بالشركات الأجنبية بسبب إتقانهم للغات الأجنبية، وهم بذلك يصلحون للتصدير للخارج، فيهاجرون ويغنمون ويعودون بثروات طائلة، بينما أبناء البلاد أكثرهم يتضورون جوعاً، ويهيمنون على وجوههم في الطرقات.

قال الفتى: ولماذا تعهدت الدولة بتوظيف كل الخريجين؟ قلت لقد تعهدت الدولة بتوظيف جميع الخريجين من المدارس على اختلاف نوعياتهم، اتباعاً للخطة الاشتراكية التي بشروا بها، ومعنى ذلك أن كل هذا الجيش «المثقف» يعيش على صندوق مال الدولة.

قال الفتى: وما معنى البطالة المقنعة؟ قلت: معناها أن هناك أشخاصاً لا انتاج لهم، ولكنهم محسوبون في الهيئة العاملة، و يتقاضون أجوراً على وظائفهم، فننظر في داخل المكتب فتجد عشرة من الموظفين منهم واحد فقط يشتغل، والباقون يأكلون أو يشربون أو يتبادلون الحديث الفارغ، على هامش السياسة، أو يحلون الكلمات المتقاطعة من الصحف والمجلات، ولا انتاج لهم فهم عاطلون في داخل المكتب.

قال الفتى: وعلى ذكر الوظائف يا عماء لماذا تكاثرت شكاوى الناس من أعمال الموظفين؟

قلت: يا ابن أخي، لقد أصبحت الحاجات كثيرة، والأوراق كثيرة، وتدور مصالح الناس في حلقة طويلة من الروتين بين المكاتب والإدارات بسبب

تشابك القوانين ، ويستطيع أي موظف صغير أن يعطل عملاً كبيراً ثم لا تقضى المصلحة بعد ذلك إلا بالرشوة .

قال الفتى : ولماذا لا تقضي الدولة على الرشوة والمرتشين ؟ قلت : هناك عوامل كثيرة تحول دون هذا العمل ، أن هذه العملية المحرمة تتم عادة في الخفاء لأن القانون يعاقب الراشي والمرتشي ، والناس في تسرعهم وأنايتهم يكتفون بالاتفاق على انجاز المعاملة دون التبليغ عنها — ومنها أن المسؤولين في الدولة عندما يعجزون عن إرضاء جيش الموظفين بتقديم الأجور المناسبة صاروا يغمضون العين عن مثل هذه الأمور — ومنها أن فوارق كبيرة حدثت في الأجور ومستوى المعيشة بين اثنين من العاملين الزملاء كما أشرنا سابقاً — أحدهما أتيحت له فرصة الهجرة — فهذا الذي بقي ولم يهاجر يشعر بالظلم ولا بأس عنده من ترك العمل نهائياً ولا يوجد من يسد مكانه .

قال الفتى : وماذا يجب على الموظف الذي يريد أن يخدم الوطن و يرضي الله في عمله ؟

قلت : إن قبول الإنسان للعمل عند الحكومة أو عند إنسان آخر معناه أنه باع جزءاً من وقته وجهده لتلك الجهة — فأول ما يلزم له هو استشعار المسؤولية عن جهده في ذلك الوقت أمام الله أولاً ؛ ثم أمام المجتمع ؛ فلا يحل له أن يضع شيئاً من هذا الوقت في غير مصلحة العمل ... وكذلك أمانة حفظ المال والمصلحة لأصحابها ... فلا يحل له أن يأخذ شيئاً من هذا المال إلا بحقه ولا أن يضع شيئاً من مصلحة العمل ؛ بل عليه أن يحرص عليها حرصه على ماله الخاص وأشد .

ومن الواجب عليه كذلك حفظ أسرار العمل فلا يذيع شيئاً من ذلك لعدو أو صديق إن رأى أنها تلحق بالعمل ضرراً مباشراً أو غير مباشر .

ومن واجبات كل موظف في حدود عمله أن يسعى لإفادة الجهاز الذي يعمل فيه بقدر ما يستطيع — ولا يركن للتواكل والكسل ، باعتبار أن رزقه سيصل إليه في آخر الشهر .

ومما يؤسف له أنك ترى عشرات العاملين في المصالح الحومية والشركات

التابعة لها، لا يكاد الواحد منهم يؤدي عملاً مهماً، إما بسبب سوء توزيع العمل من جانب الرؤساء المسؤولين، وإما بسبب قلة الورع، وضعف الشعور بالمسؤولية في النفوس، فقد قال صلى الله عليه وسلم «من أخذ الأجرة حاسبه الله على العمل» وقال أيضاً «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

ومن واجبات الموظف أيضاً أن يتعفف عن ما ليس له بحق، وأن لا يتنافس في السفر للمؤتمرات للحصول على البدلات... وغيرها، وأن يضع في حسابه دائماً — أن هذا المال العام إنما هو ملك كل أفراد الأمة بما في ذلك جملة من الفقراء واليتامى والمساكين، وأن الله سوف يسأله عن ذلك.

ومن واجبات الوظيفة كذلك، الاخلاص لله، والنصح لأصحاب العمل، ورفضه الخيانة والعمالة، بكل أشكالها.

فقد كشفت التحقيقات في دول شتى عن قضايا الجاسوسية والعمالة التي تورط فيها موظفون في الدولة لصالح أعداء الدين والوطن.

قال الفتى: ألا ترى معي أن على كل رئيس عمل أن يلزم من معه من العاملين والموظفين بالاستقامة والسير على ما تقدم؟

قلت: لو صدق العزم وضح السبيل. وكثير من الرؤساء يقوم بذلك فعلاً وقد انقطعت في محيطه أسباب الشكوى، لكنك ترى في معظم الإدارات «أن رئيس العمل أو المدير» لا يملك أن يعين أحداً ولا أن يعزله، وربما لا يستطيع أن يحاسبه على الخطأ — بل تتولى ذلك إدارات أخرى... لهذا يحصل الإهمال والتسيب وتزداد أسباب الشكوى.

قال الفتى: اسمح لي أن أسأل عن العمل الحر ومجالاته فكيف يستطيع الإنسان أن يبدأ عملاً حراً بنجاح؟

قلت: إن الأمر كما قال الشاعر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

فالاقدام على المشروعات الجديدة ليس سهلاً، ولا بد أن يتم التصور

الصحيح لجملة من الخطوات الواجبة أولاً — بعض الناس يجدون ذلك سهلاً بالنسبة لتوفر بعض الامكانيات لدى عائلاتهم، كتوفر السيولة المالية أو المبنى أو السمعة التجارية، أو الخيرة العملية والعلاقات الخ. وبعض الشباب لا تتوفر لهم كل هذه الامكانيات ولا بعضها.

فبالنسبة للأولين يكون البدء أيسر والنجاح أقرب — فما على الشباب في هذه الحالة إلا أن يعزم ويقنع أهله بهذه النية، وأنه سوف يكافح ويحتمل مثل ما احتملوا، بصرف النظر عن الشهادات التي يحملها (وهذه العبارة واردة ومهمة) لأن أهل التجارة يخافون من حملة المؤهلات و يتهمونهم بالغرور، وأنهم قلما يصلحون لشيء، فيجب تطمينهم وتصحيح نظرهم الخاطئة.

وبالنسبة لمن تتوفر لهم الامكانيات، نقول إن تيسرت لهم الوظيفة فلا بأس أن يقبلوها كمرحلة مؤقتة يتم خلالها البحث والنظر، مع شيء من الاقتصاد حتى يقضي الله أمراً... وإذا لم تيسر الوظيفة، فليتسلح الشباب بالثقة بالله ثم بنفسه، و يبدأ بداية بسيطة مهما كانت.

إن هناك أموالاً مكدسة لدى بعض الناس ولدى بعض البنوك الإسلامية لا يعرفون كيف يستغلونها — ويمنعهم من طرحها للاستثمار عدم الثقة في أمانة الناس أو في كفاءتهم، فإن وجدوا شاباً متعلماً حمل نفسه على الصبر وبدأ الكفاح العملي وشهد له الناس بالكفاءة والأمانة فلا يلبث أن يجد منهم الامداد بالسيولة/ ثم أن روح التعاون شيء عظيم انها وسيلة البناء لأعظم المشاريع وأنفعها.

ولقد رأيت في سويسرا (التي تغطي معظم أنحاء العالم بصناعة الساعات وغيرها من الصناعات الدقيقة) لاحظت عدم وجود مصانع كبيرة لانتاج تلك الصناعات، وإنما هي مساكن صغيرة متناثرة في الحقول الخضراء، تختص كل فيلا بصناعة جزء من آلات الساعة، ففي هذه الفيلا تصنع عقارب الساعة، وهناك يصنع غلافها، وكل واحدة ترتبط بغيرها، وتؤدي عملها بدقة ومهارة، ثم تسلم لإنتاجها لعنابر التجميع، حيث تخرج الساعة مكتملة، ويتم ذلك تحت إشراف الدولة، وتشجيعها.

و يستطيع الناس مهما صغرت أرضهم أن ينتفعوا بها بالانتاج الزراعي ،
والآن بدأت بعض الدول تتجه إلى اقامة المؤسسات الفنية والمدارس التعاونية ،
ولا زالت هناك عقبات تحتاج إلى الوقت حتى يتم تذليلها — إننا ننادي
باستعادة الثقة بين الناس ، وننادي بوجوب تسليم الأرض لمن يزرعها أو يبنّيها ،
ولكن بمساعدة الحكومة لا بوجود القوانين التي تشل حركة الحياة ويكون عقد
الايجار إلى أجله فقط .

ثم تسلم العين لصاحبها ، وننادي بتقليل المنوعات وتسهيل القوانين وفتح
باب المبادرة لأصحاب النشاط والمواهب .

فإذا أرادت الأمة أن تسير على الدرب الصحيح لانقاذك يا ولدي وانقاذ
أمثالك من الشباب ، الذين هم عدة الأمة وثروتها وفخرها ، فيجب أن يعاد النظر
في أمور كثيرة .

واني أسألك الآن هل تستطيع أن تزرع الأرض ؟ قال لا أدري قلت هل
تستطيع أن تصنع الخشب ؟ قال لا أدري فقلت له إنك تستطيع كل ذلك
بقليل من التدريب ولو أعطيت قرصاً حسناً لمدة معينة ، وتم تدريبك على يد رجل
صالح ، فإنك تستطيع أن تكسب شيئاً قال لا أستطيع .

قلت لا يمنحك إلا الكبير — فإن أنت أبعدت عن نفسك غرور الشهادة
فسوف تعمل وتكسب ، ويمكنك مع تلك التي تحبها أن تتعاونوا على خير ، وأن
تؤسسا بيتاً في حدود الاقتصاد فالعفش عفش ، والوهم وهم ، ثم أن النفاق
الاجتماعي ضاعف من تأخيرنا — لكن فكريا بنّي وحاول ، وابدأ من الآن ،
ولن يطول بكما عهد حتى يرزقكما الله رزقاً حسناً ، لا تيأس يا ولدي ، فأنت
ضحية لغلطة أنشأها غيرك ، ولكن الأمل في الله عظيم ، وقوة الشباب قادرة على
أن تصنع الكثير ، لو كان معها الإيمان بالله والتوكل عليه .

وأنت مسئول أن تريح والدك أو والديك ، وألا تكون عبئاً عليهما ، وعندها
يتم لك الخير الذي نرجوه لك ولأمثالك من شباب هذه الأمة .

قال الفتى: هل تعيب عليّ أن أتخيل؟

قلت: كلا — بل أن التصور والخيال ضروريان للنجاح... إن كل العلوم (حتى العملية منها) تبدأ بالنظرية والنظريات تقوم على التصور والافتراض والخيال — ثم تتجمع الفكرة وتنتظم... ثم تخرج إلى حيز الوجود.

قال الفتى: دعني أتخيل أنني سأتزوجها... بل إننا نعيش في هذا الخيال المبهج كلما التقينا — وننسى الواقع الأليم... ونتحدث عن البيت والأولاد وأخيراً نضحك من أنفسنا كما قال شوقي رحمه الله:

كم بنينا من حصاصها أربعا وانشيننا فمحونا الأربعا
فماذا تشير عليّ لكي أكون زوجاً ناجحاً؟

قلت: هذا سؤال جيد — ودعني أسير معك في طريق الخيال لأصل معك إلى الواقع؛ ولا بأس أن تقول لها بعض هذا الكلام — «فستذكرون ما أقول لكم وافوض أمري إلى الله... إن الله بصير بالعباد».

يا ابن أخي: لا شيء يحفظ الأمن في البيت إلا الدرجة... قال وما الدرجة؟ قلت هي التي قصد ربنا إليها بقوله «وللرجال عليهن درجة»، فإذا نسي الرجل حقه في هذه الدرجة فقد أصبح امرأة؛ وإذا أنكرت المرأة على زوجها حقه في هذه الدرجة فقد زرعت بذرة الشقاق في البيت.

إنها شركة أخوية إنسانية حياتية تجارية، فهل رأيت شركة تجارية بلا مدير؟ وإن الدعوة للمساواة الكاملة بحيث تزيل هذه الدرجة دعوة مدمرة... أنجزت مهمتها حتى رفضها الناس.

قال: أليس ديننا دين المساواة؟ قلت بل هودين العدل والإحسان... وهذا العدل أفضل من المساواة — لأنه يتحقق عملياً أما المساواة فلا تتحقق إلا جزئياً وذلك بالنظر إلى اختلاف مخلوقات الله في القدرات الجسدية والعقلية والنفسية.

انظر إلى التعبير المعجز في قول الله تعالى «وهن مثل الذي عليهن بالمعروف» أي أن لها حقوقاً محددة تقابل واجبات محددة وليس المساواة

الكاملة . فالمرأة التي تفهم هذا — تعيش سعيدة وتمنح السعادة لمن حولها ...

الأمر الثاني — وجود الحب المتجدد الذي لا يرتبط بالشهوات وحدها ... إنما يعتمد على عوامل دينية وأخلاقية واجتماعية ...

فكثير من الرجال يتاجر على المرأة برجولته وحدها — ثم هو بعد ذلك بخيل في النفقة؛ أو قاس في المعاملة؛ أو ظالم في القسمة؛ أو متكبر في نفسه ... وكل ذلك يزرع النفور ويميت الحب — ولومات الحب مات البيت واختنق الأ ولاد .

وبعض النساء تتاجر على الرجل بجمالها وانوثتها وحدها — ثم هي بعد ذلك متمردة على طاعته؛ مسيئة لعشرته — متطلعة لغيره — لا تشكر نعمة ولا يرضيها شيء — وكل ذلك يزرع النفور ويميت الحب .

أعرف أزواجاً مر على زواجهم أكثر من خمسين عاماً، ولا زالوا يعيشون اسبوعهم الأول من الزواج .

ولا أدري لم لا تعرض هذه النماذج الصالحة من الأزواج على المشاهدين والسامعين من خلال وسائل الاعلام ... ولماذا هذه النكبة المرسلة على الناس بتصوير كل زوج خائن وكل زوجة لثيمة؟

قال الفتى: وماذا عن الموارد المالية للحياة الزوجية الفارحة المستقرة؟

قلت: أن المال في الحياة الزوجية وسيلة واحدة من الوسائل العديدة للهناء العائلي ... وليس هو كل ما يلزم للاستقرار ... بل ربما تصبح وفرة المال سبباً للشقاء .

اعرف الكثيرين عاشوا بخير متحابين عندما كانوا فقراء — فلما اتسع الرزق برزت قرون المشاكل؛ واشتد الصراع حتى وقع الطلاق أو الزواج الثاني .

ولقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم مع تسع زوجات في تسعة بيوت؛ وربما كان لا يوقد في أحدها نار لطعام يطبخ مدة ثلاثة أشهر متوالية؛ وجميعهن جاءوا من بيوت مترفة غنية — ومع ذلك كن في منتهى السعادة يتنافسن في رضى الزوج المثالي محمد صلى الله عليه وسلم .

بل انه خيّرهن في أن يسرحهن باحسان للبيوت الغنية التي كن فيها؛ فامتنعن باجماع ورضين بهذه العيشة الخشنة وهذا شأن أكثر النساء — حتى في هذا العصر فالمرأة تعيش بعواطفها ...

قال الفتى: وإذا نشأت المشاكل في البيت فمن المسئول بالدرجة الأولى؟

قلت: لا يمكن اصدار حكم عام في قضية كهذه — فكل نزاع يدرس على حدة؛ ولكن تجربتي في الاصلاح بين العائلات — تهدي إلى القول بأن الرجل هو المسئول بالدرجة الأولى؛ وذلك لأسباب عديدة منها:

● أنه المسئول عن رئاسة البيت؛ وعن النفقة في الغالب — فجميع المشاكل التي تتصل بالادارة هو مسئول عنها — والمشاكل التي تتصل بالشئون المالية والنفقة هو المسئول عنها أيضاً.

● وباعتباره الأقوى — فهو المسئول عن فساد واصلاح المسائل العاطفية — تأمل قوله تعالى «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض» (أي في التكوين البدني) وبما أنفقوا من أموالهم (أي في طرق المعيشة والكسب).

● لكن فريقاً من النساء — ترجع إليهن المشاكل أيضاً — إما بسبب عدم فهمهن لمسئولية الزواج (كما أشرنا آنفاً).

وإما بسبب الانحرافات النفسية وغيرها — ولذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التسرع في الاختيار وقال «إياكم وخضراء الدّمة» قالوا يا رسول الله «وما خضراء الدّمة؟» قال «المرأة الحسناء في المنبت السوء» فكأن البيئة لها تأثير عظيم ... إذ تحن المرأة إلى الأمور التي تعودت عليها منذ النشأة وتحاول أحياناً أن تلوي عنان البيت الجديد لكي تشبع تلك الرغبات المكبوتة ... فتحصل المخالفة.

أما إذا رضيت المرأة بالوضع الجديد وحمدت الله على أنه وفر لها الزواج والاحصان؛ ولم تمد عينها إلى ما متع الله به غيرها — ثم تركت كل أسباب

العناد والانحراف ؛ وعرفت حق الزوج بصدق — فسوف تكون نعم الزوجة إن شاء الله .

وهناك تفاصيل دقيقة في حقوق الزواج والزوجة وواجبات كل منهما فليرجع إليها في الكتب المتخصصة — والله ولي التوفيق .

(مسائل الجاهلية)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين وبعد .

فهذه المحاضرة عنوانها «مسائل الجاهلية التي خالف الإسلام فيها أهل الجاهلية وعوائلهم وقواعدهم» . وقد كنت قرأت كلمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فيها «سيهدم هذا الدين شباب من أهله ، لم يعرفوا شيئاً من أمر الجاهلية» .

ووقفت على رسالة صغيرة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، بعنوان «مسائل الجاهلية ، التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية . وقد أورد فيها مائة نوع من هذه المسائل ، وأيدها بنصوص من كتاب الله عز وجل . ففي كل قضية من القضايا يورد ما جاء فيها من القرآن الكريم ؛ فهو قد نظم الموضوع بالسند وهي رسالة جلية ، عظيمة النفع توزعها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وقد حققها العلامة العراقي السيد محمود شكري الألوسي . ثم اختصرت أنا هذه الرسالة ، وبينت أنها ترجع في أصولها إلى خمسة أبواب أساسية :

الباب الأول : كفر الاعتقاد .

ويندرج تحته في معتقداتهم . الإلحاد في أسماء الله تعالى ، ونسبة النقص إليه ، والكفر باليوم الآخر ، ومسبة الدهر ، والكفر بالملائكة ، وإنكار النبوات وآيات الله ، والزيادة في العبادة أو النقص فيها ، واتخاذ القبور مساجد ، والبناء عليها ، والغلو في الأنبياء والصالحين ، وجحود القدر والاحتجاج به ، والإيمان بالجبوت والطاغوت ، والتكذيب بالحق ، ولبس الحق بالباطل ، وترك شرع الله مع ادعاء محبته . هذه عناصر جمعناها تحت عنوان واحد ، وهو كفر الاعتقاد .

الباب الثاني: رفض الحق ومساندة الباطل .

ومن ذلك ما كانوا يفعلون من تحريف الكلم عن مواضعه، وفساد المنطق، والجدال والقياس بغير علم، أو ضعف الفهم، والتكبر على نصرته الحق، وادعاء كل طائفة حصر الحق فيها، والاعتبار بعدم الفهم، والاستسلام لرأي الدهماء، واستدلالهم على بطلان الشيء بكونه غريباً عنهم .

أما الباب الثالث فقد سميته : الإجماع المقصود .

ومن ذلك المكر الكبار، وقتل أولياء الله، وتحريف كتب الدين وأحكامه، والمؤامرات والفتن، وارتكاب الموبقات، والمجاهرة بها، والاعتزاز بالبنين والأموال، وواد البنات، وظلم الرقيق والضعفاء .

الباب الرابع : فساد نظم الحكم والقضاء .

وتندرج تحتها الأبواب الآتية : لبس الحق بالباطل، والتكذيب بالحق والدين، والإقرار بالحق توصلاً إلى دفعه ورفضه، ورمي المؤمنين بالدين بتهمة الفساد في الأرض . وحالة علمائهم، تلقيب المؤمنين بألقاب غريبة، معاقبة الشخص بفعل غيره، وفساد مقاييس العدل، كتمان الحق مع العلم به .

الباب الخامس : السلوك المنحرف .

ويندرج تحته ما كانوا يفعلونه من الافتخار بالصنايع، وعظمة الدنيا في قلوبهم، والتقليد الأعمى، والاقتداء بالفاسقين والجاهلين، والتعبد بترك الطيبات، وتحريم الحلال، والانخداع بالمجاملة والحيلة، والمجاهرة بكشف العورات، والنيافة وإذلال الفقراء، وزعمهم أنهم أولياء الله، والقيافة والطيعة والكهانة، والسحر ومخالفة ولي الأمر في المعروف، والتفرقة بين الناس .

فإذا كانت العناصر التي ذكرناها آنفاً كلها من عمل الجاهلية، فإن كثيراً من المسلمين في هذا العصر يمارسون حياة كلها غير إسلامية، وهم مع ذلك يزعمون أنهم من خيار المسلمين، لمجرد أنهم يصلون أو يحجون أو يصومون، ويجب على الأخ المسلم في التربية الأساسية، أن يعرف مسائل الجاهلية حتى لا يقع

فيها، ونحن نقرأ كتاب الله ونسمعه بالليل والنهار، ولكننا لا نلتفت إلى ما فيه من عبر وأسرار، وهو أكثر ما يحذر من عمل الجاهلية، وعمل الكفر والكافرين .
واليك بيان ذلك من آيات الله الكريم .

أما قضية التقليد .

فقد قال الله تعالى في سورة الزخرف «وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون» الزخرف ٢٣ / ٢٤ .

وقال تعالى في سورة الأعراف «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلا ما تذكرون» الأعراف ٣ . وقال تعالى في سورة البقرة ١٧٠ «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آبائهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» والآيات في هذا كثيرة .
أما اقتداؤهم بالعالم الفاسق أو العابد الجاهل .

فقد ورد في سورة التوبة ٣٤ قول الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله» وقال تعالى في سورة المائدة ٧٧ «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل» .

وأما الاحتجاج بما كان عليه الآباء بلا دليل .

فمن ذلك قول الله عز وجل في سورة فاطر «قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، قال فما بال القرون الأولى، قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى» طه ٤٩ — ٥٢ .
وقال الله تعالى في سورة القصص ٣٦ «فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين» وقوله تعالى في

سورة المؤمنون «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم، ولو شاء الله لأنزل ملائكة، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين» المؤمنون ٢٣ - ٢٤.

وأما الاحتجاج على الحق بقلة أهله.

فمن ذلك ما ورد في سورة الأنعام «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون، إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» الأنعام ١١٦ / ١١٧. فأشارتعالى إلى أن الأغلبية من الناس لا تكون دائماً على الحق / بل إن الأثرية يرجح أن تكون على الباطل.

وأما الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريباً عنهم.

فقد ورد في سورة هود ١١٦ قوله تعالى «فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين».

وأما انخداع أهل القوة والحيلة بقوتهم وحيلتهم.

فمن ذلك قول الله عز وجل في سورة الأحقاف ٢٤ «فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا، بل هو ما استعجلتم به، ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، كذلك نجزي القوم المجرمين، ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، إذ كانوا يحجدون بآيات الله، وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن» الأحقاف ٢٤ - ٢٥ - ٢٦.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» البقرة ١٤٦ - ١٤٧.

وأما انخداع أهل الثروة بثروتهم .

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة القصص ٧٦ — ٧٧ «إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندي ، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون» القصص ٧٨ وقال تعالى في سورة سبأ «وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين» سبأ ٣٤ — ٣٥ . أي أن أهل الغنى يغترون بغناهم ، و يظنون أنهم لن يحاسبوا أمام الله .»

وأما الاستخفاف بالحق لضعف أهله .

والاستدلال على ضعف الشيء بأخذ الضعفاء به ، فمن ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء «كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما استلکم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، قالوا أنؤمن لك واتبعك الأذولون ، قال وما علمي بما كانوا يعملون ، إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين» وقال تعالى أيضاً في سورة هود «فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أزدالنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين» .

وأما وسم أنصار الحق بما ليس فيهم .

فمن ذلك يقول الله تعالى في سورة الأنعام ٥٢ — ٥٣ «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من

شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، فتطردهم فتكون من الظالمين، وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين» وقوله تعالى «عبس وتولى أن جاءه الأعمى» عبس ١ - ٢.

وأما استدلالهم على بطلان الشيء بأنهم أولى به لو كان حقاً.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة الأحقاف حكاية عنهم «وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم، وذلك بعد قوله «قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين». الأحقاف ١٠.

وأما غلوهم في الصالحين.

فمن ذلك ما ورد في سورة التوبة «وقالت اليهود عزيز بن الله، وقالت النصارى المسيح بن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنى يؤفكون، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون» فاتخاذ أحباء الله وأحباء الناس أرباباً يحللون لهم ويحرمون، وينادون في دفع ضرر أو جلب نفع، فهو من الجاهلية.

كان ذلك عندهم ثم صار إلى غيرهم من العرب، وتوجد اليوم بقايا لهذا في مشارق الأرض ومغاربها، تصديقاً لقوله صلى الله عليه وسلم «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع».

وأما الاعتذار بعدم الفهم.

فمن ذلك قول الله تعالى حكاية عنهم. «ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم

وفريقاً تقتلون». . والمقصود قوله تعالى «وقالوا قلوبنا غلف» أي مغلفة لا يدخلها شيء «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلًا ما يؤمنون» والأغلف هو الذي لا يفقه، وقولهم في سورة هود «قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولولا رهطك لرجمناك، وما أنت علينا بعزیز».

وأما التمسك بخرافات السحر.

فمن ذلك ما ورد في سورة البقرة. «واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون».

وقال تعالى في سورة الكهف ١٠٤ «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» وأن الفضيحة الكبرى لهؤلاء العابدين فيما يعبدون من خطأ وبدع وانتحال على الله، وهم يحسبون أنهم أعبد أهل الأرض، وهم ضالون لا يعرفون شيئاً، فمعرفة الحق الديني فريضة على المسلمين جميعاً.

وأما صرف النصوص عن مدلولها وتحريف الكتب.

فمن ذلك ما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون».

وأما الانصراف عن هداية الدين إلى ما يخالفها

فترى ذلك واضحاً في تصرفاتهم مع سيدنا موسى لما أتاهاهم بدين، فاتبعوا كتب السحر وكتب آل فرعون، ومثل هؤلاء من الأمة الإسلامية كثير، هجروا السنة وعادوها ونصروا أقوال الفلاسفة وأحكامهم،

وأما كفرهم بما مع غيرهم من الحق .

فمن ذلك قول الله تعالى «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء... وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم» .

وأما ادعاء كل طائفة حصر الحق فيها .

فمن ذلك ما ورد في سورة البقرة: «وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيتهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» البقرة ١١١ — ١١٢ .

وأما إنكار ما سبق أن أقروا أنه من دينهم .

فمن ذلك قول الله تعالى «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا إنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووضي بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون» قيل في سبب نزولها ما روي أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه إلى الإسلام ، فقال لقد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة إني باعث من ولد اسماعيل نبياً اسمه احمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون ، فلعنه «أبو المهاجر» فنزلت هذه الآية .

وأما مجاهرتهم بكشف العورات .

فمن ذلك ما ورد في سورة الأعراف ٢٨ — ٢٩ من قوله تعالى «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، اتقولون على الله ما لا تعلمون ، قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون» .

ومما يؤسف له أن غالب من ينتمي إلى الإسلام اليوم، ابتدعوا من الدين ما لم يأذن به الله، فمنهم من اتخذ ضرب المعازف واختلاط النساء بالرجال، وتلك المسابح على شطآن البحار، واللهو في بيوت الله ومساجده، والطواف حول القبور، والسفر إليها، والنذر لها، وجعل ذلك من أخلص العبادات، وأفضل القربات، ومنهم من ابتدع الرهبانية والحيل الشيطانية، وزعم أنه سلك سبيل الزهاد وطريقة العباد، ووصل إلى الله، وكل ذلك من الكذب الذي لا يحل لأحد، وهو من عمل الجاهلية.

ومن أعمال الجاهلية كذلك: التعبد بتحريم الحلال.

قال تعالى في سورة الأعراف ٣١ - ٣٢ «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، واكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون» ومعنى خالصة يوم القيامة يعني لا حساب عليها إن كانت حلالاً «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والباطل والبغي بغي الحق وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» وكل ما أشارت إليه هذه الآيات الأخيرة، هي من أعمال الجاهلية.

وأما الألحاد في أسماء الله وصفاته.

فمن ذلك قول الله تعالى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون» أي ادعوه بمعنى هذه الأسماء، وذروا الذين يلحدون في اسمائه أي يميلون وينحرفون فيها عن الحق إلى الباطل، وقال تعالى «كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم، لتتسلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هوربي، لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب» الرعد ٣٠.

وقال تعالى «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، وما كنتم تستترون

أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون» أي نسبوا الجهل إلى الله «وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين» فصلت ٢٣ .
وأما نسبة النقائص إلى الله .

فمن ذلك قوله في سورة الصافات ١٥١ - ٥٢ «ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وأنهم لكاذبون» وفي سورة الأنعام قال تعالى «وجعلوا له شركاء الجن وخلقهم، وخرقوا له (أي ادعوا أن له) بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصنعون، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم» وقال تعالى في سورة المائدة «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر من خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير» وقال تعالى في سورة المؤمنون ٩ «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله» وقال في سورة الإسراء «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيراً» والآيات في هذا كثيرة .

وأما تنزيههم المخلوق عما نسبوه للخالق .

فهم يقولون إن الله تعالى اصطفى ولدا وزوجة، بينما هم ينزهون أحبارهم عن ذلك، و يترفعون عن الزواج وعن الزوجة والولد، كأنه ذنس بالنسبة لهم، ولكنهم ينسبون ذلك لرب العالمين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وأما قولهم بالتعطيل .

فهو إنكار أن يكون للعالم صانعاً «قال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري» وهذا من إنكار نسبه الخلق إلى الخالق .

وأما إنكار النبوات .

فمن ذلك ما ورد في سورة الأنعام ٨٩ - ٩٠ ، قال تعالى «أولئك الذين

هدى الله فيهداهم اقتده، قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين، وما قدروا الله حق قدره، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» هذا إنكار «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً» وحقاً فإن التوراة قد أخفوها تماماً، «وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون» الأنعام ٩١.

وأما جحودهم واحتجاجهم على الله بالقدر.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة الأنعام «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون» أي تخمنون تخميناً.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الزخرف، «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، أشهدوا خلقهم، ستكتب شهاداتهم ويسألون، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علم، إن هم إلا يخرصون».

ومسبة الدهر لا تجوز، ومن ذلك قولهم في سورة الجاثية «وما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» أي تموت طائفة وتحيا طائفة أخرى تتناسخ فيها، فلا حشر ولا بعث ولا نشور أصلاً، وكثير من قومنا — للأسف — لا يزالون يقولون بالتناسخ، وهذا من الكفر الصريح.

ومن كفر الجاهلية كذلك إضافة نعم الله إلى غيره.

قال تعالى في سورة النحل ٨٣ «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون» وفي نفس السورة قال تعالى «وجعل لكم الجبال أكنائاً وجعل لكم سرائيل تقيكم الحر وسرايل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون، فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين».

وأما الدليل على كفرهم بآيات الله .

فمن ذلك قوله تعالى في سورة الكهف ١٠٥ « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » وفي نفس السورة قال تعالى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً / الذي ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » الكهف ١٠٣ .

وأما اختيار كتب الباطل ونبد آيات الله .

فمن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ، ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

وأما الطعن في حكمة الله تعالى .

فمن ذلك ما ورد في سورة « ص » ٢٧ « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » وقوله تعالى في سورة المؤمنون « أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق » وقوله تعالى « أيجسب الإنسان أن يترك سدى » القيامة ٣٦ وقوله تعالى « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق » الدخان ٣٨ — ٣٩ والآيات في هذا كثيرة .

وأما الكفر بالملائكة والرسل والتفريق بينهم .

فمن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة ٩١ « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ،

قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصداقاً لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين؛ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون، وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا، وأشرّبوا في قلوبهم العجل بكفرهم، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين، قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وما هو بمزحزحه من العذاب إن يعمر، والله بصير بما يعملون» البقرة ٩٢ إلى ٩٦ .

«قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله، مصداقاً لما بين يديه، وهدى وبشرى للمؤمنين، من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين» ومن ذلك قوله تعالى في نفس السورة «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير» البقرة ٢٨٦ .

ومما يؤسف له أن بعض غلاة الصوفية في الإسلام قد بالغوا في رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ورفعوه عن درجته كثيراً، ورفعوه عن كل الأنبياء والمرسلين، مع أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك نهياً صريحاً، وقال لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وقال في مدح اخوانه ورفع شأنهم شيئاً كثيراً، ولكن الغلولا دواء له، كذلك الغلو في الأنبياء والرسل، قال تعالى في سورة النساء ١٧١ «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلاً» .

وأما الجدل بغير علم .

فمن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران ٦٥ — ٦٦ «يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون، ها أنتم حاجتكم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» .

ومن المؤسف أن طلبتنا الذين يذهبون للدراسة على أساتذة مشركين في البلاد الأخرى، لا يعودون لنا إلا بالجدال بغير علم، وبالحوارج وبأشياء تلقوها عن قوم لا يؤمنون بإله ولا بكتاب، ولا بنبي، ولا يعرفون شيئاً .

وأما الكلام في الدين بغير علم .

فقد قال تعالى عنهم في سورة آل عمران ٧٨ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» .

وأما الكفر باليوم الآخر، والتكذيب بلقاء الله وبعث الأرواح .

فمن ذلك ما ورد في سورة الكهف «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه، فحبطت أعمالهم، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» وقال تعالى في سورة النحل «وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون» النحل ٣٨ .

ومن ذلك قتل أولياء الله .

قال تعالى في سورة البقرة «وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» وقال في سورة آل عمران «قل قد جاءكم رسل من قبلي. بالبينات وبالذي قلتم. فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين» آل عمران ١٨٣ .

وقد نعى الله على بعض المجرمين من أهل الجاهلية هذا العمل الاجرامي في قوله تعالى: «ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم». وقال تعالى في سورة البقرة «وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم، (أي بعضكم بعضا) وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان (أي افتراء ودعايات كاذبة). ثم قال تعالى: «وإن يأتوكم أسارى فنادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم (أي من ديارهم) أفئتؤمون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون».

ومن عمل أهل الجاهلية كذلك الإيمان بالحيث والطاغوت. «والحيث» في الأصل اسم صنم، فاستعمل في كل معبود غير الله. «والطاغوت» يطلق على كل باطل من معبود أو غيره، ومعنى الإيمان بهما التصديق بأنها آلهة، وإشراكها بالعبادة مع الله.

وأما طاعتها وموافقتها على ما هما عليه من الباطل. فمن ذلك قول الله تعالى في سورة النساء: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالحيث والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً.

وأما لبس الحق بالباطل فقد ورد في سورة آل عمران «يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون».

وكثير من الناس يعرفون الحق ويستكبرون عن الإيمان به، أو عن نصرته، ويسيرون في الباطل سنين عديدة، وراء زعيم مجنون، أو مخبول، أو سارق، قد دمر البلاد والعباد، ثم إذا تبين أحدهم أنه كان على باطل — يصصر عليه — إذ يستحي من نفسه ومن تاريخه، فلا يعترف بالحق، ويفضل أن يبقى على الضلال القديم.

وأما الاقرار بالحق للتوصل إلى دفعه.

فمن ذلك ما ورد في سورة آل عمران ٧٢ «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم».

وأما اتخاذ النبيين أرباباً:

فمن ذلك ما ورد في سورة آل عمران ٧٩ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون». فاتخاذ النبيين والملائكة أرباباً من دون الله هذا من كفر الجاهلية.

وأما تحريف الكلم عن موضعه:

فأدلته كثيرة والتلاعب بالألفاظ أمر يملكه كل إنسان، قال تعالى «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله». وقال تعالى «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع وراعنا لئلاً بالسنتهم وطمعنا في الدين». النساء ٤٦.

ومن ذلك تلقيب أهل الهدى بالقباب غريبة:

كأن يقولوا عن المسلمين «الحشوية». أي الذين يأتون بحشولا يعلمونه.

واليهود تقول عن غيرهم من الأجناس «الأممية»، «أو الغوييم» وقد سموا محمداً صلى الله عليه وسلم «بالصابيء» أي الذي خرج عن الدين المتفق عليه في نظرهم وتسمية الصالحين «بالرجعيين» وكل هذه الألفاظ مما يُرمى به أهل الصلاح. إنما هي من عمل الجاهلية.

كذلك الافتراء على المؤمنين :

قال تعالى في سورة يونس ٧٨ «قالوا أجبثنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وما نحن بمؤمنين». ومن ذلك رمي المؤمنين بالفساد في الأرض. قال تعالى في صدر سورة البقرة: «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون». البقرة ١٣ - ١٤.

ومن العجيب أن يخاف فرعون على قضية الأمن العام من موسى عليه السلام، حين قال في سورة غافر: «إني أخاف أن يبدل دينكم، أو أن يظهر في الأرض الفساد». غافر ٢٦.

ومن عمل الجاهلية اتهام أهل الحق بالفساد في الأرض :

كما ورد في سورة الأعراف من قول الله تعالى «أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك». الأعراف ١٢٨.

ومن ذلك أيضاً تناقض مذهبهم :

لأنهم لما تركوا الحق فقد وقعوا في التناقض، قال تعالى في سورة ق: «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج». ق ٤ - ٥.

وقال تعالى في سورة الذاريات: «يؤفك عنه من أفك، قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون». وفي سورة الأنعام: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء، إنما أمرهم إلى الله، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون». الأنعام ١٥٩.

ومن أعمال الجاهلية الزيادة في العبادة والنقص منها :

فمن الزيادة في العبادة ما يفعله المسلمون اليوم مثلاً في يوم عاشوراء، وغيرها من المناسبات التي ما أنزل الله بها من سلطان. ومن النقص منها ترك المشركين

الوقوف بعرفة. قال تعالى في سورة البقرة: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» أي أن يأتي الجميع إلى عرفات يقفون بها، ثم يفيضون منها مع جميع الحجاج.

ومن عمل الجاهلية تعبدهم بترك الطيبات من الرزق:

قال تعالى: «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلموا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق». الأعراف ٣١ - ٣٢.

وتعبدهم بالطرب والمُكاء والتصدية:

قال تعالى «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاء وتصدية». أي تصفيقاً وصغيراً. «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون». وكل هذا ليس من الدين في شيء، إنما الدين هو الخشية والخشوع والأنابة. وقال تعالى: «واستفزز من استطعت منهم بصوتك، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً». الإسراء ٦٤.

وكذلك النفاق في العقيدة، ودعاؤهم إلى الضلال بغير علم، ودعاؤهم إلى الكفر مع العلم، والمكر الكُبَّار، كما قال تعالى في سورة نوح: «ومكروا مكرًا كبارًا، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً، ولا يغوث ويعوق ونسراً، وقد أضلوا كثيراً».

وأما الخصلة المهمة في حالة علمائهم وأئمتهم:

فهم بين عالم فاجر، وبين عابد جاهل، قال تعالى: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم، ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون، أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون». البقرة ٧٥ - ٧٦.

وتكلم القرآن عن تجارتهم بالدين وارتزاقهم منه فقال: «ومنهم أमीون

لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون». البقرة ٧٨ ٧٩. ومثل هذا موجود في عصرنا الحاضر.

ومن أعمال الجاهلية كذلك زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس.

قال تعالى في سورة الجمعة ٦: «قل يا أيها الذين هادوا» (أي صاروا يهوداً) «إن زعمتم أنكم أولياء لله» (أي أحياء له) «من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم، والله عليم بالظالمين». وكانوا يقولون لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، فرد الله عليهم بقوله: «تلك أمانيتهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن، فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

ومن ذلك ادعاء محبة الله مع ترك شرعه:

فكثير من الناس يزعمون أنهم من أتقى عباد الله. وهم منغمسون في الحرام إلى قمة رؤوسهم، قال تعالى في سورة آل عمران: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم». وأحياناً يكون الإسلام عاطفة وليس عملاً، إنما يجب أن تجتمع العاطفة والعمل جميعاً، وما أحسن قول الشاعر:

تعصى الآله وأنت تظهر حبه	هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إن المحب لمن يحب مطيع.

ومن ذلك تمنيتهم على الله الأمانى الكاذبة.

قال تعالى: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون».

وفي تفسير قوله تعالى إلا أياماً معدودات قال السدي المفسر: زعم اليهود في كتبهم أنهم سيعذبون في النار أربعون يوماً ثم ينادي الحق تبارك وتعالى: «أخرجوا كل محتلم من بني إسرائيل إلى الجنة». وهذا خطأ. يرد عليه قول الله عز وجل: «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». إن القرآن الكريم من أهدافه أن يصحح أكاذيب التاريخ، وتحريف الكتب القديمة.

ومن أعمال الجاهلية اتخاذ قبور الصالحين مساجد ومعابد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو هريرة: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وفي لفظ لمسلم: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم وصالحهم مساجد». ومن ذلك ما ورد في الصحيحين عن أم سلمة وأم حبيبة أنهما ذكرتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأياها بأرض الحبشة يقال لها «مارية» وذكرتا من حسناتها وتساویر فيها. فقال صلى الله عليه وسلم: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح، أو الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً أو صوراً فيه تلك الصور». وعن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج، والسرج يعني الأنوار. وهذا معلوم. وقد اشتد ذلك وكثر في بلاد الإسلام للأسف الشديد، وهو من أعمال الجاهلية.

كذلك اتخاذ آثار الأنبياء مساجد.

فقد كان أهل الجاهلية من الكتابيين يتخذون آثار أنبياءهم مساجد فقلدهم الجاهلون من هذه الأمة، كما يبنون على موضع كان قد اختفى به نبي أو وصل قدمه المبارك إليه، أو تعبد فيه، وليس هذا مما يحمد في الشريعة، لأنه يجر إلى الغلو. وتوجد بعض المواضع في العراق وفي مصر والشام وغيرها تعبد فيها بعض الصالحين، كالشيخ عبد القادر وغيره. وكأثر الكف الذي زعم الشيعة أنه كف الإمام علي، لما وضعه على الصخرة فأثر فيه، فبنوا عليه مسجداً وكعدة أماكن زعموا أن أشياء حصلت فيها ولا أصل لذلك، ولا ينبغي أن يعلق عليه أبداً.

وعن الأعمش عن المعرور بن سويد عن عمر رضي الله عنه قال خرجنا معه في حجة فلما رجع من حجته رأى الناس ابتدرون المسجد ، قال ما هذا ؟ قالوا : هذا مسجد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه . فقال : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم ، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً ، فمن عرضت له منكم الصلاة فيه فليصل ومن لم تعرض له فليمض .

وهذا هو مذهب جمهور الصحابة رضوان الله عليهم . كذلك اتخاذ السرج على القبور دليل حرمة لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لعن من يفعل ذلك .

ومن أعمال الجاهلية اتخاذ القبور أعياداً :

أي شيئاً يعتاده الناس مرة كل سنة ، أو كل اسبوع ، أو كل شهر . فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد كيوم الجمعة ويوم الفطر ، ويجتمع الناس فيه ، ولا أصل لذلك في دين الله ، والذبح عند القبور كذلك ممنوع ، لقول الله تعالى في سورة الأنعام ١٦٢ « قل إن صلاتي ونسكي (والذبح من النسك) ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » . أمره الله أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله و يذبحون له أي أنه أخلص لله صلاته وذبيحته .

ومن عمل الجاهلية كذلك تعيير الرجل بحالة أبيه أو أمه .

أو مؤاخذته بفعالهم ، فلا تزر وزارة وزر أخرى في الإسلام ، وكل إنسان مسئول عما يفعل هو ، لا ما يفعل غيره ، كما حدثنا شعبة عن عامر عن المعرور قال لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك ، فقال إنني ساببت رجلاً فغيرته بأمه : فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟ إنك أمرؤ فيك جاهلية ، أخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » . وتكملة الحديث في هذه الواقعة أن أبا ذر وضع خده على التراب ثم قال لا أرفع خذي حتى يطأ بلال بقدمه .

وذلك ليتبرأ من فعل الجاهلية، ويعتذر عن عمله أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أعمال الجاهلية الافتخار بكونهم من ذرية الأنبياء.

فرد الله عليهم بقوله: «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون». وقال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». الحجرات ١٣. وقال تعالى «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، لكن رسول الله وخاتم النبيين». الأحزاب ٥١. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة ابنته: «يا فاطمة بنت محمد اعلمي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً». وما قصد أولئك المحتفلين بأبائهم وهم عارون من كل فضيلة إلا ليأكلوا أموال الناس بالباطل، وفي المثل (كن عصامياً ولا تكن عظامياً).

ومن أعمال الجاهلية كذلك الافتخار بالصنائع والأعمال.

كما افتخر أهل الرحلتين على أهل الحرث يعني رحلة الشتاء والصيف، فآخبر الله أن رحلة الشتاء والصيف من فضل الله، وليس لأحد أن يفتخر بها.

كذلك عظمة الدنيا في قلوبهم.

كقولهم: «لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم». فالله تبارك وتعالى يقول: «أهم يقسمون رحمة بك. نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون». الزخرف ٣٢. فالافتخار بذلك لا سند له ولا أصل له، بل إن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

ومن أعمال الجاهلية ازدراء الفقراء واحتقارهم.

قال تعالى: «وأنذره الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك

عليهم من شيء، فتطردهم فتكون من الظالمين». وكان هؤلاء المطلوب طردهم هم بلال وعمار بن ياسر وسالم مولى حذيفة وصبيحاً مولى أسيد، والخلفاء مثل ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد ومرتد بن أبي مرتد. وانظر كيف كان بلاء هؤلاء في الإسلام، وكان أثرهم في تاريخ الإسلام عظيماً. وقال تعالى: «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة». الأنعام ٥٤.

ومن أعمال الجاهلية إنكار الملائكة والوحي، والرسالة والبعث.

يقول الله تعالى: «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير». وقال في سورة الصافات: «أعذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون». الصافات ٥٣.

ومن أعمال الجاهلية كتمان الحق مع العلم به

كما كتم اليهود والنصارى ما ورد من البشائر المحمدية وهم يعلمون بورودها إذ قد ورد ذكرها صريحاً في كتبهم والكلام في هذا الباب طويل مفصل.

وأما القول على الله بغير علم.

كذلك وهو أساس كل فساد وضلال، وأكثر الناس أصابتهم هذه الخصلة المبستدة، كالفلاسفة والمتكلمين، فقد تكلموا في الصفات الإلهية بما لم ينزل به الله من سلطان. قال تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض». وقد رد عليهم علماء الإسلام تلك المقالات الفاسدة، وأقاموا عليهم الحجة.

ومن ذلك الكهانة وما في حكمها.

من ادعاء معرفة الغيب، كالعيافة والطرق والطيرة، والتحاكم إلى الطاغوت وغير ذلك.

أيها الأخ المسلم: كل تلك الأعمال والأقوال المنكرة هي التي كانت تميز الجاهلية؛ والتي بانكارها واحتقارها والابتعاد عنها كانت ميزة الإسلام... فاحذر كل ما يمت بصلة إلى الجاهلية واحمد الله على الهداية والصلاح — والحمد لله رب العالمين.

(تلبيس إبليس)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

إن التلبيس هو التضليل . أو هو إلباس الباطل ثوب الحق . وإبليس هو الشيطان .

ولقد اعتمدنا في هذه المحاضرة على جملة من المراجع أهمها كتاب : «تلبيس إبليس» للعلامة «ابن الجوزي» رحمه الله .

التحذير من الابتداع

عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا فرطكم على الحوض وليختلجن رجال دوني فأقول يا رب أصحابي ، فيقال أنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» أخرجاه في الصحيحين . وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» . ومعنى هذا أن المبتدعة في شريعة الإسلام مرتدون ، والأصل أن يتمسك كل مسلم وكل مسلمة بما ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا يحيد عنهما ولا يبتدع شيئاً من عند نفسه .

تعريف الشرع

هو كل ما يتصل بأمر الله تعالى في كتابه أو على لسان نبيه من معتقد أو قول أو فعل . والابتداع هو إضافة عبادة أو حذفها بدون دليل عن الله ورسوله .

وقد ورد في رسالة التعاليم ما نصه : «وكل بدعة في دين الله لا أصل لها ، استحسناها الناس بأهوائهم ، سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ، ضلالة يجب محاربتها والقضاء عليها ، بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها» .

لأن مقتضى قول الله تبارك وتعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً». أن يستيقن المسلم، أن الله قد أكمل الدين، فمن حاول أن يكمله بشيء من عنده، فكأنما اتهم الدين بالنقص، ورأى نفسه خيراً من الله ورسوله. وإن كانت البدعة مضادة للدين، فتلك هي الزندقة والضلال المبين، ولذلك وجب على أهل الحق أن يقفوا مدافعين عن السنة، مهما نالهم في هذا السبيل من أذى. وهذا مقتضى الاخلاص لدين الله.

فعن أبي اسماء عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك». رواه مسلم.

الفرق بين البدع والمصالح المرسلة

يدعي بعض الناس أن هناك ما يسمى بالبدعة الحسنة، فوضعوا للمسلمين من البدع ما أماتوا به السنن. والحديث صريح في ذلك، من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار». فلا توجد بدعة حسنة. لكن هناك ما يسمى بالمصالح المرسلة، وهي ما جلبت خيراً أو دفعت ضرراً، ولم يوجد في الشريعة ما يدل على ثبوتها أو نفيها، وتكون في الضروريات، أو الحاجات اللازمة للفرد أو الجماعة، أو التحسينات ومن أمثلتها:

كتابة المصحف وجمع القرآن في عهد كل من أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، فهذا من باب المصالح المرسلة، لأن حفظ القرآن واجب على المسلمين، وإن لم يقر فيه الشرع اعتباراً ولا إلغاء.

ثانياً: اتخاذ المحاريب في قبلة المسجد مثلاً، فإنها ضرورية لتحديد اتجاه القبلة، وتوفير صف من المصلين، فتلك تدخل في مقاصد الشرع.

ثالثاً: بناء المنارات والمآذن، واتخاذ مكبرات الصوت — عند الضرورة — فتلك من هذا القبيل.

وهناك فرق واضح بين هذه المقاصد النبيلة، وبين بدع الموالد مثلاً حيث يكون فيها الذبح والنذر للسيد أو الولي — وكذلك بناء المقامات على القبور، والرقص واختلاط الرجال بالنساء. فليتنبه كل مسلم إلى الفرق بين الأمرين.

أسباب البدع

وأنت أخي المسلم إذا نظرت في الأسباب التي تحمل الناس على الابتداء وجدتها لا تكاد تخرج عن الأمور الآتية:

أولاً: الجهل: فبعض الناس أُعطي مكانة وشهرة في قومه، لكنه لم يفهم حقائق هذا الدين، ولم يتبين معاملة، فيظن أنه لو أضاف شيئاً يكون أحسن؛ ولو حذف شيئاً يكون أيسر، وقد غره وأطاعه بعض الأتباع. فلو علم خطورة ذلك لوقف عند أمر الله ونهيه، وهذا الصنف هو الذي نزل فيه قول الله تعالى: «كالذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».

ثانياً طلب الدنيا: فإن بعض المنشغلين بدراسة الشريعة أو بوظائفها، قد رغب في أن يكمل عيشه، أو يزيد من رزقه، فيتظاهر بوفرة العلم وسعة الاطلاع، لينال مالاً أو جاهاً بهذا الابتداء، وهؤلاء الذين قال الله فيهم: «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون».

ثالثاً: التقليد الأعمى: وهو النقل عن أعمال أهل الكتاب والمشركين، فيما كان من دياناتهم المنقرضة، أو تقليد شيخ أو إمام، بدون دليل من كتاب أو سنة، أو تقليد ما كان عليه الآباء والأجداد، بغير برهان من الله. كل ذلك قد أدى فعلاً إلى انتشار البدع.

رابعاً: تلبيس إبليس: وهو اتباع هوى النفس، مما يزينه الشيطان لمختلف طبقات الأمة. مصداق قوله تعالى حكاية عن إبليس: «فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين». وهذا هو موضوع هذه المحاضرة، والذي سنتناوله إن شاء الله بشيء من التفصيل:

قد أشار القرآن الكريم إلى أن مع كل إنسان شيطاناً، وأمرنا الله أن نتعوذ

منه . ومعنى التعوذ بالله هو الاحتماء به سبحانه من كيد الشيطان فقال تعالى :
«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» . كما أخبر النبي
صلى الله عليه بذلك . فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله خرج من عندها
ليلاً قالت فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : مالك يا عائشة ؟ أغرت ؟
قالت : فقلت ومالي لا يغار مثلي على مثلك يا رسول الله ؟ فقال : «أوقد جاءك
شيطانك ؟ فقالت يا رسول الله : «أو معي شيطان ؟ قال : «نعم» . قلت : ومع
كل إنسان ؟ قال : «نعم» . قلت : «ومعك يا رسول الله» ؟ قال : «نعم» —
ولكن ربي عز وجل — أعانني عليه» .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه قال : إن للشيطان لمةً بابن آدم ،
وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان ، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد
بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد في ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله .
ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان» ثم قرأ قوله تعالى **«الشيطان يعدكم**
الفقر ويأمركم بالفحشاء» . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين فيقول : «أعيذكما بكلمات
الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة» . وعن أبي غسان
النهدي قال سمعت الحسن بن صالح يقول : «إن الشيطان ليفتح للعبد تسعين
باباً من الخير ، يريد به باباً من الشر» .

تلبسه على الدهريين :

وقد أوهم إبليس خلقاً كثيراً أنه لا إله ولا صانع ، وأن هذه الأشياء كانت
بلا مكون ، فهو لاء لما لم يدركوا الصانع بالحس ، ولم يستعملوا في معرفته العقل ،
جحدوه ، وهل يشك صاحب غفل في وجود صانع ؟ فالإنسان لو لم يكن ليس
فيه بنیان ، ثم عاد فرأى حائطاً مبنياً عرف أنه لا بد له من بان بناءه .

مذهب الفلاسفة :

وقد لبس إبليس على أقوام من أهل ملتنا ، فدخل عليهم من باب قوة
ذكائهم وفطنتهم ، فأراهم أن الصواب اتباع الفلاسفة ، لكونهم حكماء ، فقد

صدرت منهم أفعال وأقوال دلت على نهاية الذكاء وكما ل الفطنة . كما يلاحظ من حكمة سقراط وأبقراط ، وأفلاطون وأرسطاطاليس وجالينوس . وهؤلاء كانت لهم علوم هندسية ومنطقية وطبيعية ، واستخرجوا بفطنتهم أموراً خفية ، إلا أنهم لما تكلموا عن الإلهيات خلطوا ، ولذلك اختلفوا فيها ولم يختلفوا في الحسيات والهندسيات .

ذكر تلبيس إبليس على أمتنا في العقائد والديانات :

وقال ابن الجوزي : دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها من طريقين : أحدهما التقليد للآباء والأسلاف . والثاني الخوض فيما لا يدرك غوره ، ويعجز الخائض عن الوصول إلى عمقه ، فأوقع أصحاب هذا القسم في فنون من التخبط . وقد قال علي رضي الله عنه للحارث بن حوط عندما زعم أن طلحة والزبير كانا على باطل : « يا حارث ، إنه ملبوس عليك . إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » . وكان أحمد بن حنبل يقول من ضيق علم الرجل أن يقلد في اعتقاده رجلاً .

فإن قال قائل : « إن العوام لا يعرفون الدليل فكيف لا يقلدون » ؟ فالجواب : ان الأصلح للعامي هو التقليد ، إلا أن عليه الاجتهاد في اختيار من يقلده .

تلبيسه على المتكلمين : « وهم الذين يريدون تطويع الدين لعلوم الفلسفة . وشتان بين ما هو من عند الله ، وما هو من حركات عقول الأفراد . فقد لبس إبليس عليهم أشياء ، وحسن لهم الخوض في أحوال الفلاسفة ، والنظر في كلامهم ، فأدى ذلك بأكثرهم إلى الشكوك ، وأدى ببعضهم إلى الإلحاد . قال الشافعي رحمه الله : « إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى ، أو غير المسمى ، فاعلم أنه من أهل الكلام ، ولا دين له » . وقال أحمد بن حنبل « علماء الكلام زنادقة » . وعن الأوزاعي قال قال عمر بن عبد العزيز : « إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم ، في شيء دون العامة ، فأنهم على تأسيس ضلالة .

تلبيسه على الخوارج : وهم الذين خرجوا على رأي المسلمين في التحكيم ،

واعتزلوا وتآمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص . ومنهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي رضي الله عنه . وقد لبس إبليس عليهم في فهم الدين ، فإنه لما أراد الحسن رضي الله عنه أن يصالح معاوية ، خرج عليه من الخوارج الجراح بن سنان وقال له : « أشركت كما أشرك أبوك » ، ثم طعن الحسن في أصل فخذه . وكان أصحاب نافع بن الأزرق يقولون : « نحن مشركون ما دمنا في دار الشرك ، فإذا خرجنا فنحن مسلمون » . ومخالفونا في المذهب مشركون . ومرتكبوا الكبائر مشركون ، والقاعدون عن موافقتنا كفر . ثم أنه أباحوا قتل النساء والصبيان من المسلمين ولهم قصص ومذاهب عديدة شاذة .

ذكر تلبسه على الرافضة :

قال ابن الجوزي وكما لبس إبليس على الخوارج حتى قاتلوا علي بن أبي طالب . حمل آخرين على الغلوفي حبه ، فمنهم من كان يقول « هو الإله » ، ومنهم من يقول هو « خير من الأنبياء » ، ومنهم من حمله ذلك على سب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأنها ارتدا عن الإسلام بعد موت الرسول . ومن هؤلاء الرافضة التي انشعبت فرق كثيرة منهم الإمامية ، والزيدية ، والجعفرية . ومنهم الباطنية .

وقد انشعبت الباطنية إلى الإسماعيلية والدرزية ، والقرامطة والعلوية ، والبابية وغيرها . فالباطنية قوم تستروا بالإسلام ، ومن قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات ، وإنكار البعث ، واستحلال الكذب على المسلمين وإن للدين باطناً غير هذا الظاهر ، الذي جاء به النبي ، وانهم يتلقون الوحي من الله تعالى مباشرة ، وقد تلاعب بهم إبليس فزين لهم أشياء كثيرة .

ذكر تلبسه على القراء :

فمن ذلك أن أحدهم يشتغل بالقراءات الشاذة وتحصيلها ، وإفناء العمر في جمعها ، والتلاوة بها . فيشغله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات ، وكم رأينا من إمام مسجد يتصدى لهذا ، ولا يعرف ما يفسد الصلاة ومن الغبن الفاحش

تضييع العمر فيما غيره أهم منه ، قال الحسن البصري : « أنزل الله القرآن لنعمل به ، فاتخذ الناس تلاوته عملاً ، ومن تلبس الشيطان عليهم أن أحدهم يقرأ في محرابه بالقراءة الشاذة ، ويترك القراءة المتواترة المشهورة » . الصحيح عند العلماء أن الصلاة لا تصح بهذا الشاذ ، ويأتي التلبس عليهم في إظهار الغرائب ، لاستجلاب مدح الناس لهم . وقد يريهم إبليس أن في كثرة التلاوة صواباً ، وليس هذا بصحيح . بل ينبغي أن تكون على تمهل لقوله تعالى : « لتقرأه على الناس على مكث » . وقال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلاً » . ومن تلبسه عليهم أن جماعة منهم أحدثوا قراءة الألحان والأغاني . وكلما قرب ذلك من مشابهة الغناء زادت كراهته .

ذكر تلبسه على الفقهاء :

كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث ، ثم صاروا يكتفون بآيات الأحكام دون أن يعرف الواحد معناها ، وبحديث لا يدري أصحيح هو أم لا . وربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح « وإنما الفقه استخراج الحكم من الكتاب والسنة » . وأحياناً يحيل إلى مجاهيل ، فيقول : « روى بعضهم » وهذا لا يجوز للفقهاء .

وفي تلبسه على الفقهاء مغالطة الأمراء والسلطين ، ومداهنتهم وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك . وربما رخصوا لهم فيما لا رخصة فيه ، لينالوا بذلك عرضاً من دنياهم . وفي هذا ضرر على الأمير حيث يقول : « لولا أنني على صواب لما أيدني الفقيه . وضرر على العامي حيث يقول لا بأس بهذا الأمير ولا بماله ولا بأفعاله . حيث أن فلانا الفقيه لا يبرح عنده . وضرر على الفقيه نفسه حيث يفسد دينه بذلك .

ذكر تلبسه على الوعاظ والقصاص :

بأن يجعل قوماً منهم يضعون (أي يخترعون) أحاديث الترغيب والترهيب ، لأجل حث الناس على الخير ، أو كفهم عن الشر . وفي هذا افتئات منهم على الشريعة ، فكأنها ناقصة تحتاج إلى تنمة ، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم : « من

كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» . ومن هؤلاء من يظهر التخشع والتواجد زيادة على ما في قلبه ، فمن كان منهم كاذباً فقد خسر الآخرة ، ومن كان منهم صادقاً لم يسلم عمله من الرياء والسمعة .

ذكر تلبيسه على أهل اللغة والأدب :

قد لبس على جمهورهم فشغلهم بعلوم النحو واللغة شغلهم بذلك عن المهمات اللازمة ، التي هي فرض عين ، وعن معرفة ما يلزمهم عرفانه من العبادات ، فأذهبوا الزمان كله في علوم لا تتراد لنفسها بل لغيرها .

ذكر تلبيس إبليس على الشعراء

قال المصنف : وقد لبس عليهم فأراهم أنهم من أهل الأدب ، وأنهم قد خصوا بفطنة تميزوا بها عن غيرهم .

فتراهم يهيمون في كل واد ، من الكذب والقذف والهجاء ، وهتك الأعراض والاقرار بالفواحش — وترى خلقاً من الشعراء وأهل الأدب لا يتحاشون في لبس الحرير ، والكذب في المدح خارجاً عن الحد ، ويحكون في اجتماعهم عن الفسق وشرب الخمر وغير ذلك . ويقول أحدهم اجتمعت أنا وجماعة من الأدباء ففعلنا كذا وكذا ، هيهات — هيهات ليس الأدب إلا مع الله عز وجل باستعمال التقوى له .

نقد مسالك العلماء والدارسين

وقد لبس إبليس على أقوام من المحكمين في العلم والعمل من جهة أخرى ، فحسن لهم الكبر بالعلم ، والحسد للتظاهر ، والرياء لطلب الرياسة ، فتراهم يريهم أن هذا كالحق والواجب لهم — وقد لبس إبليس على العاملين في العلوم — فيسهرون ليلهم ويدأبون نهارهم في تصانيف العلوم ، ويريههم إبليس أن المقصود نشر الدين ، ويكون مقصودهم الباطن انتشار الذكر وعلو الصيت ، والرياسة وطلب الرحلة من الآفاق إليهم .

في تلبس إبليس على الولاة السلاطين

قال المصنف لقد لبس عليهم من وجوه كثيرة، نذكر أمهاتها فالوجه الأول: أن يريهم أن الله عز وجل يحبهم، ولولا ذلك ما ولاهم سلطانه، ولا جعلهم نواباً عنه في عبادته. وينكشف هذا التلبس بأنهم إذا كانوا نواباً عنه في الحقيقة فيحكموا بشرعه وليتبعوا مرضيه، فحينئذ يحجبهم لطاعته فأما صورة الملك والسلطة فإنه قد أعطاها خلقاً ممن يبغضه، وقد بسط الدنيا لكثير مما لا ينظر إليه، وسلط جماعة من أولئك الحكام على الأولياء والصالحين فقتلوهم وقهروهم، فكان ما أعطاهم الملك وبالا عليهم، وليس جيداً لهم. ودليل ذلك في قوله تعالى: «إنما نخلي لهم ليزدادوا إثماً».

والثاني أن إبليس يقول لهم: أن الولاية تفتقر إلى هيبة، فيتكبرون عن طلب العلم ومجالسة العلماء.

الثالث: يخوفهم الأعداء، ويأمرهم بتشديد الحجاب، فلا يصل إليهم أهل المظالم.

الرابع: انهم يستعملون من لا يصلح ممن لا علم عنده ولا تقوى، فيجتلب الدعاء عليهم بظلم الناس. ويطعمهم الحرام بالبيع الفاسدة.

الخامس: يحسن لهم العمل برأيهم، فيقطعون من لا يجوز قطعه و يقتلون من لا يحل قتله، ويوهمهم بأن هذه سياسة، ومعنى هذا أن الشريعة ناقصة تحتاج إلى اتمام.

والسادس: أنه يحسن إليهم الانبساط في الأموال، ظانين أنها بحكمهم أو أنها ملك لهم.

والسابع: أنه يحسن لهم الانبساط في المعاصي، ويلبس عليهم أن حفظكم للسبيل وأمن البلاد بكم يمنع عنكم العقاب. ثم يحسن لهم من الإصرار على المعاصي زيارة الصالحين وسؤالهم الدعاء لهم، ويريهم أن هذا يخفف ذلك الأثم، وهذا الخير لا يدفع ذلك الشر. كذلك من الولاة من يعمل لمن فوقه،

فيأمره بالظلم فيظلم ، و يلبس عليه إبليس بأن الاثم على الأمير لا عليك . عن جعفر بن سليمان قال سمعت مالك بن دينار يقول : « كفى المرء خيانة أن يكون أميناً للخونة » .

ذكر تلبيس إبليس على العباد في العبادات

فأول تلبيسه عليه يقع في إثارهم التعبد على العلم ، والعلم أفضل النوافل .

ذكر تلبيسه عليهم في الأذان :

ومن ذلك التلحين في الأذان ، وقد كرهه مالك ابن أنس وغيره من العلماء كراهية شديدة ، لأنه يخرجهم عن موضع التعظيم إلى مشابهة الغناء ، ومنه أنهم يخلطون أذان الفجر بالتذكير والتسبيح والمواظ . ويجعلون الأذان وسطا فيختلط وقد كره العلماء كل ما يضاف إلى الأذان ، وقد رأينا من يقوم بالليل كثيراً على المنارة يعط ويذكر ، ومنهم من يقرأ سورا من القرآن ، بصوت مرتفع ، فيمنع الناس من نومهم ويخلط على المجتهدين قراءاتهم ، وكل ذلك من المنكرات .

ذكر تلبيس إبليس على الغزاة والمجاهدين :

قال المصنف قد لبس إبليس على خلق كثير ، فخرجوا إلى الجهاد ونيتهم المباهاة والرياء ، ليقال فلاناً غاز ، وربما كان المقصود أن يقال أنه شجاع ، وربما كان طالباً الغنيمة وإنما الأعمال بالنيات وعن أبي موسى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك في سبيل الله » ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » . أخرجاه في الصحيحين .

في ذكر تلبيس إبليس على الزهاد والعباد :

ربما سمع العاصي ذم الدنيا في القرآن المجيد والأحاديث ، فيرى أن النجاة في تركها ولا يدري ما الدنيا المذمومة ، فيلبس عليه إبليس بأنك لا تنجو في الآخرة

إلا بترك الدنيا فخرج على وجهه إلى الجبال فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلم
ويصير كالوحش . ويخيل إليه أن هذا هو الحق .

تلبيسه على العباد:

وأكثر ما يلبس به إبليس على العباد والزهاد خفي الرياء واعلم أن المؤمن لا
يريد بعمله إلا الله سبحانه وتعالى ، وإنما يدخل عليه خفي الرياء فيلبس الأمر .
قلت ولخوف الرياء ستر الصالحون أعمالهم حذراً عليها .

تلبيسه على الصوفية:

قال ابن الجوزي: وقد لبس إبليس على الصوفية فوضعوا حكايات في
كرامات الأولياء؛ ليرفعوا أقدار ناس معينين؛ والحق لا يحتاج في تأييده إلى
باطل . وقد كشف الله أمرهم بعلماء التحقيق والنقل ...

فمن تلبيسه عليهم أن يرضي كل واحد عن عقل نفسه — ولا يبالي بمخالفة
العلم والعلماء؛ فإذا خالفت فتواه أغراضهم الدنيوية؛ أو طرائقهم في العباد؛
أخذ يقدر فيهم ويرد عليهم بينما هم مستسلمون لمشايخهم تماماً ... حتى فيما
يعارض نصوص القرآن الكريم .

وما زال إبليس يخططهم بفنون البدع؛ حتى جعلوا لأنفسهم سُنناً؛ وجاء أبو
عبد الرحمن المسلمي فصنف لهم «كتاب السنن» وجمع لهم غرائب بدون اسناد
إلى أصل من أصول العلم .

قال أبو الفرج: وصنف لهم أبونصر السراج كتاباً سماه: «لمع الصوفية»
ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ، ما نتوقف عن ذكره ، أو التعليق
عليه؛ وصنف لهم أبو طالب المكي: «قوت القلوب» . فذكر فيه الأحاديث
الباطلة ، وما لا يستند فيه إلى أصل ، من صلوات الأيام والليالي . وغير ذلك من
الموضوع . وذكر فيه الاعتقاد الفاسد .

وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب «الحلية» . وذكر في حدود
التصوف أشياء منكرة وقبيحة ...

وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب «الأحياء» على طريقة القوم وملاؤه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة وخرج على قانون الفقه، وقال أن المراد بالكواكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار من حجب الله عز وجل، ولم يرد هذه الآيات المعروفة، وهذا من جنس كلام الباطنية. وقال في كتابه «المفصح بالأحوال»: أن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثم ترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.

قال المصنف: وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار واقبالهم على ما استحسّنوه من طريقة السابقين من أصنافهم.

عن عبد الحميد الجيلي يقول: سمعت سرياً يقول من «ادعى باطن علم ينقص ظاهره حكم شرعي فهو غالط» وعن الجنيد أنه قال: «مذهبنا هذا مقيد بالأصول والكتاب والسنة» وقال أيضاً «علمنا منوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقه لا يقتدى به».

من تلبسه على العوام:

أيضاً حرص الواحد منهم على أداء نافلة مع تضييع فريضة، كالذي يحرص على السحور وينام عن صلاة الصبح. أو يحرص على صلاة الجمعة والعيدين ولا يصلي غيرهما — وقد لبس إبليس على أصحاب الأموال في وجوه عديدة:

الأول: أنه لا يبالي كيف اكتسبها فقد يكون فيها ربا أو معاملات محرمة.

الثاني: من جهة البخل فمنهم من لا يخرج الزكاة أصلاً.

الثالث: من حيث الاستكثار والاعتزاز بالغنى وأن يرى نفسه خير من الفقير.

الرابع: في انفاقها، فقد يتبع الاسراف والتبذير في الملبس، والزينة والبنيان، إن لم يقع في الحرام الصريح.

فمنهم من يظهر الفقر وهو غني ومنهم من يرى نفسه خيراً من الغني.

وقد لبس على الجمهور بالجريان مع العادات، واتباع ما كان عليه آباؤهم، ولا ينظر أكانوا على صواب أو خطأ، ومن ذلك تقليد اليهود والنصارى وعمل الجاهلية، ومن جريانهم مع العادة.

كان يحرص على الصيام لكنه يغتاب الناس، ويفطر على الحرام ويتهاون في أداء الصلاة في وقتها، ويكثر من الإيمان الحائثة. وقد يرى قريبه يشرب الخمر فلا ينكر عليه، بل يحبه ويخالطه، وإجبار المرأة أن تتنازل عن باقي مهرها، أو يميل إلى إحدى زوجاته عن الأخرى.

ومن العادات الظن بأن اعلان الإفلاس يسقط حقوق الناس، ومن تلبسه عليهم المبالغة في الحزن على الأموات، بشق الجيوب ولطم الحدود واستئجار القراء لآحياء المآتم مع أن الجلوس لاستقبال الغزاء بدعة.

ومن البدع كذلك تعظيم القبور وإكرامها، وتقيلها والأنوار عندها، وتطييبها وأخذ التراب تبركاً وشد الرحال إليها.

أما تلبسه على النساء:

فكثير جداً. من ذلك أنها تطهر من الحيض قبل الظهر، فتغتسل بعد العصر، وقد وجب عليها الظهر فتركته عمداً، وقد تؤخر غسل الجنابة إلى الليل، فتترك بعض الفرائض وقد تتعري تماماً أما ابنتها أو أختها أو جارتها، وهذا حرام فلا يحل للمرأة أن تنظر إلى المرأة ما بين سرتها وركبتها إلا أن تكون بنتاً دون السابعة. وقد تصلي امرأة الفريضة قاعدة وهي تقدر على القيام، هذه الصلاة باطلة.

وقد تسقط الحبل الذي نفخت فيه الروح، ولو فعلت ذلك لقتلت مسلماً، وقد تسيء عشرة زوجها وتكلمه بالمكره، وهي تقول هذا أبو أولادي، وليس

بيننا حرج ، وقد تخرج من غير اذنه ، وهي تعلم أن هذا معصية ؛ مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فباتت وهو عليها ساخط لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

ومن تليسه على الناس تأجيل الطاعة والاسراع بالمعصية ، فإذا قلت يا فلان عليك بالحج قال ننظر حتى تتقدم بنا السن ، لتغفر الذنوب كلها ، فمن أعلمه أنه سيعيش إلى غد ؟

وبالجملة فإن على كل مسلم أن ينتبه إلى تطبيق شريعة الله بدقة واثقان ، حتى لا يكون كالذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

نعوذ بالله من ذلك والحمد لله رب العالمين .

(الأفكار المنحرفة)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

هذه محاضرة عن الأفكار المنحرفة عن هدى الإسلام ، وعن طريق الصواب الذي جاءنا عن الله ورسوله ، فكل ما خالف هدى الله ورسوله من أمور الدين فهو عندنا ضال أو منحرف ، ما دمنا قد شهدنا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وتنقسم هذه الأفكار — إلى قسمين — قسم قديم ظهر قبل القرن الثاني عشر الهجري ، أو الثامن عشر الميلادي . وقسم جديد ، هو ما ظهر بعد ذلك إلى أيامنا هذه ، وهذا الانحراف اما أنه وقع في أصل العقيدة الإسلامية ، أو في العلم والاجتماع وفي الفنون .

أول ما نتكلم عنه من الشئون الدينية قضية الوراثة .

فقد نشأ قوم في الإسلام مالوا إلى الأخذ بما كانت عليه دولهم وممالكهم قبل الإسلام ، من جعل الخلافة الإسلامية وراثية ، كما كان ذلك عند الساسانيين وعند الرومانيين ، وغيرهم من الأسر التي ادعت أن لها فضلاً وميراثاً تاريخياً ، فهي تفرض ذلك على الناس والذين قالوا بالوراثة هم الشيعة ... نعم أن بعض المسلمين الحكام عهدوا بالحكم إلى أبنائهم وهم يعلمون أن فيه مخالفة شرعية ، وإنما اجروا بيعة مصنوعة وقالوا لقد بايعت الأمة ولدنا فلاناً . فهم لم يكذبوا القاعدة الشرعية ، أما الشيعة فقالوا أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بها لعلي بن أبي طالب ، وعليّ أوصى بها إلى ولده الحسن ، والحسن أوصى بها إلى أخيه الحسين . وكل ذلك لم يصح تاريخياً — فالثابت مثلاً أن الحسن رضي الله عنه تنازل عن الحكم — بوثيقة كانت بينه وبين معاوية رضي الله عنه .

ومعلوم أن هذا النظام الوراثي كان معمولاً به في إيران، وبلاد الرومان وغيرها ثم نقل إلى الفكر الإسلامي، وصارت زوراً على الأصل، وهو الخلافة أو الإمامة، ولالإمامة باب في الفقه، فيه بيان الشروط الواجبة في الرئيس أو الإمام، ومنها العدالة والإسلام والعلم والتكليف، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية، وسلامة الحواس وحصول البيعة الصحيحة، ونحو ذلك — فالذين يعتمدون الوراثة ويعتبرونها مؤهلاً للفضل والرياسة مخطئون.

ومن هذه النظريات فكرة البركة: وهي الزعم في إنسان معين أنه مبارك، ومن الممكن أن يمنح هذه البركة للآخرين، فيصبحون مباركين مثله، وهي كما ترون تقوم على تزكية العباد للعباد؛ فقد يكون المرء مباركاً «وعلم ذلك عند الله» وقد يتقبل الله دعوة المسلم لأخيه المسلم، (وسر ذلك عند الله) أما أن نقرر نحن البشر بأن هذا الشخص بعينه له درجة من القرب عند الله عز وجل، تؤهله أن يتصرف في الكون بنفع أو ضرر، فهذا من الانحراف الفكري.

ننتقل إلى قضية وحدة الوجود التي قال بها ودعا إلى الإيمان بها قدامى الصوفية، مثل محي الدين بن عربي والحلاج وابن الفارض وغيرهم — ومؤداها أن هذا الوجود وحدة واحدة. فالخالق ومخلوقاته شيء واحد، وكلاهما مستحق للعبادة... أما تعاليم الإسلام فهي تقرر أن في الكون حقيقتين: هما: الله عز وجل، ومخلوقات الله. فالله تعالى بائن عن خلقه، متعال عليهم ليس كمثله شيء فلا تدركه الأبصار، وهو وحده المستحق للعبادة لا شريك له، والذين قالوا بهذه النظرية يعتبرون إبليس مؤمناً، والذين عبدوا النار لم يعبدوا إلا الله. وادعى بعضهم الألوهية تمشياً مع هذه القاعدة، ولا شك أن ذلك من الضلال المبين.

الحلول والتناسخ:

وهذه النظرية موجودة في الهندوكية، وفي البوذية وفي المزدكية ومذاهب أخرى قديمة، ومعناها أن الله تعالى يمكن أن يحل في بعض خلقه، فتصبح أجساماً مقدسة، لها حقوق الله وصفاته، وهذا مستحيل عقلاً وشرعاً. كما أن نظرية

التناسخ معناها أن الإنسان بعد أن يموت تتلبس روحه بجسم جديد، وتظهر فيه، قد يكون جسم حيوان أو إنسان.

والذين يقولون بهذه النظرية «مثل الدروز» لا يؤمنون بالبعث ولا بالنشور، ولا بالموت ولا بالحياة، ولا بالحساب ولا بالعقاب، ما دامت الدورة مستمرة بين الأرواح والأجسام، كما أنها تؤدي إلى عبادة الآباء والأجداد، وبذلك تقول «الكونفوشيوسية» السائدة في الصين.

ومن الأفكار المنحرفة كذلك مسألة الجفر وحساب الجمل وهو نوع من السحر، يعتمد على الصدفة إلى حد كبير، وينسبون هذا العلم زوراً إلى علي بن أبي طالب وهو بريء منه. فيقولون مثلاً أن حروف الأبجدية تسير هكذا: (١ - ب - ج - د) - (هـ - و - ز) - (ح . ط . ي) - (ك - ل - م - ن) - (س - ع - ف - ص) - (ق - ر - ش - ت) - (ث - خ - ذ) - (ض - ظ - غ) فالحروف من ١ إلى ي: تعادل ١ - ٢ - ٣ إلى ١٠ - والحروف من ك إلى ق تعادل ٢٠ - ٣٠ ... إلى ١٠٠ - والحروف من راء إلى غ تعادل من ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ - فإذا أراد (حسن) أن يتزوج من (زينب) مثلاً: فيأتي العراف ليحسب له إمكان التوافق في الحياة الزوجية من عدمه، عن طريق هذه الأرقام. ثم يصدر القرار بقوله تزوج منها، لأن النجم والطالع متفقان. أو يقول له لا تتزوج منها، لأن النجم والطالع مختلفان. وهذا الأمر يرتبط بعلوم الصائبة عباد النجوم، وهو يشبه طرق الحصي والاستقسام بالأزلام، مما كان كهان الجاهلية يفعلونه، كما أنه كان موجوداً عند اليهود والنصارى.

ومن الأفكار المنحرفة الضالة كذلك: الزعم بأن هناك نبياً - يأتي بعد محمد صلى الله عليه وسلم. فطائفة البهائية تزعم أن شيخهم «عباس بهاء»، هونبي كان يتنزل عليه الوحي، وطائفة القاديانيين والهندو تزعم أن شيخهم «غلام أحمد»، نبي مستقل. وطائفة الدروز تزعم أن «الحاكم بأمر الله» العبيدي وتلميذه غلام درزي أنبياء، وربما آلهة. وكل هؤلاء يعدون خارجين عن دين الإسلام، لقول القرآن الكريم عن سيدنا محمد: ولكن رسول الله وخاتم

النبين . وقد ختمت النبوة ورفع الوحي إلى يوم القيامة ، وختمت الرسائل ، وأكمل الله الدين ، فمن ادعى شيئاً من نبوة بعد ذلك أو قال بختم الولاية ، أو أنه غوث أو قطب أو نسب التصرف في الكون لغير الله تعالى فهو ضال أو كافر .

ومن الأفكار المنحرفة كذلك المبالغة في موضوع الوسيلة والشفاعة .

ولقد أكثر العلماء من البيان في هذا الأمر ، وخلاصة القول أنه يجوز للمسلم أن يتوسل إلى الله بصالح عمله ، لقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون » . فجعل الوسيلة محصورة بين الأمر بالتقوى والأمر بالجهاد . أما الشفاعة فهي ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم ومنها الشفاعة العظمى حين يهرع الخلائق إلى أنبيائهم — يسألونهم أن يشفعوا عند ربهم يوم في المحشر من أجل بدء الحساب ، فيعتذرون و يتقدم محمد صلى الله عليه وسلم و يسجد تحت ساق العرش و يستجيب الله لشفاعته تكريماً له ، ثم يبدأ الحساب — ومنها الشفاعة في بعض المذنبين الذين ماتوا على التوحيد ، وكانت موازينهم قريبة من النجاة ، أو فيمن دخل النار من أهل التوحيد وأخذ عقوبة كافية عن ذنوبه فيشفع النبي لهم في دخول الجنة ، ولكن الشفاعة مقيدة بأمرين :

الأمر الأول : أن يأذن الله للشفيع « ويجوز ألا يأذن له » ، لقوله تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه » .

الأمر الثاني : أن تنفع الشفاعة عند الله ، (وقد لا تنفع) ، لقوله تعالى : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » . ولذلك لا ينبغي للمسلم العاقل ، أن يرتب عليها شيئاً بل عليه أن يحسن الطاعة والعمل ، فقد قال الرسول لفاطمة : « يا فاطمة بنت محمد اعلمي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » .

ومن الأفكار المنحرفة كذلك الاعتقاد أن بعض الأموات أحياء في قبورهم ، يتصرفون في شؤون الناس بعد مماتهم ، وهذه العقيدة كبيرة الضرر ، وقد انحدرت إلى المسلمين من الديانات الأخرى التي تعبد الآباء ، وتؤمن بالتناسخ

كما قدمنا، والحقيقة أن القرآن الكريم، أشار إلى أن الأنبياء والشهداء أحياء في قبورهم يرزقون. ولكنها حياة من نوع خاص، لا يستطيعون بها أن يباشروا شيئاً من أعمال الأحياء، مصداق قوله تعالى: «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت... كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون». فتخويف الناس من غضبة أهل القبور، وتوهم الناس قضاء المصالح عن طريقهم، إنما هي ضلالة تدخل في باب الشرك لمن اعتقدها — فالفاعل هو الله وحده، وهؤلاء كانوا لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً في حياتهم، فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم بعد مماتهم.

ومن الانحرافات الفكرية القديمة التقليد المطلق.

فبعض الناس يقلد شيخاً أو إماماً في كل شيء، دون أن يشك في قوله، أو أن يبحث عن دليله من الكتاب والسنة، وهذا السلوك قد سهّل على بعض المبتدعة والزنادقة أن يسوقوا كثيراً من خلق الله في تيارهم، حتى عبدوهم من دون الله.

والأصل في التقليد أن يكون موقوتاً بضرورة معينة، كالجهل بالحكم أو الجهل بأسلوب البحث عنه في مصادره، مع استحضار أن الشريعة لا تؤخذ إلا عن الله ورسوله، وأن هذا الذي قلده قد التزم بهذين الأصلين وإلا فلا يطاع.

ومن الأفكار المنحرفة كذلك:

إساءة فهم بعض آيات الكتاب الكريم كقوله تعالى: «واطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم». فقد نص أكثر الفقهاء على أن أولى الأمر من المسلمين هم الأعلام بأمر الله، وهم العلماء والفقهاء، على أنه لا مانع من اطاعة الرؤساء عندما يكونون حريصين على السير بمقتضى الكتاب والسنة، وإلا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومن ذلك تفسيرهم لقول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» فلا يجوز أن يفهم منها العزلة والقعود عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما

المقصود منها أن نعتني بصلتنا بالله عز وجل ، وأن تصرفات الضالين لا تضيع حسناتنا . وهكذا ... فيما يتصل بتفسير آيات الله .

هذه طائفة من الانحرافات الفكرية عند الأقدمين ، ولقد انحدر إلينا بعضها في العصور المتأخرة ، وانقرض بعضها واستجدت قضايا لا تقل في خطورتها عن انحرافات المتقدمين .

ومن ذلك الدعوة العصبية والقومية ومعناها أن قومي أفضل من قومك ، وأرضي أحسن من أرضك ، ومصلحتي مقدمة على مصلحتك ، وأنا خير منك ، وهذه العصبية على أنواع: فمنها عصبية اللغة والأرض ، والجنس والدين ، فإذا نظرنا إلى قضية اللغة ، نجد أنها لا تصلح أساساً للقومية ، ولا للرابطة ، فاللغة الانجليزية مثلاً: يتحدث بها نصف شعوب الأرض تقريباً ، ولا رابطة تربط بينهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول «إلا أن العربية اللسان» . أي أنها علاقة كلام ولغة لا أكثر، ولا يجوز أن يبنى عليها تمييز بين الناس ، أما رابطة الجنس والعرق فلا تصلح كذلك أن تكون أساساً للقومية ، فقد اختلطت الأنساب وانتشرت العائلات بشكل يستحيل معه العثور على جنس متميز، إلا في مجموعات قليلة داخل الغابات ، والرسول يقول: «كلكم لآدم، وآدم من تراب» . أما مسألة الوطن فلا تصلح أساساً لرابطة ما ، لأن الأرض لله ، ولأن كثيراً من الناس يهجرون أراضيهم طائعين عندما لا يجدون فيها توافقاً للحياة؛ أما الرابطة التي يُحرص عليها فهي حسن الخلق ، والاستقامة والتقوى والدين .

ومن الأفكار المنحرفة كذلك: تعريفهم للعلم:

فقد عرفوه بأنه الذي يمكن الوصول إليه بواسطة الحواس الخمس ، أو يخضع للتجربة ، فإذا أن نرى الشيء ، أو نسمعه أو نلمسه أو نشمه أو نذوقه ، وما وراء ذلك لا يعتبر علماً ، وهذا منتهى الخطأ ، لأن المحسوسات لا تمثل إلا جانباً من العلم ، مصداق قوله تعالى: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» . وقوله تعالى: «لا يعلمون... يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون» . فإن علم الله لا يتناهى ، وأن الغيب أكبر من الشهادة ، فتعريف

العلم هكذا، جاء نتيجة للمادية المتطرفة، والكفر بالله، وهو شيء لا نقره ولا نعترف به.

ومن الأفكار المنحرفة كذلك: قولهم: «أن الشعب هو مصدر السلطات». وما رتبوه على ذلك من النظريات في الديمقراطية وأساليب الحكم، ومعلوم أن السيادة لله، وهو ملك الناس في الدنيا ومالك يوم الدين في الآخرة، ولم يعد خافياً ما يرتكب من الجرائم، وتزوير رغبات الشعوب تحت مظلة الديمقراطية، وأن عدداً من هؤلاء يجتمعون في مجالسهم الرسمية، ليحللوا ما حرم الله، ويشرعوا للناس ما لم يأذن به الله، ولقد فتن كثير من الناس بهذه الأنظمة، بينما تكشف للعقلاء زيفها وسقوطها، إنما الرأي في الإسلام لأهل الحل والعقد، وهم الأعلام بالدين ومصالح العباد متقيدين بذلك بما أنزل الله.

ومن الأفكار المنحرفة تعريف الأخلاق:

فالأخلاق عند المسلمين ثابتة لا تتغير، فالكريم كريم ولو تغيرت عليه الظروف، وكذلك الشجاع والحليم، والصابر والصدوق، كلها أخلاق ثابتة ونقول لأبنائنا تخلقوا بأخلاق القرآن، ونعني بذلك أن يكونوا كما أَراد الله لهم في كل حالاتهم، لكن علماء الأخلاق من الماديين والشيوعيين، قالوا أن الأخلاق ليست ثابتة، وإنما هي ترتبط بالمنفعة، فكل ما يحقق المنفعة يعتبر أخلاقياً، وكل ما لم يحقق المنفعة لأصحابه يستبعد ولا يعتبر أخلاقياً، وهذا شيء خطير، لأنه يطفئ على الإنسانية، ويحول الناس إلى مجموعة من الخونة والكذابين، والوحوش الضارية.

ومما يؤسف له. أن هذه النزعة أصبحت مهيمنة على أكثر رجال السياسة في الوقت الحاضر.

ومن ذلك قضية اليمين واليسار. فيوصف المفكرون ونواب الأمة في هذا الزمن بأنهم إما يمينيون مؤيدون للحكومة، وإما يساريون معارضون لها، وهذا تقسيم غير جيد، فالمسلم لا يؤيد شيئاً على طول الخط ولا يعارض أحداً على طول الخط، وإنما يشجع الأمر الحسن ويثني على فاعليه، ويقبح الأمر القبيح

ويزدريه ، وقد يؤيد اليوم شيئاً رآه حسناً ، ثم يعارض غيره وإن كان من نفس المصدر ، إذا رآه غير حسن . أما تجهيز فرقة للمعارضين وفرقة أخرى يسمونها المؤيدين ، فهذا تقسيم لا يجوز .

ومن تلك الأفكار المنحرفة كلمة العقلانية :

« أي موافقة الشيء لمقتضى العقل » . وهو أمر يحتاج للمناقشة ، فقد أعطى الله كل إنساناً عقلاً يدير به شؤون نفسه ، وهناك قدر مشترك مما توافق عليه عقول البشر — لكن تبقى قضايا كثيرة خارجة عن اختصاص العقل ، فلا يجوز أن تحال إليه . ومنها القضايا الغيبية ، وأمور الكون العليا ، مما لا تدركه عقولنا ، فإذا أطلق هذا التعبير على كل الأشياء ، يعتبر خطأ وانحرافاً .

ومن ذلك قضية العلمانية فهي تختلف عن مفهوم العلم ، لأنها نزعة لا دينية ، تستبعد كل أمور الغيب ، وكل ما تقرره الأديان ، بينما العلم عندنا لا يصطدم بشيء من أصول الدين .

ومن المبادئ المنحرفة كذلك : الماسونية .

وهي مثل الشيوعية ، تقوم على العلمانية وتستبعد براجمها اتباع أي دين من الأديان ، لكنها في الحقيقة تتبع اليهودية ، وتعمل سراً للخدمة الصهيونية ، فمظهرها العام أنها للخدمة الاجتماعية ، ويسمون أنفسهم جماعة « البنائين » وهي تشكيلات غامضة ، انتشرت في أنحاء الأرض ، وتأخذ أحياناً ألواناً من التنظيمات المختلفة الأسماء كالليونز (أي الأسود) و (الروتاري) ثم تستقطب أعيان البلاد وكبار الموظفين ، توجههم في النهاية لأهدافها التي أشرنا إليها ، وتقوم على السرية التامة ، ويقسمون ميثاقاً يقيد الأعضاء بقيود رهيبية ، ثم انهم يقتلون كل من يخالفهم في الرأي ، أو يذيع سراً من أسرارهم .

أنه عمل منظم ، ورئاستهم غير معلومة ، وترتبط حلقاتهم بتنسيق دولي غامض .

ومن المبادئ المنحرفة أيضاً: الصهيونية.

لأنها قامت على فكرة إنشاء دولة يهودية على أرض فلسطين يحكمها ملك من نسل داوود في زعمهم. ويصرون على بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى في القدس الشريف — بالذات — ثم انه حسب تعليماتهم ومخططاتهم، تنشأ هذه الدولة على أساس كتبهم المقدسة، والعنصرية السامية، واضطهاد ما عداها من الأديان والمذاهب — بما في ذلك المسيحية والإسلام — وتمتد لتحكم العالم كله، وقد أصبحت كثير من الدول في حاجة لأموالهم، وتستفيد من تكتلهم فهي تنافق لهم وتساعدهم.

ومن الأفكار المنحرفة كذلك: قولهم: «الدين لله والوطن للجميع».

والإسلام يقول: إن الدين والوطن كلاهما لله رب العالمين، وليس الوطن للجميع وإنما هو للمصلحين فيه وللمتقين. قال تعالى: «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». ولكن هذه العبارة تنطوي على هدف خبيث، ويفسرونها بأن التدين مسألة شخصية، لا تخص إلا صاحبها، فليس مسئولاً عن غيره وليس تدينه مما يؤهله لشيء مهم، بينما الوطن عندهم هو الأكبر وهو الأهم، وعلى الجميع أن يتعاونوا في خدمة الوطن وافتدائه، ولا شيء غير الوطن. فهي فكرة تجعل الطين بديلاً عن الدين.

ومن الأفكار الزائفة أيضاً: قولهم بمساواة الرجل بالمرأة: وليتهم قالوا

مساواة المرأة بالرجل، وهي مسألة غير طبيعية، لأن الله تعالى خلق المرأة باستعداد معين، ولوظيفة معينة، أولها إحصان الرجل، والقيام على البيت، بما في ذلك من رعاية الولد والزوج، فالسعي لإخراجها من بيتها وعرضها بزینتها على الآخرين، فيه إضرار لا تخفى، والسعي لتشغيلها بالأعمال التي هي من طبيعة الرجل، قد أدى إلى حدوث البطالة في مجموعة الرجال «وهم المسئولون عن إعاشة البيوت». أما إرهاقها جسدياً إلى جانب ما تتحمله من الواجبات المنزلية فقد انعكس على صحتها، وترك أكثر الأبناء ضيعة في الشوارع، وأدى إلى إهمال

حق الرجل مما نتج عنه الشقاق ثم الفراق — وما نتج ذلك إلا عن فكر هدام،
وبهدف شيوع الفساد والانحلال في العالم .

أيها المسلم الكريم ... كن على حذر من كل فكر منحرف، وزن كل شيء
بميزان الإسلام، فإن تلك التيارات والشعارات لا تصلح لنا، ولم تحقق لأحد
سعادة قط .

ومن ذلك نظرية النشوء والتطور وأصل الأنواع: التي قال بها العالم الطبيعي
« داروين » اليهودي في كتابه (أصل الأنواع) . وخلاصتها أن بعض مواد
الطبيعة تراكمت وكونت الخلية الوحيدة « الأميبا » . ثم جعلت هذه الأميبا
تنقسم وتتشكل حتى صارت منها الأسماك ذات الأرجل، ثم تخلصت من
أرجلها وتطورت، فصارت جنساً أرقى ثم تسلسلت الأجناس من تلقاء نفسها
حتى صارت قردة، وتهدبت أشكال القردة فصارت جنس بني آدم، ويستدل
على ذلك بما جمع من عظام وحفريات قديمة، وهو يزعم أن هذا التطور والنشوء
والارتقاء قد ثم ببطء في ملايين السنين . وينتقل إلى القول: بأن التطور مستمر
في العالم، بسبب قانون تنازع البقاء والبقاء للأصلح، فيهلك الضعيف ويبقى
القوي، ومقتضى هذه النظرية التي لا زالت تدرس في المدارس العربية
والإسلامية، ويؤمن بها الكثيرون، أن الله لم يخلق شيئاً، وأننا ننحدر من سلالة
القرود، وإن الطبيعة هي الخالق .

وقد رد عليه العلماء وسفهاوا هذه الآراء، إلا أن الكثيرين من المثقفين لا
زالوا يصدقونها وينون عليها . والقرآن الكريم ينفي هذه المزاعم بما قرره من أن
الله خلق آدم بشراً سوياً، في أحسن تقويم، وعلمه الأسماء كلها، فليحذر
المسلمون من هذا الانحراف .

ومن ذلك نظرية تفسير التاريخ:

يقول الشيوعيون أن المجتمعات الإنسانية بدأت شيوعية مختلطة المال
والنساء، ثم قام بعض الظالمين الأنانيين واخترعوا فكرة التملك، والاستحواذ

على أموال وعلى نساء . ثم تطورت إلى فكرة الرأسمالية ، وسوف تعود الدنيا إلى أصلها... وتتقرر الشيوعية العالمية من جديد ، وهذا الزعم باطل ، فإن الثابت بأن نظام الأسرة هو من أقدم الأنظمة وأن الشيوعية مخالفة لطبيعة البشر .

ومن الأنظمة المنحرفة كذلك : تعريفهم للاقتصاد وأهدافه ، وهم يعلمون الناس في الجامعات الآن أن هدف الاقتصاد عند كل إنسان هو تحقيق المنفعة الشخصية ، بصرف النظر عن مراعاة مصالح الآخرين ، وهذا الفكر الخبيث أدى إلى شيوع الربا ، والأزمات والاحتكار ، والصراع على مصادر الثروة ، ثم تسبب في قيام الحروب والشحناء بين الناس . أما الإسلام فيقرر أن الأرض لله ، وأن المال مال الله ، وأن الإنسان مستخلف في هذا المال ، مطالب بتنميطه ، وفعل الخير به ، وإخراج الزكاة منه ، ثم أنه سيتحول عنه إلى القبر ، ويُسأل عن ماله يوم القيامة ، فيم أنفقه ومن أين اكتسبه . وقد أدت هذه النظرية إلى اسعاد العالم الإسلامي ، ومن يتصلون به .

ومن الأفكار المنحرفة كذلك : تحريف معنى الفن فالمفروض أن الفن هو اتقان العمل والصناعة والحرف فهناك الفنانون المتخصصون في العمارة والصناعة والزراعة مما ينفع الناس .

أما التصور الحالي للفن : فيقتصر على اللهو والتسلية والطرب ، وأكثره يقع في دائرة الحرام ، حتى أن المرأة المنحرفة تسمى فنانة ، لأنها تتناول الرقص والغناء في أوساط الرجال ، فبينما كان الفن شيئاً رفيعاً يخدم البشرية ، أصبح شيئاً ساقطاً في غالب الأحوال ، يؤدي إلى اضاعة الدين والمال والأوقات .

ومن الانحراف كذلك : قول بعض الفلاسفة : أن الدين والفن ينبعان في النفس من أصل واحد واستدل على ذلك بما يقع في صلوات النصارى في الكنائس ، من مرافقة بعض آلات الموسيقى لها ، وما يقع في عبادات الزوج وبعض الغابات من الاضطراب والفوضى ، وما يصنعه بعض الصوفية من الرقص وما إلى ذلك .

والحقيقة أن العبادة تختلف عن الفن ، بل أنها تنكره وتجعله مفسداً لها ، لقول الله تعالى : «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» . إن العبادة تستلزم الخشوع ، وهدوء النفس ، والتوجه إلى الله ، والأمل في ثوابه فليعلم المسلمون ذلك .

وتقاس على هذا الفهم قضايا عديدة — فليحذروا الأفكار المنحرفة حتى لا يفارقوا هدى الشريعة السمحاء . والحمد لله رب العالمين .